سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية

أهمية المشاعر

الأدب الصيني

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

تأليف: يي زو وي



BEIJING PUBLISHING GROUP



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة — الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة — الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق — تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية — الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية — الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية — الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي — العمارة الصينية
- التشابه والتغاير — فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم — العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح — الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي — الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية — الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح — الخط الصيني
- عالم صغير — الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر — الأدب الصيني
- طفولة حضارة — الأساطير والخرافات الصينية
- كلّ متكامل بين العالمين العقلي والمادي — الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل — الأوبرا التقليدية الصينية


ISBN 978-614-01-2012-9


جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



أهمية المشاعر

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

تأليف: يي زو وي



B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Emotion is What Matters
Chinese Literature

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2017-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة

لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوِّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

汤一介

مقدمة الكتاب
جاذبية الأدب

لا يصعب علينا تحديد وظائف الأشياء التي نراها حولنا في هذا العالم، فالناس يستخدمون السكين لتقشير تفاحة، والنقود لشراء الحاجيات، والسيارة للتنقّل. ولكن يصعب علينا كثيراً تحديد وظيفة الأدب؛ وذلك لأن الأدب لا يمكنه تزويد إنسان جائع بالطعام، ولا تدفئة شخصٍ في الأيام الباردة. في هذه الحالة، أيمكننا القول إن الأدب عديم الفائدة؟ لكن، إذا كان هذا صحيحاً، فهل كان ذلك العدد الكبير من الناس الذين يكرسون حياتهم للقراءة والكتابة سيكون موجوداً؟ أيمكننا القول إن أولئك الناس مصابون بالجنون؟

كان الكتّاب الصينيون القدماء يعتقدون أن الأدب مفيد بأوجهٍ عدة. كما أن كونفوشيوس قال إنه بإمكان القصائد المساعدة على فهم المجتمع، والناس، والأخلاقيات الاجتماعية. واعتبر المعلّقون على كتاب الأغاني أن القصائد تساعد على تنظيم العلاقات الأُسرية، وتحسين السلوكيات الاجتماعية. لكنّ الناس اعتبروا في وقتٍ لاحق- أي منذ أيام سلالة تانغ وحتى أيام سلالة تشينغ- أن الأدب يقوم بتنوير المجتمع. ويمكننا اعتبار كل ذلك بمثابة وظائف الأدب الاجتماعية.

يساعد الأدب أيضاً على فهم أمزجة الكُتّاب، أي أن الناس يعجزون من دونه عن فهم عدم اكتراث تاو تشيان حيال النزعة المادية، أو نقاط قلق دو فو بشأن البلاد. أليس الأدب مفيداً في هذه الحالة؟

يُحتمل أن يعتبر القراء المتنورون هذا التوضيح غير منطقي إطلاقاً. ولكن، يتعيّن أن تستند الوظائف الاجتماعية للأدب التي تحدثنا عنها أعلاه على فرضية واحدة؛ وهي أن تكون واقعية وذات مصداقية، وعلى الأخص عندما نعلم أن الأدب إبداعٌ ذاتي للكاتب، أي أنه ليس من الضروري أن يكون حقيقياً بشكلٍ تام. ويعني ذلك أنه يستحيل على

الأدب أن يعكس مزاج الكاتب، أو الحقبة التي يعيش فيها بكل أمانة. ويستلزم ذلك الفهم الحصولَ على فهمٍ أفضل لمصداقية الأدب.

تسهل علينا معرفة الحقيقة في عالم الواقع. فعلى سبيل المثال، إننا نشعر بالألم إذا تعرضنا لوخزة إبرة، ونشعر بالبرد في الطقس المثلج، ونعرف أن الشمس تشرق من الشرق، وتغيب من جهة الغرب، وأن الأمطار الغزيرة تنهمر بعد ظهور السحب الداكنة. إنّ كل هذه الظواهر التي تحدثنا عنها هي ظواهر يمكننا الإحساس بها.

لكن يوجد نوع آخر من الواقع، والذي يستحيل أن يكون موضوعياً أو منطقياً. ويتكون هذا النوع من الواقع بفضل مخيلة الشاعر ومشاعره. ويمكننا هنا أخذ قصيدة لي باي- وهي بعنوان من خلال مضائق يانغ تسي- كمثال، فقد وردت فيها عبارة: «ألف ميلٍ تفصل جدران بايدي العالية وسط ألوان الفجر عن جيانغ لينغ»؛ وهي عبارة عكست مزاج الشاعر الذي يشعر بالبهجة، وذلك بدلاً من ذكر المسافة الحقيقية الفاصلة بين بايدي وجيانغ لينغ. ويستند هذا النوع من الحقيقة على مخيلة الشاعر الذاتية ومشاعره، وهي التي قد تكون غير منطقية إطلاقاً، ولكن لا يمكن إنكارها في الوقت ذاته. ويعتبِر الشاعر أن المشاعر أكثر أهمية من التجارب المحسوسة؛ وهذه هي حقيقة الأدب.

يمكننا ملاحظة هذه الحقيقة الأدبية في أعمال عددٍ كبير من الفنانين الصينيين القدماء؛ بمن فيهم الشاعر مينغ جياو، والرسام تشانغ زاو اللذَين عاشا في عهد سلالة تانغ. وقد شدّد الشاعران على أهمية الإدراك الذاتي في أعمالهما.

تُعتبر الحقيقة الأدبية مزيجاً متجانساً من البيئة الخارجية ومشاعر المُبدع الداخلية، وتستند هذه الحقيقة الشاعرية كثيراً على مشاعر الكاتب، ولعل ذلك هو السبب الذي يجعله يشعر بالبهجة والفرح، ويدفعه إلى رؤية صورة مليئة بالحياة ومفرحة حيث لا يرى الآخرون إلا ظلمةً حالكة.

نستنتج من كل ما تقدّم أن الحقيقة في الأدب هي نتاج مخيّلة الكاتب الذاتية. ويعني ذلك أنه ليس من المنطقي توقّع أن يكون الأدب منطقياً وواقعياً بالكامل؛ وذلك لأن هذا الأمر يجرّد الأدب من جاذبيته. إن هذه الحقيقة الشاعرية لا تتواجد في القصائد

فقط، بل أيضاً في فنون أخرى مثل الخط والرسم، والهندسة المعمارية، وهندسة الحدائق، والمسرح. ولكن، يتعيّن علينا عند قراءة الأعمال الأدبية، أو كتابتها أن نعي تماماً مفهوم الحقيقة الأدبية. أما إذا لم نفعل ذلك، فلن نستطيع فهمَ جاذبية الأدب الصيني فهماً تاماً.

وبالنسبة إلى وظيفة الأدب، لا يتعيّن علينا أن نتفق تماماً مع مفهوم الكتّاب القدماء لهذه الوظيفة. ولكن الأدب الصيني لم يكفّ عن دوره في الإيحاء بالمشاعر، وذلك بغضّ النظر عن تغيّر الأزمان. إننا نلاحظ عند قراءتنا الأدب الصيني أن الكلمات الجميلة، والخطابة المنمقة، ليست الأكثر أهمية، أي أن أكثر ما يجذب القراء هو أفكار الكاتب ومشاعره. ويمكننا القول بهذا المعنى إن القراء يتمكنون من التواصل مع الكتّاب بما يتجاوز الزمان والمكان.

تواجد في فترة الربيع والخريف شخصان شهيران هما يو بويا وتشونغ تسي تشي، كان يو عازف غو تشين (آلة موسيقية ذات سبعة أوتار كانت شائعة في الصين القديمة)، أما تشونغ فكان مستمعاً لبقاً، وقد فهِم جيداً الأمور التي كان صديقه الحميم يحاول التعبير عنها عن طريق الموسيقى. ولكن بعد وفاة تشونغ، عمد يو إلى كسر آلة غو تشين إلى قطعٍ عديدة، ولم يعزف بعد ذلك قط.

يقوم الكتّاب ببثّ عواطفهم في إبداعاتهم، لكنْ أيمكننا قراءة الأعمال الأدبية بمشاعرنا لكي نفهم ما يحاولون التعبير عنه؟

لا يهدف هذا الكتاب إلى شرح التجربة الأدبية، وعرض قائمة بأسماء مختلف الكتّاب وأعمالهم، أو حتى تحليل مختلف المدارس الأدبية الصينية، وهو لا يعدو عن كونه دليلاً للأدب الصيني، وللمشاعر التي حاول الكتّاب التعبير عنها من خلال أعمالهم.



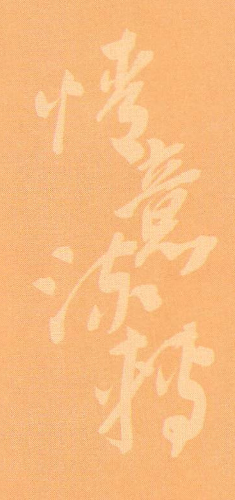
المحتويات











الأدب الصيني

الفصل الأول

الأدب

مفهوم الأدب الصيني

يشتمل الأدب الحديث عموماً على أنواع الفنون المختلفة مثل القصائد والمقالات والروايات؛ وهي كلها تنقل أفكار الكتّاب، كما تعكس طبيعة المجتمع في زمنٍ محدد. أما كلمة أدب ذاتها فتترافق مع تاريخٍ طويل في الصين، ولكنّ معناها تغيّر كثيراً منذ ظهورها لأول مرة. وقد كانت هذه الكلمة تشير في الأصل إلى كتاباتٍ ذات استخدامٍ عملي. كان عدد أتباع كونفوشيوس- الذي عاش بين عامَي 551 و479 قبل الميلاد (الصورة 1-1)- ما يزيد عن 3,000 تلميذ، وكان تسي يو (506-؟ ق. م) وتسي شيا (507-؟ ق. م) من بين أبرز سبعين تلميذاً، كما قدّما أفضل إبداعاتهما في الأدب (ون شيويه).

إذا أردنا التعبير عن نوعٍ من أنواع الفنون، فإن شي (الشعر)، وون (النثر)، وفو (النثر الشعري) كلها تعابير أكثر دقة في واقع الأمر. لكن، هل تواجد مفهومٌ للأدب بوصفه أحد أنواع الفنون في الصين القديمة؟ إذا أردنا الإجابة عن هذا السؤال فسوف يتعيّن علينا معرفة المزيد عن كلمة ون.

شهدت فترة العرّافين ظهور كلمة ون التي كانت تعني في الأصل النمط أو التنميق، ولكنها استُخدِمت لاحقاً للإشارة إلى الأدوات الخطابية. وقد قال كونفوشيوس ذات مرة إن الكلمات



الصورة 1-1 رسم يمثّل كونفوشيوس بريشة ما يوان (حوالى العام 1160- 1225)، على لفافة من الحرير ترجع إلى فترة سلالة سونغ، من مجموعة متحف القصر

يُعتبر كونفوشيوس رمزاً يمثّل معاني عديدة. ويُعتبر عددٌ كبير من أقواله مسلمات وقواعد ذهبية، ولكنه نادراً ما كان يتحدث عن الأدب والفن، بل ركّز على علاقة الفن والأدب مع المشاعر الشخصية أو السياسة. لكن، يمكننا القول إنهما أصبحا في وقتٍ لاحق جزءين رئيسين من النظرية الأدبية.



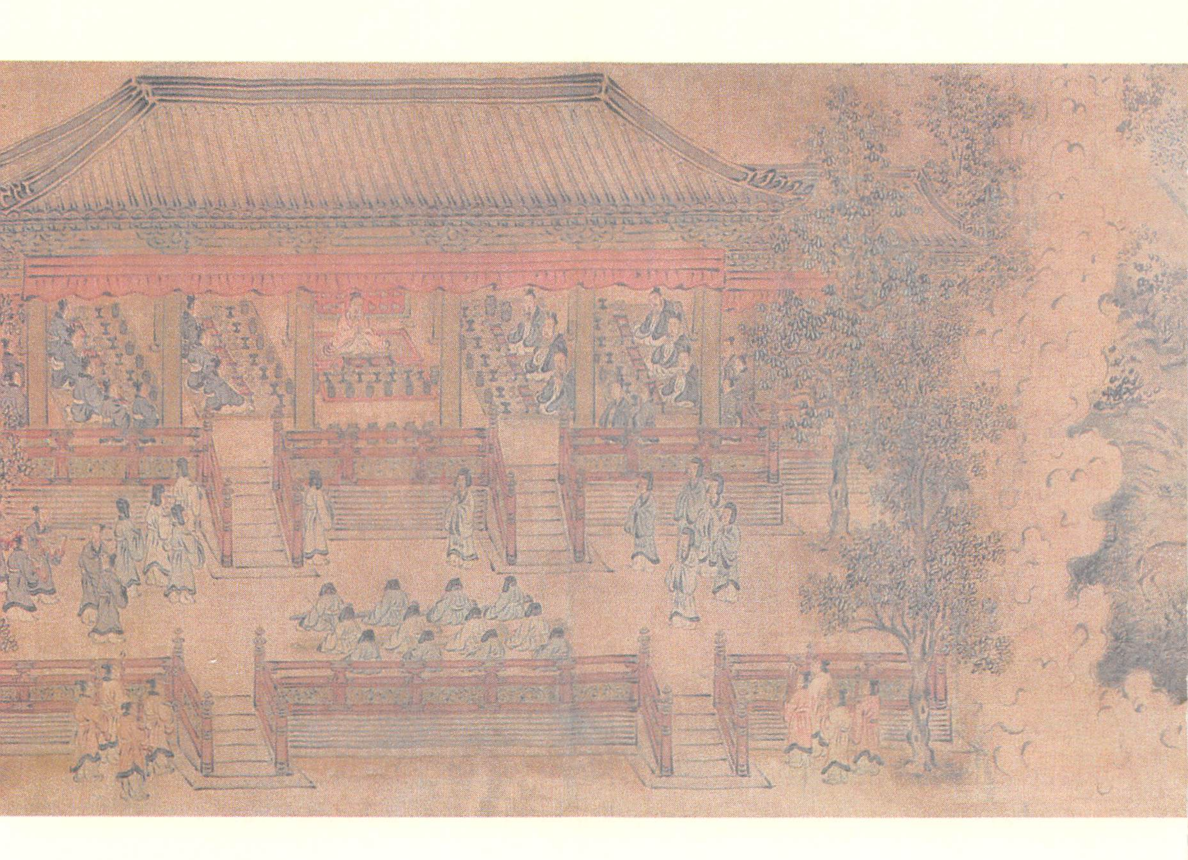
الصورة 1-2 جزء من عشر لوحات عن لو مينغ، بريشة ما هي تشى الذي عاش في فترة سلالة سونغ، وهذا الرسم الملون مرسوم على لفافة من الحرير، من مجموعة متحف القصر

أبيات من قصيدة لو مينغ:
عبر ضفاف ثغاء الغزلان،
وفي البرية حيث ترعى،
أحيّي الضيوف الكرام
وأقول اعزفوا على القيثارة!
واعزفوا على المزمار!

تصف هذه القصيدة بفرح المضيف والضيوف. وقد قدّم ماو الذي عاش في فترة سلالة هان عدة تفسيرات سياسية حول كتاب الأغاني، وتعني لهم هذه القصيدة على سبيل المثال أنه إذا حصل الضباط المخلصون والضيوف على ضيافة سخية، فسوف يقومون برد الجميل لسيّدهم بكل ما أوتوا من قوة.

鹿鳴之什
毛詩小雅
鹿鳴燕羣臣嘉賓也既飲食之又
實幣帛筐篚以將其厚意然後忠
臣嘉賓得盡其心矣呦呦鹿鳴食
野之苹我有嘉賓鼓瑟吹笙吹笙
鼓簧承筐是將人之好我示我周
行呦呦鹿鳴食野之蒿我有嘉賓
德音孔昭視民不恌君子是則是
傚我有旨酒嘉賓式燕以敖呦呦
鹿鳴食野之芩我有嘉賓鼓瑟鼓
琴鼓瑟鼓琴和樂且湛我有旨酒
以燕樂嘉賓之心
鹿鳴

التي تخلو من الأدوات الخطابية المنمقة لا تكتسب شعبية، وإنه يتعيّن على السادة المحترمين امتلاك مزايا راسخة وأخلاقٍ رفيعة. ويمكننا القول في هذه الحالة إن ون في حقبة الممالك المتحاربة كانت أداة خطابية، كما كانت أداةً ذات وظيفة محددة. أما بالنسبة إلى الشعر فإن كتاب الأغاني يُعتبر أول مجموعة شعرية صينية، كما يُعتبر أيضاً



عملاً أدبياً بحسب المعايير الحديثة. ولكن، كان من النادر التحدث عن مزاياه الأدبية في زمن كونفوشيوس، وكان يتم التشديد أكثر على استخداماته العملية (الصورتان 1-2، 1-3). وقد قال كونفوشيوس إنه بالإمكان استخدام الشعر للتعبير عن المشاعر، وللتعبير عن حالة المجتمع، وللتواصل مع الآخرين، وتقديم الشكاوى. لكنّ كونفوشيوس ركّز أكثر



الصورة 1-3 جزء من عشر لوحاتٍ عن جبل جيانان، بريشة ما هي تشى الذي عاش في فترة حكم سلالة سونغ. وهذا الرسم الملون مرسوم على لفافة من الحرير، من مجموعة متحف القصر

في الحقيقة، إن جبل جيانان هو جبل تشونغ نان. وبحسب الأبحاث التي أجريت، إن هذه القصيدة كتبت غالباً خلال حكم الملك يو من سلالة تشو، وذلك قبل وقتٍ قصير من نقل عاصمة تشو إلى الشرق. وقد حدثت اضطرابات داخلية في ذلك الوقت، كما شهدت البلاد قدوم غزاة أجانب، وتعرّض الملك للخداع على يد مستشارين فاسدين. وتصف هذه القصيدة جبل تشونغ نان الوعر وشديد الانحدار، ويأتي هذا الوصف كوسيلة للتعبير عن السخط إزاء الظروف السياسية القومية.

على وظائف الشعر؛ وهو ما فعله الآخرون في ذلك الزمان. كانت القصائد تُقتبس مراراً في الأحاديث اليومية، أو في المفاوضات السياسية بغية التوصّل إلى النتائج المرجوّة. ويمكننا ملاحظة أمرٍ كهذا في قصة مدونة في كتاب تعليقات حول حوليات الربيع والخريف الذي ألّفه تسوه. أما في العام 614 ق. م فقد تحالف إمبراطور مملكة لو مع مملكة جين. ولقي إمبراطور لو ترحيباً حاراً من إمبراطور مملكة تشينغ. وهكذا، ألقى أحد أمراء تشينغ قصيدة من كتاب الأغاني خلال الحفل التكريمي، للطلب من إمبراطور لو التوسط في النزاع بين مملكتَي تشينغ وجين.

4 كان من الشائع خلال تلك الفترة التاريخية أن يعبّر الناس عن أنفسهم عن طريق



الشعر، وكان ذلك هو السبب الذي جعل كونفوشيوس يقول ذات مرة إنه من الصعب أن يتمكّن الناس من التحدّث من دون الشعر. ويعني ذلك أن الوظائف العملية للشعر أكثر أهمية بكثير من المتعة الفنية التي يولّدها.

وقد تحوّل كتاب الأغاني إلى الكتاب الأكثر شعبية بين أتباع كونفوشيوس في فترة مملكة هان، وهم الذين ركّزوا انتباههم على الحِكَم السياسية التي تحتويها تلك المجموعة، ولكنهم لم يكترثوا بالروعة الأدبية التي تحتويها.

كان اشتغال الأشخاص الطموحين بالأدب، وتكريسهم أنفسهم للإبداع الأدبي، معيبين في تلك الفترة. وقد اشتُهر يانغ شيونغ (53 ق.م – 18 م) **(الصورة 1-4)** خلال عهد



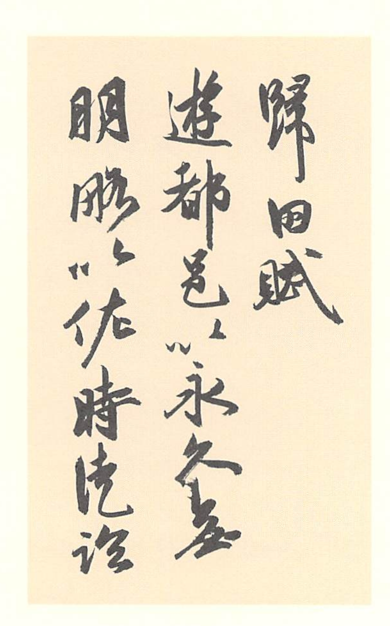


الصورة 1-4 رسم يمثّل يانغ شيونغ من نسخة مينغ لرسوم أوجه القدماء في التاريخ

عندما كان شاباً، أُعجب يانغ شيونغ بفتاة تدعى سيما شيانغ رو، فكتب ذات مرة بعض الأسطر من فو (النثر الشعري). ولكنه اعتبر في وقت لاحق أن كتابة النثر الشعري ليست إلا «إظهاراً للقدرة في أمورٍ صغيرة»، وما لبث أن تحوّل بعد ذلك إلى الفلسفة واللغويات. أما أبرز أعماله فتشتمل على مبادئ اللهجات.

العمل الأدبي من زاويته الوظيفية، ولكنهم قد يتجاهلون الدور الهام الذي يلعبه الأدب، إلا أنهم يعجزون عن إيقاف إبداع الأعمال الأدبية. لكن، بغضّ النظر عن تغيّر الزمان والمكان، إن الحياة الواقعية تبقى مصدراً أساسياً للإبداع الأدبي. ويفسّر هذا الأمر كيف شهدت سلالة هان عصراً ذهبياً للكونفوشيوسية والأدب على حدّ سواء. وتشتمل أبرز الأمثلة على الأعمال الأدبية في ذلك الوقت على أغنية إلى الحياة الرعوية التي ألّفها تشانغ هينغ (78- 139) (الصورة 1-5)، وعلى أغنية إلى عاصمتين من مملكة هان الغربية. وأحبّ يانغ كتابة فو (النثر الشعري الذي كان نوعاً أدبياً شائعاً في ذلك الوقت) في أوائل أعوام حياته الأدبية. ولكنه بعد أن تحوّل إلى الكونفوشيوسية ابتعد عن فو معتبراً أن الكتابة الأدبية دون مستوى الرجال.

يميل الناس إلى الحكم على



الصورة 1-5 العودة إلى الأراضي الزراعية (الريف) في مخطوطة (جزء) كتبها تسو يون مين الذي عاش في فترة سلالة مينغ، مجموعة المتحف الفني في تيان جين

تشتمل فو التي ظهرت في فترة سلالة هان على «فو الكبيرة»، و«فو الصغيرة». ويتحدث النوع الأول عن الأشياء والمناسبات والتلميحات، بينما يميل النوع الثاني إلى التعبير عن المشاعر الشخصية. وينتمي كتاب العودة إلى الأراضي الزراعية الذي كتبه تشان هين إلى فو الصغيرة، وهو مليء بأفكار تعبّر عما يتخيله المؤلف، وعن توقعات رؤية الأماكن المنعزلة وحياة الوحدة.

تأليف بان غو (32-92)، وعلى أشعار سبعة شعراء مشهورين في أواخر فترة سلالة هان الشرقية. وكان عدد كبير من الأدباء في تلك الفترة باحثين متنورين في الكونفوشيوسية. ويمكننا القول في هذا الإطار إنه بإمكان الإبداع الأدبي والبحث الأكاديمي أن يتطورا بانسجام.

تشير السجلات التاريخية الموجودة لدينا إلى أن فترات حكم سلالتَي وي وجين، والسلالات الجنوبية والشمالية كانت فترات هامة بالنسبة لتطور الأدب الصيني. وقد شهدت تلك السنوات ظهور عددٍ من النقاد المشهورين بمن فيهم تشونغ رونغ (نحو 468- 518)، وليو شيه (نحو 465-520). كما شهدت تلك الفترة ظهور عددٍ كبيرٍ من الشعراء مثل تساو تشي (192-232)، ولو جي (261-303)، وتاو يوان مينغ (نحو 365-427). يُضاف إلى ذلك أن الحكم حينها كان على الأعمال الأدبية من وجهة نظر واحدة، أي بحسب وظيفتها العملية. ثم وضعوا معياراً آخر. دُعيت الأعمال الإيقاعية باسم ون، أما الأعمال الخالية من الإيقاع فقد دُعيت بي. وقد أظهر هذا المعيار الجديد أن الناس يولون انتباهاً أكبر للشكل الأدبي. وكان العدد الكبير من الأعمال النقدية الأدبية التي ظهرت في هذه الفترة علامةً على أن الكتّاب أو الشعراء بدأوا في التفكير في مواضيع أدبية أكثر تحديداً؛ بما في ذلك الإلهام والتعبير والمزايا الأسلوبية.

شرح شياو تونغ (501-531) (الصورة 1-6) في المقدمة التي وضعها لكتابه مختارات أدبية ماهية العوامل التي اعتمدها في مختاراته تلك. ولم يقتصر الأمر على الأفكار، بل كان الشكل الأدبي يجب أن يؤخذ في الحسبان. وقد كان هذا هو السبب الذي دعاه إلى تجاهل كتب كونفوشيوس الكلاسيكية؛ بالرغم من الأفكار العميقة والحكمة التي تضمنتها تلك الكتب. وهكذا، تم اختيار الأعمال التي تشمل العواطف الصادقة والأدوات الخطابية الراقية لتكون موضع دراسة في المقدمة. (الصورة 1-7)

اعتبر بعض الأشخاص تلك الفترة أنها فترة الوعي الأدبي، وبدأ الكتّاب بقراءة الأدب بانتباهٍ كامل. ويُحتمل أن الأدب الراقي لا يلعب دوراً كبيراً في حكم بلدٍ ما، ولكنّه يترك في الناس سحراً باقياً وجاذبية لا تنتهي.

يحب الشعب الصيني التحدث عن قيمة الأدب؛ مثل اعتبار أنه وسيلة لإيصال فكرة أو حقيقة. لكن، كلّما تعمقنا في الأدب الصيني أكثر لاحظنا أنه مرتبط بشدة مع الكتّاب





الصورة 1-6 رسم يمثّل شياو تونغ، طبعة مينغ من وجوه القدماء في التاريخ

لم يقدّم شياو تون الذي كان أمير تشاو مينغ أي إسهامٍ هام، وذلك من وجهة نظرٍ سياسية. لكنّ التزامه وإسهاماته في الأدب كانت كافية لجعله شخصاً شهيراً في تاريخ الأدب. أما كتاب مختارات أدبية، والذي كان من تنقيحه، فقد كان أول مجموعة من القصائد والمقالات في تاريخ الأدب الصيني. وقام الأدباء الذين ظهروا في الفترات التالية بدراسة هذه المختارات؛ وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور دراسات المختارات الأدبية.

الصورة 1-7 طبعة مين من كتاب ملاحظات مختارة حول الموظفين الستة، وهي نسخة عن مختارات أدبية، وطبعة تيان رو تشينغ، من مجموعة اللفافات المحفوظة في قاعة شيانغ

يُطلَق على كتاب مختارات أدبية عنوان مختارات تشاو مين الأدبية، وهو يحتوي على ما يزيد عن 30 عملاً من القصائد، والأغاني، وساو وتشاو، وذكريات وشو. وقد أشار شياو تون في المقدمة إلى أنه لم يتم اختيار تلك الأعمال بحسب وظائفها السياسية، بل بحسب مزاياها الأدبية والفنية، وكذلك بحسب معاييرها التي تؤكد من دون شك على ميزة استقلالية الأدب.

والعالم. ويعني ذلك أن الأدب بحد ذاته مفهومٌ معقّد. وهكذا، لا يعود من الضروي التفتيش عن تعريفٍ محددٍ يشمل كل حالاته، كما يصبح من الأجدى التفكير في جوهر الثقافة الصينية التي يحتويها الأدب.

يجسّد الأدب الصيني أفكار الصينيين بشأن الناس والحياة والعالم. وهكذا نجد أن الباحث الشهير وانغ غوو وي (1877- 1927) لخّص ذات مرة مستويات الحياة الثلاثة. فقد قال وانغ إن كل أولئك الأشخاص الذين حققوا إنجازاتٍ هامة في مِهنهم، أو في حياتهم لا بد أنهم مرّوا بهذه المستويات الثلاثة: الوحدة في تعيين هدفٍ لهم، والتعب والألم في السعي لتحقيق الهدف، والسعادة التي سيشعرون بها بعد تحقيق ذلك الهدف.

| أنواع الأدب الصيني

يشبه الأدب الصيني حديقة متنوعة الألوان. فالكتّاب يعبّرون عن أفكارهم ومشاعرهم بأساليب مختلفة. إننا نستمتع بالشعر، والنثر، والخرافة، والمسرحيات في الأدب مثلما نشعر عند رؤيتنا الأشجار، والشجيرات، والأزهار، والأعشاب المتواجدة في الحديقة. ويمكننا تقسيم الشعر الصيني إلى قصائد الحروف الأربعة، والقصائد القديمة، والقصائد الموزونة، والرباعيات. ويشتمل النثر على المقالات الكلاسيكية، والكتابة التقليدية المقسّمة إلى ثمانية أجزاء، والنقوش، والمديح. أما الأدب الخيالي فينقسم إلى المقاطع الأدبية والأساطير والروايات باللهجة العامية والروايات المقسّمة إلى فصول، بينما تشتمل الأعمال المسرحية على المسرحيات الواقعية والأساطير. ويعني ذلك أن الأدب الصيني كثير التنوع في ما يتعلّق بالأنواع.

تُدعى الصين بلاد الشعر؛ وهو الأمر الذي يبرهن على الدور الهام الذي يلعبه الشعر في تاريخ الأدب الصيني. أما في الصين القديمة، فقد كان الشعر يُستخدم مراراً في عددٍ من المناسبات الاجتماعية، والتي تشتمل على الامتحانات والولائم وحفلات الوداع.

قال كونفوشيوس ذات مرة إنه من الصعب على الناس التعبير عن أنفسهم من دون الشعر. وقد استُخدم الشعر في اليونان القديمة للحديث عن المآسي، وذلك قبل أن يأخذ معناه الحديث. لكنّ الشعر الصيني بقي ثابتاً نسبياً بالمقارنة مع نظيره الإغريقي.

يمكننا القول إن الشعر الصيني يختلف بصورة أساسية عن الأنواع الأدبية الأخرى مثل النثر والمسرح، وذلك بالرغم من التغيّرات العديدة التي طرأت على أشكاله مع مرور الوقت. ويعني ذلك أنه في الزمن الذي عاش فيه كونفوشيوس (منذ نحو 2,500 عام) كانت معظم الأبيات مؤلفة من أربعة أحرف، وكان المقطع الصوتي مؤلفاً من حرفين. وبما أن كل حرفٍ صيني يشكّل صوتاً منفصلاً بمفرده، فإن الإيقاع يتألف عادة من أكثر من حرفٍ واحد. ولكن مع التطور الذي حدث لاحقاً، أصبح الشِّعر الصيني يشتمل على قصائد قديمة في الشكل، وعلى قصائد موزونة ورباعيات، لكن الأحرف بقيت خمسة أو سبعة في كل سطر.

ينقسم الإيقاع بالنسبة إلى القصائد التي تعتمد أبياتها على خمسة أحرف بين الحرفين الأولين وآخر ثلاثة أحرف (ومثال على ذلك قصيدة الأخوة التي نظمها تساو تشى). أما بالنسبة إلى القصائد التي تعتمد سبعة أحرف، فتتواجد طريقتان مختلفتان: إما



أن ينقسم الإيقاع بين الأحرف الأربعة الأولى والأحرف الثلاثة الأخيرة، أو بين الحرفين الأولين والحرفين الأوسطين وآخر ثلاثة أحرف (على سبيل المثال، قصيدة عند الحدود التي كتبها وانغ تشانغ).

اعتاد الشعراء اتّباع طريقة الإيقاع الفاصلة هذه؛ إلا إذا حاولوا إحداث تأثيرٍ خاص. وينقسم الشعر الصيني إلى شعرٍ قديم وشعرٍ حديث. ولكن بالرغم من القيود التي يفرضها الإيقاع، فإن الشعر القديم يُعتبر حراً في الشكل، أما الشعر الحديث فيتبع قواعد صارمة في شطوره وأصواته، وبلاغته (الصورة 1-8). يمكننا ملاحظة هذا الفرق في القواعد

الصورة 1-8 نسخة من مجموعة قصائد كتبها دو فو، من طبعة مينغ لمجموعة قصائد دو فو مع ملاحظات وإضافات من آلاف الأدباء

اشتُهر دو فو بشعره، كما أن أعماله كثيراً ما تُستخدم كنماذج في الكتب الدراسية. وقد كانت أفكاره وقيَمه متناغمة مع أفكار كونفوشيوس وقيَمه. وهكذا، إن قصائده كانت جزءاً من كل دراسة قام بها الباحثون. وقيل أيضاً إن آلاف الباحثين قاموا بتدوين ملاحظات حول قصائده.

الصورة 1-9 نسخة عن ملاحظات شاردة التي كتبها وانغ ينغ لين، وهي مجموعة كاملة عن فروع الأدب الأربعة، من مجموعة مكتبة ون يوان

يمكننا أن نلاحظ أن عمق القصائد يرتبط بشدة مع دراسة الأنغام الأربعة، والأخطاء الثمانية. أما ملاحظات شاردة التي كتبها وانغ ينغ لين في عهد مملكة سونغ (1223-1296) فقد أوردت أن شن يوي في عهد السلالات الجنوبية هو الذي وضع مقدمة الأخطاء الثمانية المملة، وكذلك خاتمتها الضعيفة، وإسنادها الضعيف، بالإضافة إلى الأمثلة الضعيفة التي قدّمها، وقوافيها الساكنة غير الصحيحة، وقوافي أحرف العلة، والقوافي المتقاربة، والقوافي المتشابهة.



التي تتبعها القصائد الموزونة ذات الأحرف السبعة. فعلى سبيل المثال، يتعيّن أن يأتي الحرف الثاني من الشطر الأول بنغمة مستوية، أما الحرف الأخير من الشطور المتساوية فيجب أن يكون إيقاعياً، بينما تكون الشطور الثانية والثالثة والرابعة والخامسة متعاكسة (على سبيل المثال، قصيدة ترحيب من القلب إلى نائب رئيس تشو من نظم دو فو).

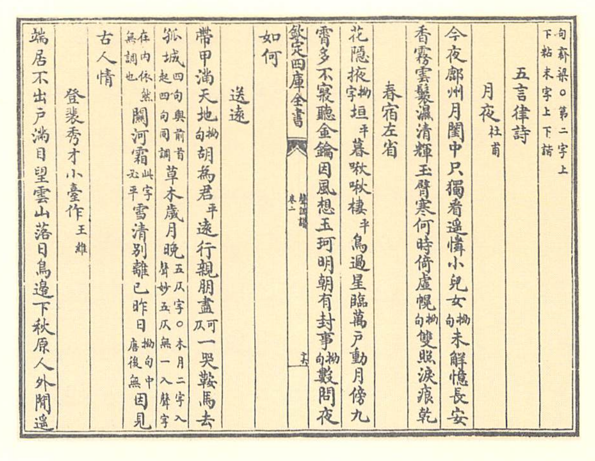
تمتلك الأحرف الصينية أربع نغماتٍ مختلفة. ونلاحظ أنه في الشعر الموزون الذي يعتمد سبعة أحرف تكون نغمات الحرف الأول والثالث والخامس من كل شطر مضبوطة بشكلٍ صارم، بينما يكون الحرف الثاني، والرابع، والسادس حرةً نسبياً (الصورة 1-9). ويشير التعاكس (أو التناقض) إلى ثبات أقسام الكلام، أما القافية فتُعتبر قاعدة أخرى للشعر الموزون.

الصورة 1-10 لوحة ضفة النهر في يومٍ مشمس، بريشة يون شو بينغ الذي عاش في فترة سلالة تشينغ. هذه اللوحة مرسومة على لفافة من الحرير، من مجموعة متحف لياوننغ الإقليمي

قصيدة برج الرافعة الصفراء ألفها تسوى هاو، وتتميز بقوافيها الصارمة وبعمق أفكارها، وهي إحدى أكثر القصائد اقتباساً في الكتب الأخرى.

في قديم الزمان حملَت رافعة صفراء
أحدَ الحكماء إلى السماء
لم يبقَ شيء منها الآن غير
برج الرافعة الأصفر
لكنَّ الرافعة الصفراء لم تعُد
قط إلى الأرض.
والسُحُب البيضاء تهيم من دونه
إلى الأبد.
يتمايل ظل كل شجرة في المياه الصافية
وجزيرة الببغاء مليئة بالأعشاب الرائعة
لكنني أتطلع نحو منزلي مع ازدياد الظلمة
وتكتسي أمواج النهر بستارٍ من الأسى.

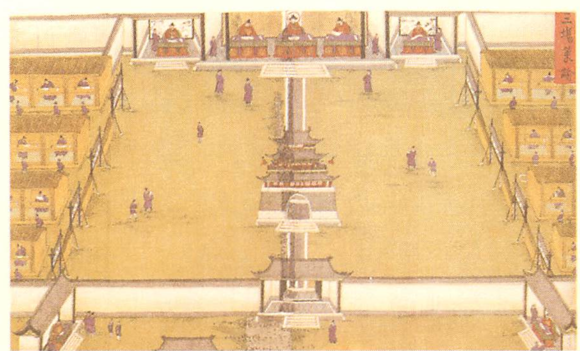




句薊梁○第二字上下粘末字上下諧
五言律詩
月夜 杜甫
今夜鄜州月閨中只獨看遥憐小兒女拗句未解憶長安
香霧雲鬟濕清輝玉臂寒何時倚虛幌拗句雙照淚痕乾
春宿左省
花隱掖拗字垣平暮啾啾棲平鳥過星臨萬戶動月傍九
霄多不寢聽金鑰因風想玉珂明朝有封事拗句數問夜
欽定四庫全書 聲調譜 卷二
如何
送遠
帶甲滿天地拗句胡為君平遠行親朋盡可仄一哭鞍馬去
孤城四句與前首起四句同調草木歲月晚五仄字○木月二字入聲妙五仄無一入聲字
在內依然無調也關河霜此字必平雪清別離已昨日拗句中唐後無因見
古人情
登裴秀才小臺作 王維
端居不出戶滿目望雲山落日鳥邊下秋原人外閑遥

الصورة 1-11 نسخة من تان لونغ غلو من تأليف تشاو تشى شين. المكتبة الكاملة لفروع الأدب الأربعة، مجموعة مكتبة ون يوان الأدبية

كانت الأبحاث حول الأوزان والقوافي في الشعر شائعةً في عهد سلالة تشينغ. وقد كتب تشاو تشى شين (1662-1744)، وونغ فانج يانغ (1733-1818)، وباحثون آخرون أبحاثاً متخصصة حول هذا الموضوع. واعتبر الباحثون أن استخدامات أوزان الشعر وقوافيه وتغييرها ليست فقط أشكالاً موضوعة مسبقاً أو قواعد للكتابة، ولكنها تعبّر عن قدرة الشاعر ومعرفته.



الصورة 1-12 لوحة أفقية عن موقع إجراء الامتحانات بريشة رسام مجهول في فترة مملكة مينغ، وهي لوحة ملونة مرسومة على لفافة حريرية

عُرفت الصين بأنها بلد الشعر. وقد اعتُبر الشعر منذ وو زيتيان في عهد سلالة تانغ معياراً في اختيار الموظفين الحكوميين. ويعني ذلك أن الشعر اعتُبر إحدى المهارات الأساسية للباحثين والطلاب. وقد وصلت أوساط الشعر إلى مرحلة متقدمة؛ وإن كان ذلك قد حصل بصورةٍ تدريجية، وتعزز في بيئةٍ كهذه. وتمثّل هذه الصورة الموقع الإمبراطوري المدني لإجراء الامتحانات.

تُعتبر القواعد التي ذكرناها أعلاه معقدةً بالفعل، ولكنها تجعل القصائد الموزونة جميلة في إيقاعها وتراكيبها. وهذا هو السبب الذي يجعل الشعراء يتبعون هذه القواعد سنة بعد سنة. (الصورة 1-10)

اعتبر بعض الأشخاص في مطلع القرن العشرين أن تلك القيود تجعل الشعراء يرقصون مقيّدين بالأصفاد ولذلك يجب إلغاؤها. وقد أدى هذا الأمر إلى إثارة جدال في ما يتعلق بالعناصر التي تشكّل قصيدة. (الصورتان 1-11، 1-12)

لا يجب مقارنة النثر مع الشعر وإلزامه باتباع هذه القواعد الصارمة. ولكن المطلوب أن يكون مكتوباً بطريقة صحيحة. ويتعيّن على النثر مثلاً أن يكون مكتوباً بلغةٍ مزخرفة، وأن يكون الخط أنيقاً وجاداً، كما يجب على الكتابة التقليدية المقسمة إلى ثمانية أجزاء أن تكون متماسكة التركيب. ولكن، لا يفترض بطبيعة الحال أن يكون كل النثر مكتوباً بالطريقة الصحيحة المتعارف عليها. لم تكن المقالات التي كانت تحظى بشعبية كبيرة

ملتزمة بأي قيد، وكان كل المطلوب من تلك المقالات أن تعكس مباهج الحياة اليومية.

يرتبط الأدب بشدة مع الحياة الواقعية، كما يمكننا ملاحظة مباهج الحياة اليومية في عدة أشكال أدبية من مثل سي (شكل أدبي كان شائعاً في فترة سلالة سونغ). وكان هذا الشكل الأدبي أغنية في الأصل، واشتُهر بتقييده تركيبة الجملة والمقاطع الصوتية (الصورة 1-13). وكان بعض الكتّاب الصينيين القدماء ماهرين في الأغاني والتأليف. يمثّل جيانغ كوي (1154-1221) الذي عاش في عهد سلالة سونغ نموذجاً جيداً في هذا المجال، كما أنّ بعض الموسيقى التي ألّفها لا تزال حيةً حتى اليوم (الصورة 1-14). يمكننا أن نتخيّل اليوم مدى السرور الذي كان الكتّاب القدماء يشعرون به أثناء مشاهدتهم العروض الفنية لدى تناولهم الشراب(الصورة 1-15). أما المسرح فهو فنٌّ استعراضي، ولذلك تتضمن نصوصه ليس القصة فقط، بل بعض الموسيقى والحركة والحوار. ويمكننا ملاحظة

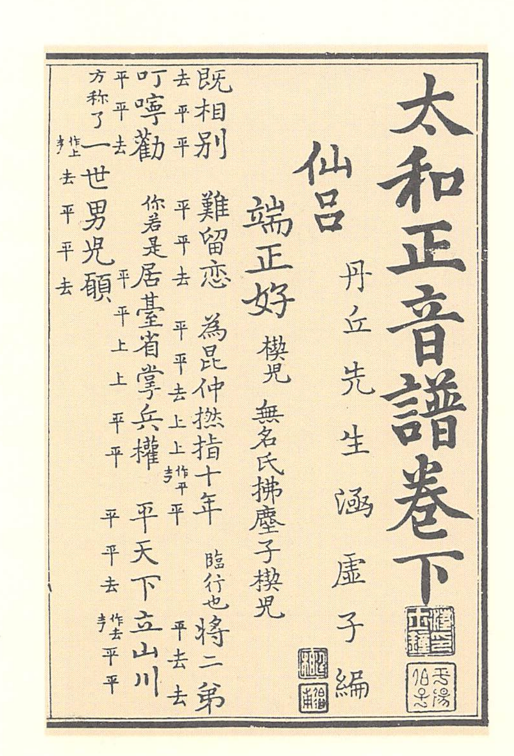
الصورة 1-13 نسخة عن أغنية سي التي كتبها وان شو في فترة سلالة تشينغ

منذ كتابة قصيدة سي لتكون أغنية، كانت متطلبات نوعيتها الموسيقية صارمة. كان سي باي اسم أغنية، وكانت كل أغنية تخضع لمتطلبات ثابتةٍ في الوزن والأنغام. ويسجّل كتاب لحن سي متطلبات الأوزان المتعلقة مع سي باي، كما يمثّل الكتاب التطور التاريخي لسي باي وتنويعات تلك الأوزان.

الصورة 1-14 نسخة عن طبعة تشينغ للأغاني التي وضعها باي شي الطاوي

كان جيانغ كوي الذي عاش في فترة سلالة سونغ الجنوبية ماهراً في تأليف الأغاني. ويُضاف إلى ذلك أنه تواجدت 17 سي (أغنية) في مجموعته مع ألحانها الموسيقية، وهي التي كانت مصادر هامة للباحثين في العصر الحديث الذين يدرسون الموسيقى القديمة. أما الرموز التي تظهر إلى جانب الرسم فهي اللحن الموسيقي. تبنّى جيانغ مجموعة متنوعة من الأحرف [الأشكال] لتدوين ألحان جونغ تشي.





太和正音譜卷下

丹丘先生涵虛子編

仙呂

端正好 楔兒 無名氏拂塵子楔兒

臨行也將二弟

既相別難留恋為昆仲撚指十年

叮嚀勸你若是居臺省掌兵權平天下立山川

方稱了一世男兒願

الصورة 1-15 نسخة عن تدوينات موسيقى تاي هي التي كتبها تشو تشيوان في عهد مملكة مينغ، وهي من ضمن مجموعة مكتبة هان فين

يتحدث هذا الكتاب عن نوعٍ آخر من المعرفة الموسيقية تشو، والتي تُسجِّل المستويات المطلوبة للأنغام الواردة في تشو باي في اثني عشر لحناً، مثل هوانغ تشونغ، شوانغ دياو، وتشونغ لو جونغ.

كل هذه الأمور في مقتطفات من كتاب جناح الفاوانيا؛ وهي مسرحية كانت مشهورة في فترة سلالة مينغ. وتساعد هذه الأشكال التي لا غنى عنها الممثلين والممثلات على تحسين أدائهم في العروض التي يقدمونها، كما تساعد القراء أيضاً عن طريق توسيع مخيلاتهم.

لكن الشعر والمسرحية ليسا النوعين الأدبيين الوحيدين اللذين يتأثران بفن الأداء. وفي الواقع، إن الروايات لا يمكن فصلها عن فن التمثيل. أما العناوين المتعاكسة المعاني التي تحملها الفصول والتعليقات التي تظهر في بداية كل فصل ونهايته، والقصائد التي يتم اقتباسها، فكلها تعود إلى فن الأداء. وترتبط كل هذه السمات بشدة مع فن سرد القصص الذي كان شائعاً في عهد مملكة سونغ. فقد اعتاد رواة القصص على الاقتباس من القصائد لجذب انتباه الحضور، ولتكوين تأثيراتٍ خاصة، كما أضافوا عناوين لكل جزءٍ من أجزاء القصة، وأبقوا الحضور في حالةٍ من التشويق بواسطة تلك التعليقات التي تشجع الجمهور على التفاعل مع أحداث القصة. وقد تطور هذا النوع من سرد القصص إلى الروايات في ما بعد.

إن هذه الأشكال والتقنيات هي التي تجعل الروايات الكلاسيكية- مثل قصة الممالك الثلاث، ورحلة إلى الغرب- جذابة للغاية. وتمتلك الروايات الخيالية تأثيراً قوياً إلى حدٍّ دَفَع ليانغ كيشاو- المفكّر والمعلم الشهير الذي عاش في أواخر فترة مملكة تشينغ- إلى التشديد على الدور الذي لعبه إصلاح الروايات الخيالية في عملية إصلاح البلاد ككل.

جمالية الأدب الصيني

قال منشيوس (نحو 372-289 ق. م) ذات مرة إن تذوّق الناس لجمالية العمل الأدبي والحِكَم الواردة فيه، وفهمَ الكاتب نفسه أمران يتمتعان بأهمية متساوية.

وتعود جاذبية الأدب الصيني في نتاجه، وكتّابه، وبيئته الموضوعية إلى الإبداعات الأدبية التي يستند عليها. لكن، إذا أردنا فهم فكرةٍ كهذه يجب علينا أولاً التحدث عن أفلاطون (نحو 427-347 ق. م)؛ وهو الفيلسوف الذي عاش في اليونان القديمة.

يقول أفلاطون إن النجّار يصنع السرير مستنداً إلى مفهوم السرير. أما بالنسبة إلى الفنّانين فإنهم يقومون بتقليد فكرة السرير الحقيقي في إبداعاتهم الفنية، وهكذا يبتعدون عن حقيقة السرير.

لا يمكننا إنكار أن أفلاطون قد قال الحقيقة، لكن لا يمكننا أيضاً الحكم على الأعمال الفنّية بمجرد قولنا هذا صحيح أو خطأ. وقد أثارت الرباعية التي تعتمد أسلوب الأحرف السبعة - والتي عنوانها الرسو ليلاً بالقرب من جسر شجر القيقب، والتي كتبها تشانغ جي؛ الشاعر الشهير الذي عاش في فترة سلالة تانغ - جدلاً واسعاً حول ما إذا كان بوسع القصيدة أن تصف الحقيقة:

يغيب القمر، وتنعق الغربان. الجليد يملأ الأرجاء بالقرب
من أشجار القيقب، وأنوار القوارب. أستلقي عاجزاً عن النوم.
يلوح في البعيد معبد سو تشو هان شان
وأصوات أجراسه الصادحة تصل إلى قاربي في منتصف الليل

لا يعتقد بعض الناس أنه بإمكان الشاعر قول الحقيقة المجردة في قصيدته، أي أنه عند غياب القمر تعود الغربان إلى أعشاشها، وهكذا يستحيل عليها النعيق. يُضاف إلى ذلك أن جرس معبد هان شان لا يدق في الليل. لكن كل ذلك لا يُجرِّد القصيدة من جمالها على الإطلاق.

كان هو ينغ لين (1551-1602) شاعراً وناقداً شهيراً عاش في فترة حكم سلالة مينغ. وقد قال ينغ لين إنه من غير الضروري الجدال كثيراً حول الحقيقة أو الواقع في



القصائد الكلاسيكية، وإن أهم أمرٍ بالنسبة إلى الشاعر هو التعبير عن مشاعره وسط أجواء القصيدة. (الصورة 1-16)

يشدّد الشعراء الصينيون على التعبير عن مشاعرهم، وذلك بدلاً من إظهار حقائق الأشياء كما هي. وينطبق هذا المبدأ أيضاً على القراء. أما إذا اهتموا أكثر بالحقيقة في الأدب، فلن يستطيعوا استيعاب الجمال، أو الأمور التي يحاول الكتّاب التعبير عنها.

لكنّ الأدب الصيني يشدّد على الحقيقة بالفعل. وتشير كلمة الحقيقة هنا إلى مزاج الكتّاب وعواطفهم بدلاً من الأشياء التي يصفونها. ويتبنى ذلك الأدب تقليد فهمَ الكتّاب من خلال أعمالهم. وبكلماتٍ أخرى، يعني ذلك أن تطلعات الكتّاب ومصالحهم تنعكس في إبداعاتهم. (الصورة 1-17) ويمكننا ملاحظة هذا الأمر في كتاب الأغاني.

امتلكت هذه الفكرة تأثيراً كبيراً على تقييم الأدب الصيني، وعلى فهم الكتّاب من خلال أعمالهم أيضاً. وهكذا، أصبح هذا المبدأ معياراً أساسياً لتقييم الكتّاب وأعمالهم.

الصورة 1-16 نسخة عن شي سو، طبعة مينغ

كان هو ينغ لين ناقداً أدبياً شهيراً في فترة حكم سلالة مينغ. وقد اهتم كثيراً بالشعر والرواية الخيالية. وكانت شي سو عمله الشعري المفضّل، ويتحدث هذا العمل عن مصادر الشعر والتاريخ وأسلوب الكتابة، كما يتحدث عن فن الشعر، ويُعتبر واحداً من أهم الأعمال الشعرية في الأزمنة القديمة.

الصورة 1-17 صورة تمثّل دو فو، وهي من ضمن طبعة مينغ، من لوحات من التاريخ القديم

يُعتبر مبدأ الأسلوب هو الرجل مبدأً راسخاً في الصين، وهذا هو السبب الذي جعل الباحثين يتحدثون عنه بكل إعجاب. ولا يشير لقب الشاعر الأعظم إلى الكتابة المنمقة فقط، بل يُعتبر مديحاً للشاعر ويُشدّد على مزاجه وطموحه.



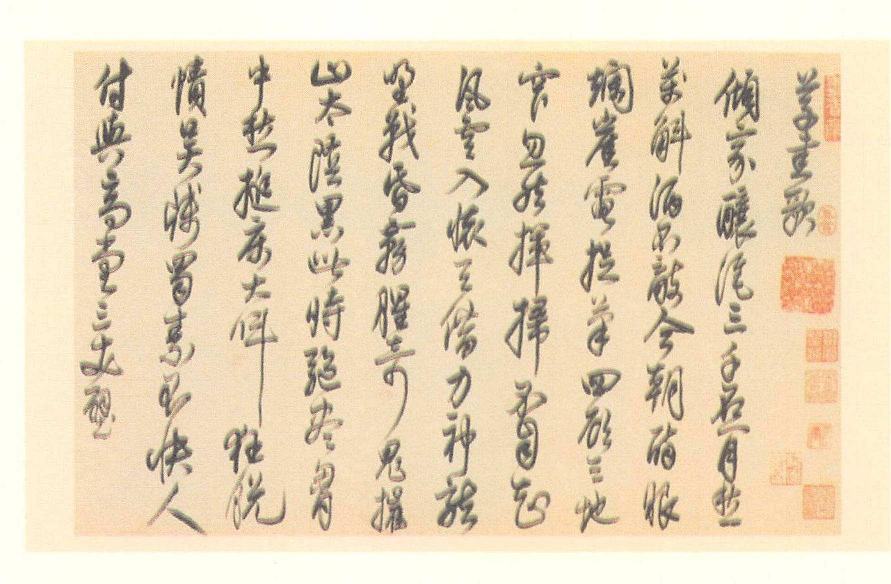
الصورة 1-18 رسوم قصائد دو فو بريشة سونغ ماو جين خلال فترة حكم سلالة مينغ، وهي رسوم على الورق من ضمن مجموعة متحف شنغهاي

إن رسوم قصائد دو فو التي رسمها سونغ ماو جين تجعل من قصائد دو فو كوي شو موضوعها الأساسي. وتصوّر هذه اللوحات المضائق الثلاثة، والمناظر التي تحيط بشينغ دو. وتُظهر هذه الصورة قصيدة دو فو الأولى، وهي بعنوان حول المواقع التاريخية. تقوم الأبراج والجبال الموجودة حول المضائق الثلاثة بتذكير دو فو بالمصير المأساوي الذي لقيه يو شين الذي كان كاتباً في عهد السلالات الجنوبية، لكنّ يو أنجز بدوره إنجازات أدبية عظيمة.

ويعني ذلك أن تقييمات النقاد تستند على فرضية أن العمل الأدبي انعكاس للكاتب. وهكذا، اعتاد الناس على معرفة طبيعة شخصية الكاتب من خلال كتاباته ودوافعه التي تقف وراء إبداعاته والعكس صحيح. (الصورة 1-18) ويعني ذلك أنه يصعب علينا الحصول على فهمٍ شاملٍ للعمل الأدبي إلا إذا عرفنا ما يكفي من المعلومات عن الكاتب.

كان لي شانغ ين (نحو 813-858) شاعراً شهيراً عاش في أواخر حكم سلالة تانغ، وكتب قصائد عديدة كانت كلها في غاية الجمال، ولكنها صعبة الفهم، كما افتقدت بعض تلك القصائد إلى العناوين. ونتيجة لكل ذلك، لم يتمكن الناس من الحصول على فكرة واضحة عما يحاول الشاعر التعبير عنه. وقد قال بعض النقاد إن القصائد كانت تدور حول الحب، بينما اعتبر آخرون أن الشاعر كان يكتب عن السياسة. لكنّ غياب المعلومات عن خلفية الشاعر جعل تفسير النقاد لقصائده اعتماداً على مخيلاتهم أمراً طبيعياً.





الصورة 1-19 قصائد جيان نان التي ألفها لي يو (جزء)، رسم على الورق بريشة ماو كون في عهد سلالة مينغ، مجموعة متحف شنغهاي

كان لو يو شاعراً صينياً وطنياً شهيراً وغزير الإنتاج، حيث ترك وراءه 9,000 قصيدة. وتُظهر هذه الصورة قصيدته حول فن الخط المنحني التي كتبها ماو كون (1512-1601). وتتحدث هذه القصيدة عن الشاعر الثمل وهو يكتب بالخط المنحني، وتُظهر حماسته لاسترجاع الأراضي المحتلة من بلاده.

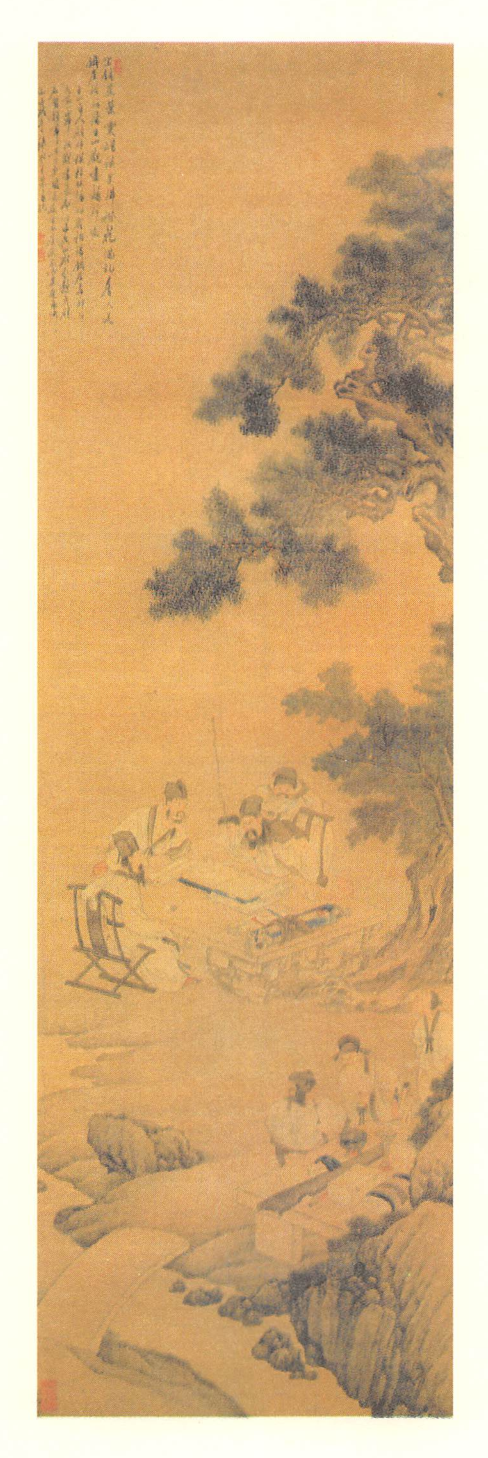
تُعرف الصين بأنها بلد الانضباط، وتشدّد الكونفوشيوسية على السمات التقليدية للصلاح والإيمان والمجاملة والحكمة. وقد امتلك هذا المعيار الأخلاقي تأثيراً كبيراً على تقييم الأدب أيضاً، ويشهد تاريخ الأدب الصيني على أن كل أولئك الكتّاب كانوا يتمتعون بسمعة طيبة وبأخلاقٍ عالية.

كان دو فو شاعراً شهيراً في أيام سلالة تانغ، حتى إنه حمل لقَب سيّد الشعراء، وكانت سمعته الطيبة مرتبطة كثيراً بقلقه الدائم على بلاده ومواطنيه.

كان لو يو (1125-1210) شاعراً عظيماً في أواخر عهد مملكة سونغ الجنوبية، وهو الذي تمتّع بسمعة طيبة حتى هذه الأيام. وقد عبّر ليو في مجموعة قصائده الطويلة عن قلقه العميق إزاء مصير البلاد. واستمر هذا الشاعر بالتفكير في استعادة الأراضي المحتلة من بلاده حتى عندما وصل إلى أوخر أيام حياته. (الصورة 1-19)

بالرغم من ذلك، يمكننا القول إن الشخص الذي وصل إلى مرتبة الخالدين لا يلقى المديح بغضّ النظر عن مدى جودة أعماله. فعلى سبيل المثال، يانغ وي تشن (1296-1370) الذي كان شاعراً شهيراً في أيام مملكة يوان، والذي كتب قصائد رائعة كان يتمتع بنفوذٍ كبيرٍ في أيامه، إلا أنه تعرّض للنقد أكثر مما تعرّض للثناء، وذلك بسبب سلوكه غير الأخلاقي. (الصورة 1-20)

يتبيّن لنا من المعيارين اللذين ذكرناهما أعلاه لتقييم العمل الأدبي أنهما يشدّدان على الكُتّاب بدلاً من التركيز على أعمالهم. لكن، بما أن الناس يقرأون الشعر من أجل التعرّف على الشعراء، أو للتعرّف أكثر على المجتمع، فإنهم يعتبرون أنه من غير المناسب معرفة كيفية إبداع الشعر. ويفسّر لنا ذلك السبب الذي يجعل الأعمال المتخصّصة بتقنيات إبداع الشعر



الصورة 1-20 تأمّل رسوم يو شان، بريشة وانغ جاي الذي عاش في عهد سلالة تشينغ. لوحة بالألوان على لفافة حريرية، من مجموعة متحف القصر

عاش وانغ وي تشين في أواخر عهد مملكة يوان. وقد شارك الرسام عدة مرات في اجتماعات المثقفين؛ مثل تلك التي كانت تُعقد في صالون يوشان كوتاج الذي كان برئاسة كون شان غو ينغ. وقد نال شهرةً كبيرة بسبب مشاركاته المتكررة في تلك الاجتماعات. وتُظهر هذه الصورة مضيف يو شان والضيوف أثناء تأملهم للرسوم تحت شجرة على ضفة نهر.

تتخفى وراء قناع أحد المشاهير. وحتى لو كان الأمر كذلك، إلا أن كتب النقد كانت تلقى التجاهل في معظم الأحيان، ويعود سبب ذلك إلى أنّ أحداً لا يريد أن يُعتبر مبتذلاً. (الصورة 1-21)

لكن بالرغم من أنّ مبدأ فهم الكاتب من خلال عمله الأدبي، واعتبار أن الأدب مرآة تعكس مزايا الكتّاب يبقيان المعيارين الأكثر أهمية في التقييم الأدبي، إلا أنه يبقى مقدارٌ كبير من النقاشات حول جمالية الأدب، وأحدها يدور حول الأساليب الأدبية.

وقد استأثرت الأساليب التي أُطلقت عليها أوصاف مهيبة، وبسيطة، وراقية بأكبر قدر من النقاش. أما الأسلوب البسيط فكان أحد الأساليب التي اتّبعها الكتاب الصينيون

名家詩法卷三
吳郡黃省曾編次　劉佑校正
范德機木天禁語
詩之說尚矣古今論著類多言病而不處方是以沈
痼少有瘳且雅道無復彰時茲集開元大曆以來諸
公平昔在翰苑所論祕旨述為一編以俟後之君子
賢士大夫之後好學俊彥子弟有志者之告所謂天
地間之實物當為天地間惜之竊慮久而泯沒特筆
之於楮以與天地間樂育者共之授非其人適足擲
議故又當慎之得是說者猶寐而寤猶醉而醒外則

الشكل 1-21 محظورات ميوتيان، طبعة مينغ من قواعد الشعر الشهيرة

يدور كتاب محرمات ميوتيان حول قواعد الشعر في فترة سلالة يوان، وهو من تأليف فان دي جي، لكن تبيّن في وقتٍ لاحق أن شخصاً آخر هو الذي كتبه. أما الاسم الثاني الذي حمله فان دي جي فهو بينغ (1272-1330) وهو الذي عمل ذات مرة بصفته محرراً في آكاديمية هان لين، ويُعتبر واحد من أعظم أربعة شعراء في سلالة يوان بالإضافة إلى يو جي ويانغ زاي وجي شي سي.

種豆南山下艸盛豆苗稀晨
興理荒穢帶月荷鋤歸道狹
草木長夕露沾我衣衣沾不
足惜但使願無違
婁水王時敏書

الشكل 1-22 نص مكتوب من قصيدة تاو يوان مينغ ، بريشة وانغ شي مين، سلالة تشينغ، رسم على ورق، مجموعة متحف القصر.

هذه هي صورة عن القصيدة الثالثة من مجموعة العودة إلى الطبيعة التي ألّفها تاو يوان مينغ. لا تشتمل القصيدة على حقائق أو طموحاتٍ عظيمة، لكنها تعبّر بشكلٍ صريحٍ وعفوي عن بهجة العيش في بيئة الطبيعة والريف.

«الثياب مليئة بالعرق، لكن من دون انزعاج»



القدماء في إبداعاتهم الأدبية. ويُضاف إلى ذلك أن الأسلوب البسيط كان أسلوباً طبيعياً من دون أية زخرفة مصطنعة.

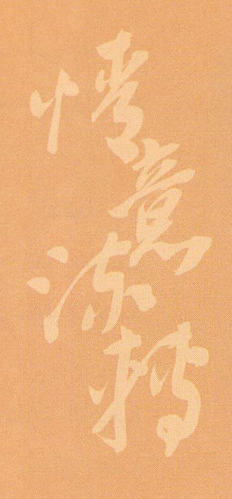
أدّت القصائد البسيطة التي أبدعها تاو إلى إحداث تأثيرٍ مثيرٍ للإعجاب، كما كشفت مزاجه الهادئ والمرتاح في حياته الريفية الهادئة. (الصورتان 1-22، 1-23) ولم يصادف تاو أي ثناءٍ يُذكر في حياته، ولكنه حاز على مركزٍ متزايد الأهمية مع مرور الزمن. وبطبيعة الحال، يتعلق الأمر بشخصيته النبيلة.

تناقلت الأجيال قصصاً عن نبل تاو يو مينغ، وهو الذي اختار العودة إلى الريف كي يتمتع بحياةٍ منعزلة، وذلك بعد تخليه عن منصبه الرسمي. وكان شِعره انعكاساً تاماً لنُبله؛ الأمر الذي جعله أسطورة خالدة في تاريخ الأدب الصيني.

في الختام، يمكننا القول إن جمالية الأدب الصيني تتعلق أساساً بعلاقات الكتّاب، وأعمالهم، والبيئة الموضوعية. ولكن لا يمكننا فصل هذه العناصر عن بعضها بعضاً في عملية الإبداع الأدبي، أو الاستمتاع بالأعمال الأدبية.

الشكل 1-23 رسم يمثّل تاو يوان مينغ، طبعة مينغ من رسومات القدماء في التاريخ، نص من قصيدة تاو يوان مينغ، بريشة تشي تشي، سلالة تشينغ، رسم على ورق، مجموعة متحف يانغ تشو.

قصة تاو يوان مينغ معروفة لدى الجميع في الصين، وهي تتحدث على عدم استسلامه أمام إغراء من خمسة دو من الأرز، وكذلك استقالته من وظيفته، وعودته إلى حياة الطبيعة في الريف. أما القيمة الجمالية لهذا الوصف الدقيق لجمال الطبيعة فمستمدة من أسلوب أشعاره. لم يكن تاو يوان مينغ موظفاً حكومياً رفيع المستوى، لكن سلوكه المثالي وشخصيته النبيلة أكسباه إعجاب الأدباء والمثقفين. منحه الأديب يوان يان تشي الذي عاش في عهد الممالك الجنوبية لقب جينغ جي، وذلك لإظهار إعجابه بالتزام تاو بالمثاليات والمبادئ الأخلاقية. تُظهر الصورة القصيدة الخامسة من مجموعته الشراب.



الأدب الصيني

الفصل الثاني

القيَم

الوطنية: الولاء للبلاد يسطع عبر التاريخ

أقف ساخطاً وغاضباً
مستنداً على سياج.
توقّف المطر الغزير عن الهطول،
فرفعت بصري نحو السماء.
تأوهتُ طويلاً
لكنّ غضبي لم يهدأ بعد،
والمجد الذي أحرزناه في ثلاثين سنة تلاشى
كما يتلاشى القمر عندما يحجب وجهه الغمام
ويختفي ألف ميلٍ من الأرض.
أهكذا تشيب رؤوس الشباب،
ونشعر بالأسى، آه.

خسرنا عاصمتنا،
يا للعار الثقيل!
كيف بإمكاننا، نحن الجنرالات، إطفاء لهيب الثأر!
سنقود عرباتنا الحربية،
سنخترق صفوف عدونا.
وبكل جرأة سوف نقطع كل رأس،
وضاحكين سوف نشرب الدماء التي ستنزف منهم.
عندما نسترجع الأرض التي خسرناها،
بالنصر، سوف نجعل جيشنا عظيماً.

من قصيدة نضالي، إلى لحن النهر الأحمر، يوي فاي

اشتُهرت الأمة الصينية بوطنيّتها، ويعتبر المواطنون الصينيون المصلحة القومية أكثر أهمية من أُسَرِهم ومن أنفسهم. وهذا هو السبب الذي يدفعهم إلى عدم التردد في التضحية بأنفسهم من أجل بلادهم عند تعرّضها لأزمة.



كانت الامتيازات في الصين القديمة تعني كل شيء للرجل، أي إذا خسر الرجل امتيازاته فإنه يخسر كل حقوقه أو سلطاته. أما المجرمون فيجري حرمانهم من أسماء عائلاتهم، وكل حقوقهم أو سلطاتهم التي كانت تمتلكها قبائلهم في السابق. ويظهر كل ذلك في القصة التالية.

عاش لياو لي الذي كان موظفاً حكومياً في مملكة شو خلال فترة الممالك الثلاث، وكان مغروراً إلى درجةٍ كبيرة، كما اعتاد على إهانة الإمبراطور ليو بايي الذي كان متوفياً، ورئيس الوزراء تشو جي ليانغ (الصورة 2-1). وقد نال الموظف عقابه بأن أُنزلت رتبته إلى مستوى مواطن عادي، كما نُفي إلى مزرعةٍ في منطقةٍ بعيدة. لكن لدى سماعه بموت تشو جي ليانغ شعر بحزنٍ شديد وقال: «أخشى أن أبقى منفياً بقية حياتي».

يصعب علينا، بصفتنا مواطنين متمدنين، أن نفهم مشاعره، أو أن ندرك مدى خطورة تلك العقوبة عليه. لكن، ما إن أُنزلت رتبته حتى خسر امتيازه بصفته موظفاً رسمياً. وفي اللحظة التي نُفي فيها إلى المنطقة الحدودية خسر امتيازه كمواطنٍ في مملكة شو. يُضاف إلى ذلك أن عقوبته كانت مرتبطة مباشرة بالإهانة



الصورة 2-1 صورة تمثّل تشو جي وهو يقرأ، بريشة تشو يو دون، مملكة مينغ، صورة ملونة على لفافة من الحرير، من مجموعة متحف القصر

أبلغ أول لورد في شو هان، ليو باي، تشو جي ليانغ قبل موته بأن ابنه ليو شان يتمتع بموهبة، وأن بإمكانه مساعدته. ولكن، إذا لم يتمتع بالكفاءة فبإمكان تشو جي الحلول مكانه. وبالرغم من أن ليو شان كان الأقدم، إلا أن تشوجي ليانغ ساعده بكل طيبة خاطر حتى وفاته؛ وهو الأمر الذي تحوّل إلى قصةٍ نموذجية للدلالة على الولاء والوطنية في التاريخ الصيني.

التي وجّهها إلى تشو جي ليانغ. وهكذا، أدى موت تشو جي إلى استحالة استعادته لامتيازاته، ما يُسهِّل علينا فهم مدى أهمية الامتيازات بالنسبة إلى الصينيين القدماء.

لقي عددٌ كبير من الأبطال الوطنيين مديحاً كبيراً عبر التاريخ الصيني، وذلك لأنهم لم يدافعوا عن شرفهم فقط، بل دافعوا كذلك عن هوية البلاد بأكملها. ويُعتبر هوه تشو بينغ (140- 117 ق. م) أكبر مثالٍ على أولئك الأبطال.

كرّس هوه حياته بأكملها لقتال الغزاة والدفاع عن البلاد عندما كان جنرالاً شهيراً. ولقيت أعماله البطولية مديحاً كبيراً من عددٍ كبيرٍ من الشعراء مثل وانغ وي (؟- 761)، ولي باي (701-762). كما يوجد أيضاً بطلٌ آخر يدعى يوي فاي (1103-1142) والذي اشتُهر بوطنيته.

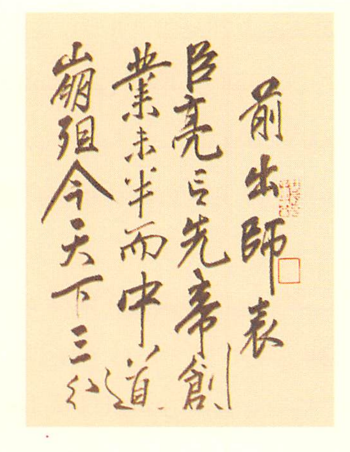
كان يوي قائداً عسكرياً شهيراً في مملكة سونغ الجنوبية، وقد أمضى حياته كلها في محاربة الغزاة وحماية بلاده. ويُضاف إلى ذلك أن عدداً من الأعمال الأدبية بما فيها الروايات والقصائد تضمنت وصفاً لنزاهته وطموحاته. (الصورة 2-2)

الصورة 2-2 قصص عن يوي فاي، نقشٌ على الخشب، من المطبوعات الخشبية الصينية الفولكلورية

يكاد يوي فاي يكون مرادفاً للبطل القومي في الأدب والتاريخ الصينيين. وقد كرّس حياته بأكملها للقتال ضد مملكة جين، والسعي إلى استعادة الأراضي المحتلة. لكن بالرغم من فشله بقيت روحه خالدة في التقاليد الثقافية الصينية. وتمثّل هذه المطبوعات الشعبية على الخشب القصص المتتالية عن يوي فاي.







الصورة 2-3 نُصُب تذكاري للعرش قبل الحملة (جزء)، تقليد لفن خط يوي فايي، مملكة مينغ

كتب سونغ جاو تسونغ بيده قصيدة نصب تذكاري للعرش قبل الحملة التي ألّفها تشو جي ليانغ وأعطاها إلى يوي فاي؛ وذلك اعترافاً منه بإخلاصه ووطنيته. وقد قيل أيضاً إن يوي فاي كان ماهراً بدوره في فن الخط. أما في معابد وو هو الموجودة في تشنغ دو ونان يانغ فتتواجد نقوشٌ حجرية لتخليد قصيدة نصب تذكاري للعرش قبل الحملة، وكانت بعنوان يوي فاي. لكن، بغضّ النظر عما إذا كانت نسخة أصلية أم لا، فهي لا تزال تُظهر احترام الناس وترحيبهم بيوي فاي.

وتُعتبر قصيدة نضالي التي اقتبسناها منها من بين تلك القصائد التي تُعتبر عملاً أدبياً خالداً. وهي تعبّر عن إصرار يوي على القضاء على الغزاة واستعادة الأراضي المسلوبة من البلاد. (الصورة 2-3)

شهدت مملكة سونغ الجنوبية ظهور بطلٍ قومي آخر، وكان اسمه ون تيان شيانغ (1236-1283) (الصورة 2-4). أُلقِيَ القبض على ون بعد إخضاع البلاد؛ وهو الأمر الذي حصل مع رئيس الوزراء أيضاً، ثم أُرسِلا إلى العاصمة للمحاكمة. نظم ون عندما كان في طريقه إلى السجن قصيدة عويل سجين، المرور من أمام لينغ دينغ يانغ، وذلك بهدف التعبير عن حزنه على بلاده المقهورة، وتصميمه على الموت من أجلها.

الصورة 2-4 رسم يمثّل ون تيان شيانغ من ضمن صورة العوالم الثلاثة، بريشة وانغ تشي الذي عاش في عصر مملكة مينغ

كان ون تيان شيانغ بطلاً قومياً نموذجياً، وهو الذي تمسّك بمبادئه حتى بعد إرسال مملكة يوان المفاوضين. كتب ون قبل موته قصيدة على ثيابه، وقال فيها: «قال كونفوشيوس ومنشيوس إننا يجب أن نموت فداءً للمبادئ المحقة، وإننا لا نتوصل إلى الحقيقة إلا عن طريق القلب والروح. ماذا يمكننا أن نتعلم من قراءة كتب الحكماء؟ لا ينفع الندم».

جهدتُ في قراءة الكتب لأصبح موظفاً،
أمضيتُ أربع سنوات كئيبة في خوض معارك قاسية.
انهزمتْ أرضنا وحجبتها الرياح،
إنني أجول هنا وهناك مثل الطحالب التي تتقاذفها الأمطار.
انسحبتُ مرتعباً من أمام التتار!
شعرت بالأسى في الأسر محتجزاً في غرفة منعزلة.
مَن ذا الذي يستطيع تجنّب موته؟
ابقَ يا قلبي صادقاً ومشعاً في الكتب الخالدة.

أمضى وي ثلاث سنواتٍ في السجن ولكنه رفض الاستسلام، وقد أُعدِم وقطع رأسه نتيجة موقفه. وهناك مثلٌ صيني شهير مفاده أنه لا يمكن تقييم البطل بنجاحه أو فشله فقط. وبطبيعة الحال، لا يجب علينا تقييم الوطنية بذلك المعيار النفعي، وذلك لأن الشخص الذي لديه قلب مليء بالولاء لوطنه يجب أن يُذكر إلى الأبد بالرغم من فشله.

كان لو شاعراً وطنياً شهيراً عاش في فترة مملكة سونغ الجنوبية، كما تلقى ثناءً كبيراً حتى إلى هذه الأيام، وذلك بالرغم من طموحاته التي لم تتحقق. ويمكننا أن نلاحظ ذلك من خلال قصيدته التي كتبها بعنوان شهادتي إلى أبنائي:

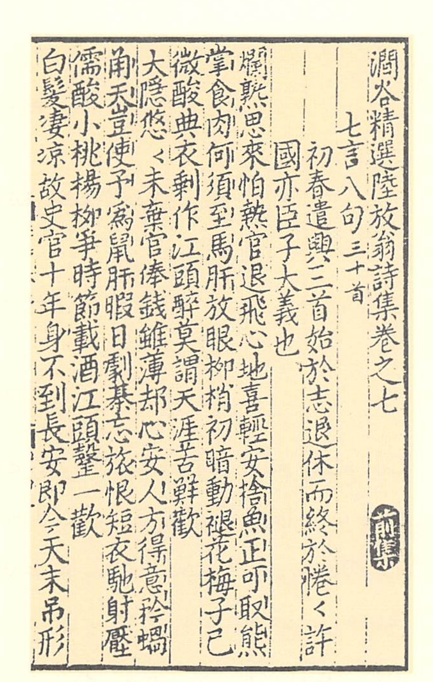
أعرف أنه بعد الموت سوف يتلاشى كل شيء،
لكنني حزين لأنني سأمضي قبل توحّد بلادي من جديد.
وعندما تستعيد الجيوش الملكية السهل الأوسط،
لا تنسوا أن تبلغوا أباكم الشعائر مقدسة.

طلب لو من أبنائه قبل موته- وبواسطة قصيدته- أن يبلغوه ما إن يُستعاد السهل الأوسط المسلوب حتى بعد أن يموت. ويمكننا القراءة بين أسطر هذه الأبيات لنرى مدى قلقه على بلاده، وعندها لن نعجب إذا كان لقبه الشاعر الوطني. (الصورة 2-5)

تُعتبر هذه الأعمال المفعمة بالحماسة والإلهام، والتي كتبها شعراء يتميزون بالوطنية كتباً منهجية ومثالية للوطنية. ويرتبط الأدب الصيني بشدة مع الكتّاب ومشاعرهم، وهكذا فإن تقييم الأعمال الأدبية يجب ألا ينحصر بالأشكال أو التقنيات.

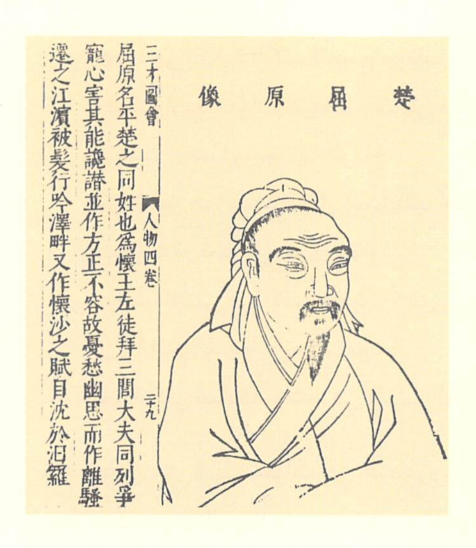
لكن من المهم أيضاً أن يقوم الناس بتقييم الأعمال والكتّاب، والعالم الحقيقي




澗谷精選陸放翁詩集卷之七
七言八句 三十首
初春遣興三首始於志退休而終於惓惓許
國亦臣子大義也
爛熟思來怕熱官退飛心地喜輕安捨魚正可取熊
掌食肉何須至馬肝放眼柳梢初暗動襯花梅子已
微酸典衣剩作江頭醉莫謂天涯苦鮮歡
大隱悠悠未棄官俸錢雖薄却心安人方得意矜蝸
角天豈使予爲鼠肝暇日剩棊忘旅恨短衣馳射壓
儒酸小桃楊柳爭時節載酒江頭罄一歡
白髮凄凉故史官十年身不到長安即今天末吊形

الصورة 2-5 نسخة عن مجموعة قصائد لو يو التي جمعها جيانغ غو، طبعة مينغ

لم يشتهر لو يو في عالم الوظائف الحكومية، ولكنه تمسّك بعدم نسيان المذلة القومية التي تعرّضت لها بلاده، واستعادة أراضيها المحتلة. وكان عادة يُعبّر عن مشاعره هذه عن طريق إبداعاته الأدبية.



الصورة 2-6 لوحة تمثّل تشو يوان، من رسوم العوالم الثلاثة، بريشة وانغ تشي الذي عاش في مملكة مينغ

التقى تشو يوان خلال فترة نفيه أحد الصيادين عند ضفة النهر. أشفق عليه الصياد وسأله عن سبب سيره عكس التيار وجلبه لنفسه كل ذلك العناء. فأجاب تشو يوان: «إنني نظيف فكيف لي أن أوسّخ نفسي؟ أفضّل القفز في النهر لتأكلني الأسماك بدلاً من السير مع الأشرار».

الذي تستند عليه إبداعاتهم والمغروس في نتاجهم الأدبي. ويساعدنا هذا الأمر على فهم السبب الذي جعل تشو يوان يحتل هذا المركز الرفيع في تاريخ الأدب والثقافة الصينيين.

كان تشو يوان (340- 278 ق. م) موظفاً رسمياً في مملكة تشو خلال فترة الممالك المتحاربة. وقد تعرّض تشو للنفي من ينغ العاصمة مرتين في حياته. ولكن بعد قيام مملكة تشن باحتلال ينغ شعر تشو بالأسى والسخط إلى درجة أنه أغرق نفسه في نهر ميلو، وذلك في اليوم الخامس من الشهر الخامس من الروزنامة القمرية(الصورة 2-6). بقي تشو مخلصاً لوطنه، وحتى عندما كان في المنفى. وقد ألّف خلال تلك الفترة المؤلمة قصائده الغنائية الطويلة والخالدة بما فيها الندم، وعبور النهر، والأسف على ينغ. وعبّر



الصورة 2-7 لوحة تمثّل شيانغ والسيدة شيانغ (جزء)، والتي رسمها ون تشنغ مينغ، فترة مملكة مينغ، ألوان شاحبة على لوحة ورقية، مجموعة متحف القصر

شيانغ والسيدة شيانغ قصيدتان من ضمن تسع أغانٍ كتبها تشو يوان. وتتحدث القصيدتان عن قصة الحب التي جمعت هذين الشخصين اللذين أحبا بعضهما بعضاً، ولكنهما عجزا عن اللقاء، واعتادا على التخيّل والتخمين قبل أن يفترقا أخيراً. ويقول بعض النقاد إن تشو يوان قارن نفسه مع شيانغ للتعبير عن ولائه لملك تشو، ومن أجل التأسف على إهماله لمواهبه.

تشو بحيوية في كل هذه القصائد عن قلقه العميق إزاء الإمبراطور، وعن قلقٍ قوي على مصير بلاده (الصورة 2-7). وعلى سبيل المثال، أظهرت قصيدة الندم سعيَ الشاعر المستمر للحفاظ على ولائه لوطنه. أما التشبيهات والاستعارات التي استخدمها في القصيدة فقد تركت تأثيراً كبيراً على الإبداعات الأدبية التي ظهرت لاحقاً (الصورة 2-8). كان تشو يُعتبر شاعراً وطنياً في تاريخ الأدب الصيني. وقد قال سيما تشيان- الذي كان مؤرخاً شهيراً خلال فترة حكم مملكة الهان الغربية- ذات مرة إن تشو كان ممتازاً في شخصيته، وسلوكه، وأدبه.





الصورة 2-8 صورة مولان بريشة تشينغ سي شياو، مملكة سونغ، من مجموعة غاليري أوساكا للفنون، اليابان

ينعكس تقليد الأزهار والجمال ليس في الأدب فقط، بل ينطبق أيضاً على فن الرسم. أما الأوركيدا في هذه الصورة فلا تمتلك جذوراً، أي كما يحدث عند التعرّض للغزو الأجنبي ويخسر المرء بلاده وبيته. استمرت هذه الزهرة في النمو بصلابة وباستقامة؛ وهو الأمر الذي يُظهر طموح الفنان ونبله عند تحديه الصقيع.

تحظى الوطنية بتقديرٍ كبيرٍ في هذه الأيام. ويجدر بنا أن نذكر أن تشو يوان قد أُدرج ضمن قائمة مشاهير الثقافة العالميين، وذلك في مؤتمر السلم العالمي الذي عُقد في العام 1953، وذلك لتخليد ذكرى هذا الشاعر الوطني.

الاستقامة: الولاء لصديق

أحتاج إلى سمكة ومخلب دب. أما إذا لم يكن باستطاعتي الحصول إلا على واحدٍ منهما فسوف أختار مخلب الدب بدلاً من السمكة. أريد أن أكون حياً وعادلاً. لكن، إذا كان عليّ الاختيار بين واحدٍ منهما، فسوف أختار العدالة بدلاً من الحياة.

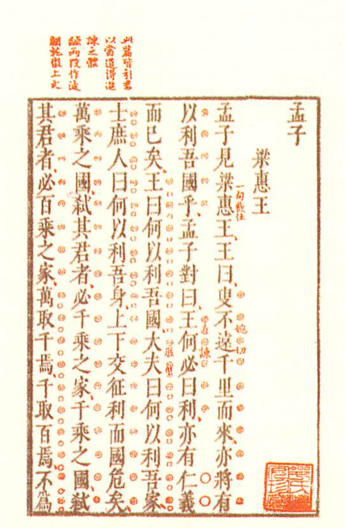
منشيوس

يشكّل الإحسان، والاستقامة، واللياقة، والحكمة القيَم الجوهرية للكونفوشيوسية، والتي أطلق عليها منشيوس تسمية الفضائل الأربع (الصورة 2-9). كانت الاستقامة هي القيمة التي شدّد عليها منشيوس أكثر من غيرها، وهو الذي عرّفها على أنها القدرة على تمييز ما هو صحيح عمّا هو خطأ.

قال منشيوس إنه ينبغي على الناس عند مرورهم بمحنةٍ ما التضحية بحياتهم من أجل الاستقامة، وذلك لأنها واحدة من مزايا البشر الأساسية. أما الشخص الذي يتخلى عن مزايا الاستقامة فليس إنساناً على الإطلاق. لكنّ كلمة الاستقامة ترافقت مع مرور الوقت مع الولاء للصديق أو الإمبراطور.

وتُعتبر فضيلة الاستقامة التي تشتمل على الولاء للصديق أو الإمبراطور، موضوعاً متكرراً في الأدب الصيني. أما إذا أردنا أن نكون دقيقين، فيمكننا القول إن الأدب الصيني يشدّد أكثر على الولاء للصّديق. ويمكننا ملاحظة هذا الأمر من قصة الانتقام الواردة في كتاب مؤامرات الممالك المتحاربة.

تعرّضت مملكة جين للتدمير على يد تشاو، وتشي بو. لكنّ إمبراطور جين قُتل على يد تشاو


孟子
梁惠王
孟子見梁惠王王曰叟不遠千里而來亦將有
以利吾國乎孟子對曰王何必曰利亦有仁義
而已矣王曰何以利吾國大夫曰何以利吾家
士庶人曰何以利吾身上下交征利而國危矣
萬乘之國弒其君者必千乘之家千乘之國弒
其君者必百乘之家萬取千焉千取百焉不為

الصورة 2-9 نسخة من كتاب منشيوس طبعها مين بالحبر في عهد مملكة مينغ

بالرغم من أن منشيوس لا يناقش مواضيع الأدب، إلا أن القيَم (مثل الإحسان والاستقامة) وطرائق القراءة (التعليقات على الرّجل والعالم) التي شدّد عليها قد أثّرت بشدة على تقاليد الأدب الصيني.






الصورة 2-10 رسم سيما شيان من طبعة مينغ لكتاب صور القدماء في التاريخ

كان سيما شيان أديباً شهيراً في مملكة هان. وقد قبل وصية والده سيما تان، وألّف أول كتاب للتاريخ الصيني الذي كان بعنوان سجلات تاريخية. توسط سيما شيان ذات مرة لصالح لي لينغ الذي استسلم لشيونغ نو، وهكذا واجه اتهاماتٍ، وحُكِم عليه بالنفي.

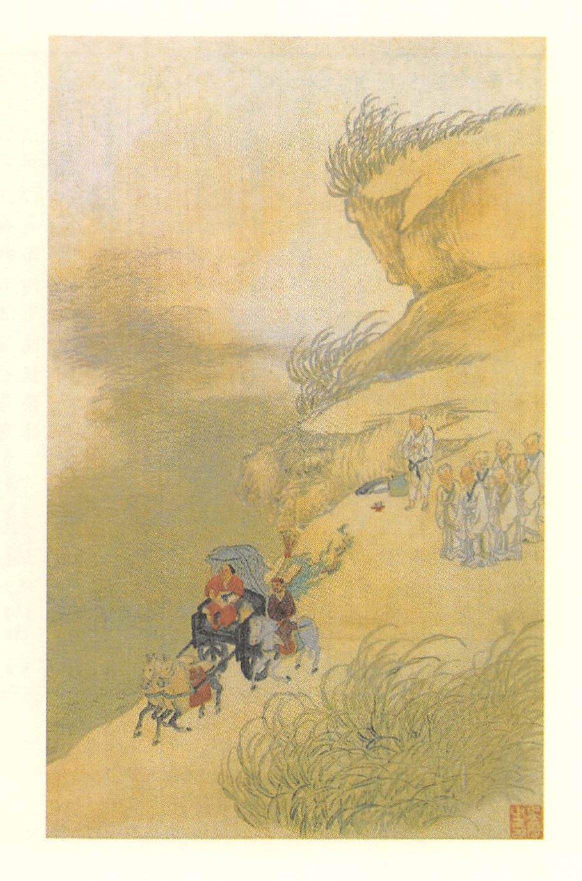


الصورة 2-11 نقش على الخشب يمثّل جينغ كي، من كتاب سجلات جميع الدول في سلالة تشو الشرقية الذي نشره ديان شي تشاي في وو زي خلال فترة غوانغ تشو، سلالة تشينغ

كان جينغ كي شهيداً اشتُهر في فترة الدول المتحاربة. وهو الذي جنّده أمير يان لكي يغتال ملك تشين. وبالرغم من فشله إلا أن روح التضحية من أجل أصدقائه لقيت مديحاً كبيراً خلال حكم كل السلالات.

شيانغ تسي الذي كان إمبراطور تشاو. أما يو رانغ الذي كان أحد أتباع تشي بو المخلصين، فقد قرّر أن يقتل تشاو شيانغ تسي للثأر من مقتل الإمبراطور الذي كان يدين له بالولاء. شوّه تشي بو نفسه من أجل تغيير ملامحه وصوته، ولكي لا يتعرّف عليه الناس. تلقى يو سؤالاً بعد فشله في مهمته الثأرية عن سبب تصميمه على الثأر للإمبراطور الميت، فأجاب: «عاملني تشي بو بودّ واحترام، وما قمتُ به أمرٌ طبيعي مقارنة مع وفائه». في الواقع، قدّمت كلماته أفضل تعريف للوفاء للصديق.

أما سيما شيان (نحو 145-86 ق. م) فقد أدخل قصة الثأر هذه في كتابه سجلات تاريخية (الصورة 2-10)، كما عبّر عن أفكاره بشأن أولئك القتلة مثل يو رانغ وجينغ كي (الصورتان 2-11، 2-12). أما رأيه فكان أنه سواء أنجح القَتَلة الساعون للثأر في مهمتهم أم لا، إلا أن ولاءهم لأصدقائهم يجعلهم معروفين. (الصورة 2-13)



الصورة 2-12 وداع في ضفة نهر يي، أطلس قصص الشخصيات، بريشة وو لي، سلالة تشينغ، صورة ملونة مرسومة على لفافة من الحرير، مجموعة متحف القصر

عندما انطلق جينغ كي في مهمته، أرسله جاو جيان لي إلى ضفة نهر يي. لكن بينما كان جياو جيان لي يعزف على آلة ذات خمسة أوتار (آلة شبيهة بالغيتار) بدأ جينغ كي بالغناء: «هبّت الريح بقوة، وكان نهر يي شديد البرودة. انطلق المحارب ولن يعود!». وترك مثل هذا الوداع الرسمي والمؤثر أثراً كبيراً على قراء لا حصر لهم.

يسهل على القارئ الجاد أن يكتشف أن الولاء للصديق الذي نناقشه هنا يختلف تماماً عن المعنى الأصلي لكلمة الاستقامة؛ وهو المعنى الذي دعا إليه منشيوس. اعتبر منشيوس أن الاستقامة هي القدرة على تمييز الصواب من الخطأ. لكنّ الولاء للصديق لا ينحصر مع ذلك بأي معيارٍ أخلاقي، ولا يكترث الرجل إذا كان صديقه رجلاً طيّباً أم لا. لكنّ حقيقة أنه كان يلقى معاملة طيبة من صديقه تُعتبر سبباً كافياً لرد الجميل إليه. يسهل علينا أن نبرهن هذه الحقيقة أكثر بواسطة قصة أسطورية من زمن مملكة تانغ.

تورد القصة أن شاباً اسم عائلته تشينغ وقع في غرام الآنسة رِن الثعلبة. وقد أرادت الثعلبة أن تبادله الحب، فجعلته بسحرها رجلاً ثرياً. لكنّ جمال رن جذب صديق تشينغ الذي كان اسمه وي ين، ولم يتأخر عن التعبير عن حبّه الجارف لها. رفضت رن

自荀林父將中行 後因以官為氏 去而事智伯 索隱案智伯襄子荀瑤 也襄子林父弟荀首之
後范中行智伯 事已具趙系家 智伯甚尊寵之及智伯伐趙襄
子與韓魏合謀滅智伯滅智伯之後而三分其地趙襄
子最怨智伯 索隱謂初以酒灌後又率韓魏水 灌晉陽城不没者三版故怨深也 漆其頭
以為飲器 索隱案大宛傳曰匈奴破月支王以其頭為 飲器裴氏注彼引韋昭云飲器椑榼也晉灼
曰飲器虎子也皆非椑榼所以盛酒耳非用飲者晉氏 以為褻器者以韓子呂氏春秋並云襄子漆智伯頭為
溲杯故也正義劉云酒器也每賓會 設之示恨深也按諸先儒說恐非 豫讓遁逃山中曰
嗟乎士為知己者死女為說己者容今智伯知我我必

欽定四庫全書 史記 卷八十六 五

為報讎而死以報智伯則吾魂魄不愧矣乃變名姓為
刑人入宮塗廁中挾匕首欲以刺襄子襄子如廁心動
執問塗廁之刑人則豫讓內持刀兵曰欲為智伯報讎
左右欲誅之襄子曰彼義人也吾謹避之耳且智伯亡
無後而其臣欲為報讎此天下之賢人也卒釋去之 索隱
卒音足 律反 居頃之豫讓又漆身為厲 集解駰案音賴索隱 癩惡瘡病也凡漆有
毒近之多患瘡腫若癩病然故豫讓以漆塗身令其若 癩耳然厲賴聲相近古多假厲為賴今之癩字從疒故
楚有賴鄉亦作厲 字戰國策亦作厲 吞炭為啞 索隱啞字烏雅反謂瘖病 戰國策云漆身為厲滅鬚

الصورة 2-13 نسخة عن السجلات التاريخية، المملكة الكاملة لفروع الأدب الأربعة، من مجموعة مكتبة ون يوان

كتب شيان- بالرغم من الإذلال الذي تعرّض له- السجلات التاريخية. وقد قال في مقدمته إنه أراد «دراسة العلاقة بين السماء والبشر، وتلخيص انتظام التاريخ، وتكوين عملي الخاص». إن كتابة التاريخ في الصين تعني أكثر من تسجيل الأحداث، وذلك لأن هذه الكتابة تحتوي على تقييم أخلاقي، وتجارب سماوية، ودروساً من التاريخ وغير ذلك.

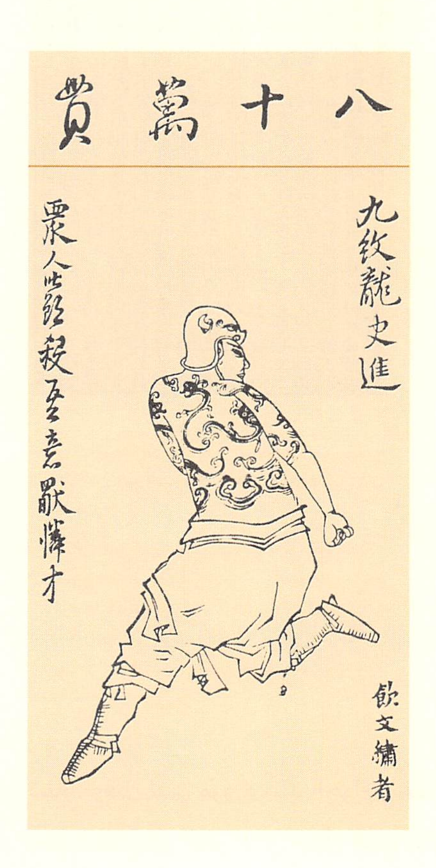
وي، ولكنها حاولت تعويضه بأمورٍ أخرى. أرادت رن إشباع رغبات وي وحبه للجمال، فاستخدمت سحرها، وجلبت له نساءً عازبات أو متزوجات من دون مراعاة أي قواعد أخلاقية واجتماعية. وفي نهاية القصة، طلب تشينغ ووي من رن أن تسافر معهما. وافقت رِن على الذهاب معهما بالرغم من إحساسها بأن شيئاً سيّئاً سوف يحدث معها. وبعد ذلك، قتلها أحد كلاب الصيد. تُعتبر هذه القصة قصةً نموذجية عن الولاء للصديق.

لا يكترث الأشخاص الذين يريدون ردّ المعروف بما إذا كانت أعمالهم تخالف القوانين، أو حقوق الإنسان، أو القواعد الأخلاقية. ويعني ذلك أن كل ما يهمهم هو

الأشخاص الذين يعملون لصالحهم. أما الأبطال الذين يظهرون في قصة الخارجون على القانون في المستنقعات فكانوا كلهم تقريباً من الخارجين على القانون، وهم الذين قاموا بأعمال غير قانونية أو غير أخلاقية من أجل مبادئ الأخوّة والصداقة. (الصورة 2-14)

ينقل الأدب الأفكار الأخلاقية، ولكنه لا يؤدي بالضرورة إلى الوعظ بشكلٍ مباشر. ولا





الصورة 2-14 رسمان مأخوذان من قصة الخارجون على القانون في المستنقعات والتي نُشِرت خلال فترة تشونغ تشن، سلالة مينغ

تروي قصة الخارجون على القانون في المستنقعات التي كتبها شي نا يان (1296-1372)، قصصاً عن سونغ جيانغ، ووو سونغ ورجال ليانغ شان. لكنّ قصص هؤلاء الرجال انتشرت انتشاراً واسعاً قبل نشر هذا الكتاب، كما جرى توثيقها بشكلٍ جزئي في الروايات والمسرحيات، وفي النصوص الأخرى التي كُتبت باللغة العامية. وهذان الرسمان مأخوذان من رواية الخارجون عن القانون في المستنقعات.




關雲長義釋曹操

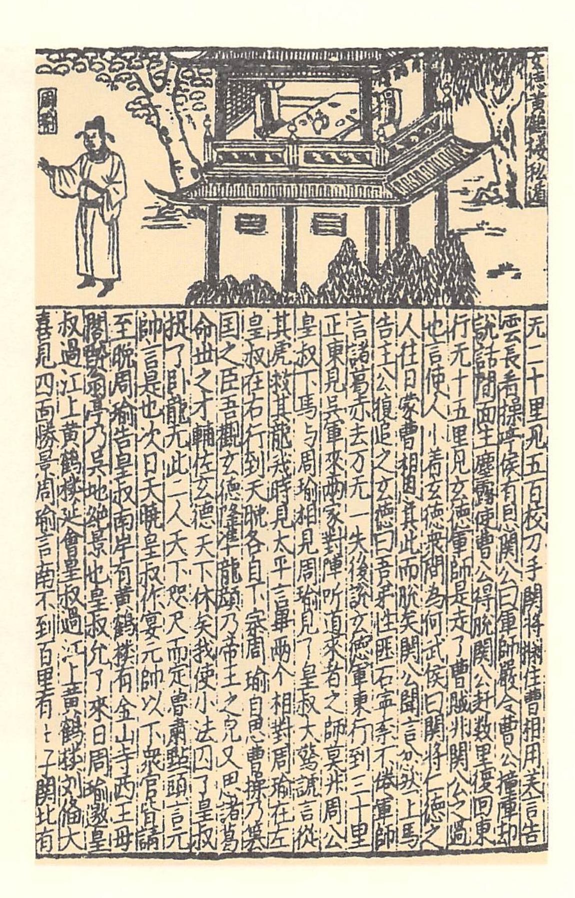
الصورة 2-15 نسخة من قصة الممالك الثلاث، وتاريخ الممالك الثلاث مع الصور، وقد عُرِضت في قاعة شياو شان، مملكة مينغ

يعود عدد كبير من القصص الواردة في قصة الممالك الثلاث إلى مصادر حقيقية. أما عندما قام لو غوان تشونغ بدمج هذه القصص، فقد غرس فيها قيمة احترام ليو وإدانة تساو. والنسخة التي نقرأها في هذه الأيام هي النسخة التي راجعها ماو تسونغ غانغ من سلالة تشينغ، وهي بذلك تقوي هذه القيمة.

يُشترط أبداً أثناء القراءة أن نبالغ في النقد. ويمكننا- بدلاً من ذلك- أن ننتبه أكثر إلى السحر الفني الذي يحتويه العمل الأدبي. ونلاحظ أن غوان يو هو الذي حظي بأكبر توصيفٍ من بين الشخصيات العديدة التي تشتمل عليها قصة الممالك الثلاث (الصورة 2-15)، وذلك بهدف تجسيد مبدأ الاستقامة والولاء. كان غوان يو، وتشانغ فاي، وليو باي إخوة بالدم [أقسموا على الإخلاص]. ألقى تساو تساو- الذي كان عدو ليو باي اللدود- في هذه القصة ذات مرة القبض على غوان. لكنّ غوان بقي على إخلاصه لسيده اللورد ليو باي، وكان كل ما يفكّر فيه هو العودة إلى ليو في أسرع وقتٍ ممكن.

لكنّ الأمر الذي يزيد من أهمية هذه القصة هو أن تساو تساو عامل غوان بكل لطف واحترام. فقد أعطى تساو غوان عدة أشياء ثمينة؛ بما في ذلك حصان شديد القوة، ونساء جميلات، بالإضافة إلى كنوزٍ أخرى. هرب غوان بعد ذلك من معسكر تساو، وقتَل لدى مروره عند الحواجز عدداً من الجنرالات. لكنّ تساو سمح له بالمغادرة رغم ذلك؛ وهو الأمر الذي جعل غوان مديناً لتساو بسبب كرمه. ويفسّر هذا الأمر سبب عدم قيام غوان بقتل تساو وأتباعه في معركة الجرف الصخري الأحمر. لم تؤثّر هذه الواقعة على صورة غوان اللامعة، بل زادت عنده الشعور الإنساني، وجعلته بطلاً يحفظ المعروف. (الصورة 2-16)

تورِد القصة أن ماو تسونغ غانغ- وهو أديب عاش في فترة مملكة تشينغ- قد كتب التعليق التالي: «من الطبيعي بالنسبة إلى البطل الذي يعتمد الاستقامة أن يُظهر الامتنان



无二十里見五百校刀手關將攔住曹相用美言告
雲長看操言侯有何恩關公曰軍師嚴令曹公撞陣却
説話間面生塵霧使曹公得脫關公赶數里復回東
行无十五里見玄德軍師是走了曹賊那關公之過
也言使人小着玄德衆問為何武侯曰關將仁德之
人往日蒙曹相恩其此而脫矣關公聞言忽然上馬
告主公狼追之玄德曰吾弟性匪石寧奈不從軍師
言諸葛亦去万无一失後説玄德軍東行到三十里
正東見吳軍來兩家對陣所道來者之師莫非周公
皇叔下馬与周瑜相見周瑜見了皇叔大驚謊言從
其虎救其龍戎時見太平言畢兩个相對周瑜在左
皇叔在右行到天晚各自下寨周瑜自思曹操乃漢
国之臣吾觀玄德隆準龍顏乃帝王之貌又思諸葛
命世之才輔佐玄德天下休矣我使小法囚了皇叔
捉了卧龍无此二人天下咫尺而定魯肅點頭言元
帥言是也次日天曉皇叔作宴元帥以下衆官皆請
至晚周瑜告皇叔南岸有黃鶴樓有金山寺西王母
閣蓬萊亭乃吳地絕景也皇叔允了來日周瑜邀皇
叔過江上黃鶴樓延會皇叔過江上黃鶴樓劉備大
喜見四面勝景周瑜言南不到百里有七子關比有

الصورة 2-16 نسخة عن قصص الممالك الثلاث، وهو الكتاب الذي نشره يو في جيانان في مملكة يوان

تم تسجيل أسطورة غوان يو عند قيامه بتحرير تساو تساو في طريق هوا رونغ في رواية مكتوبة باللغة العامية في فترة مملكة سونغ. لكنّ غوا يو في هذا الكتاب لم يقم بتحرير تساو بطيبة خاطر، بل كان ينوي قتل تساو تساو، ولكنّ بعد هبوب عاصفة رملية مفاجئة تمكّن تساو تساو من الهرب.

للخدمات التي تلقاها». في حقيقة الأمر، كان تساو موظفاً حكومياً خائناً وعدواً للأمة، ولكنه عامل غوان بكل كرم واحترام، وهكذا كان صديق غوان بهذا المعنى. ويُضاف إلى ذلك أن الرجل الذي يقتل صديقه لا يُعتبر بطلاً حقيقياً. لذا، إن الولاء للصديق هو الذي جعل غوان بطلاً حقيقياً أكثر بالنسبة إلى القراء. (الصورة 2-17)

ينقسم الحرف الصيني التقليدي يي (الاستقامة أو الولاء) إلى جزءين: يانغ (الخراف) وو (أنا). ويمكننا أن نستنتج معنى للولاء مثيراً للاهتمام من هذا التركيب، أي أن المعنى الحرفي للكلمة يصبح، لكي أكون مخلصاً أريد أن أكون نعجة لكي أضحي بنفسي. يمكن العثور على معنى الولاء في كل مكان في الأدب الصيني؛ وهو الأمر الذي يعكس الدور البارز الذي يلعبه الولاء في حياة الشعب الصيني (الصورة 2-18). أما في هذه الأيام، فإننا





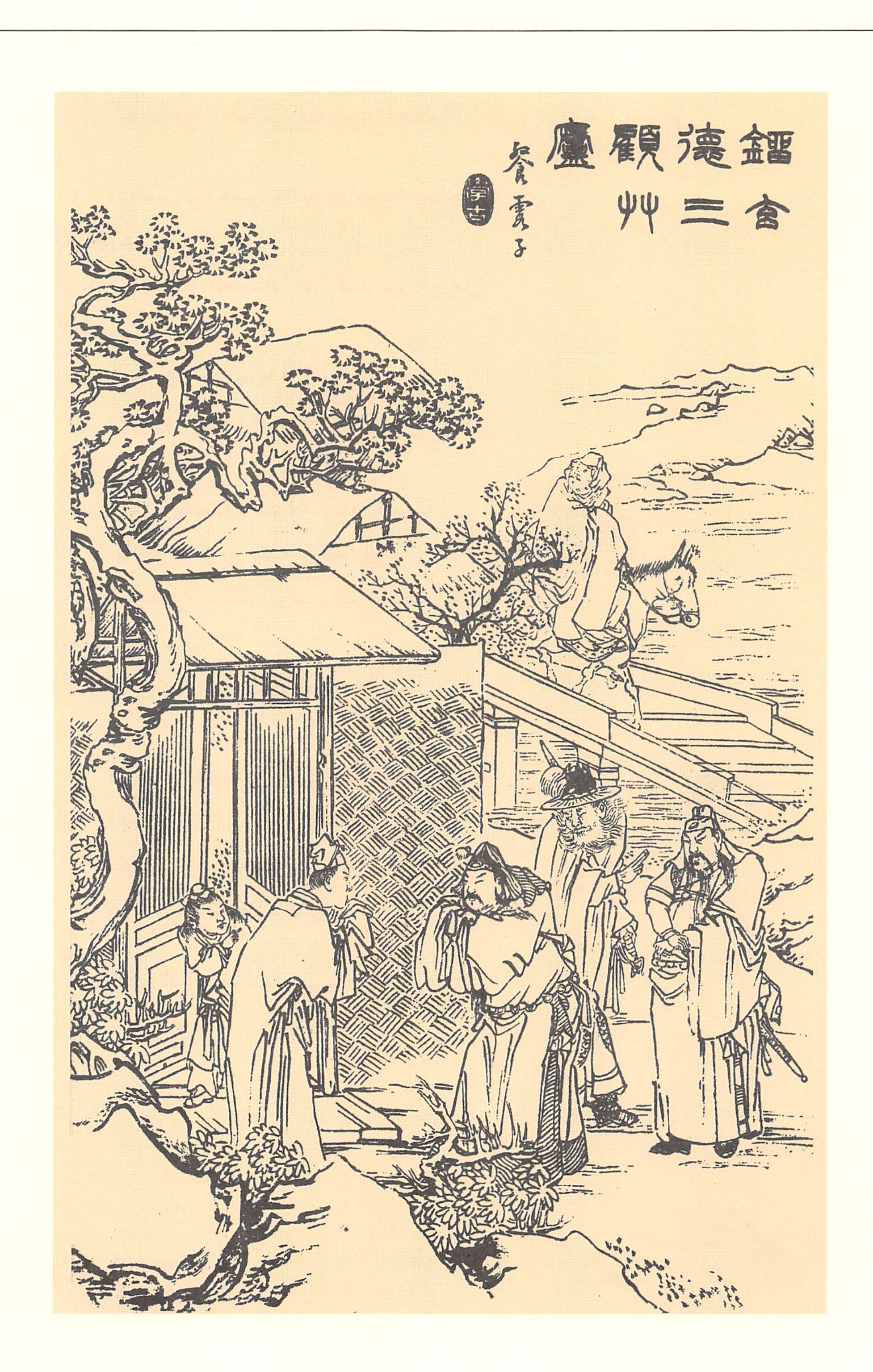
الصورة 2-17 غوان يو يلقي القبض على جنرال، بريشة شانغ سي الذي عاش في فترة مملكة مينغ. رسمٌ ملوّن على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

كان غوان يو جنرالاً في جيش ليو باي، ولكن سرعان ما انتشرت صورته النبيلة بين الناس، كما ظهرت قصص متعددة عنه. احتلّ غوان يو مركزاً رفيعاً في التراث الصيني، كما أُطلقت عليه ألقاب متعددة مثل غوان غونغ، والإمبراطور غوان، والإمبراطور القديس غوان.

(إلى اليسار) الصورة 2-18 نقش على الخشب يمثّل الزيارات الثلاث إلى الكوخ، تاريخ الممالك الثلاث مع الصور، نسخة منقحة عن غوانغ باي سونغ، جينغ ين خلال فترة حكم مملكة غوانغ

إن القصة التي تدور حول ولاء تشو جي قصة أخرى لقيت انتشاراً واسعاً من بين قصص الممالك الثلاث. فمن جهة، شعر تشو جي بالامتنان للتكريم والتفهّم اللذين أظهرهما ليو باي، وخدمه بكل إخلاص ومحبة. أما من جهة أخرى، فقد حارب ضد قوات تساو وي؛ وهو الأمر الذي يمثّل الغرور والقسوة. في حين أن دو فو أثنى عليه في قصائده عندما قال: «انتشرت سمعة تشو جي الحسنة في كل أنحاء العالم».

نفهم الولاء بطريقة مختلفةٍ تماماً، كما أن الأفعال الناتجة عن الولاء لا يجب أن تخرق القوانين والأنظمة. لكن بالرغم من هذه التغيّرات، إن القيَم الإيجابية والجوهرية للولاء بقيت معترفاً بها بشكلٍ عام؛ وهو الأمر الذي يُظهره العدد الكبير من الاصطلاحات والتعابير الصينية.





| المنصب: طالب يدرس للحصول على منصب رسمي

الشراب يغلي، والدجاجات تهاجم بمناقيرها

في موسم الحصاد هذا عند عودتي من الجبال.

أحضِروا الشراب يا أولادي

واطبخوا لي بعض الدجاجات يا أولادي الأعزاء،

دعوني أستمتع بالشراب، ولعبة السيف

عندما يعانق نور الشمس الغسق.

لا أستطيع انتظار موعد رؤيتي للامبراطور لتحقيق طموحاتي،

سأبدأ رحلتي إلى العاصمة بعد انتهاء الشراب.

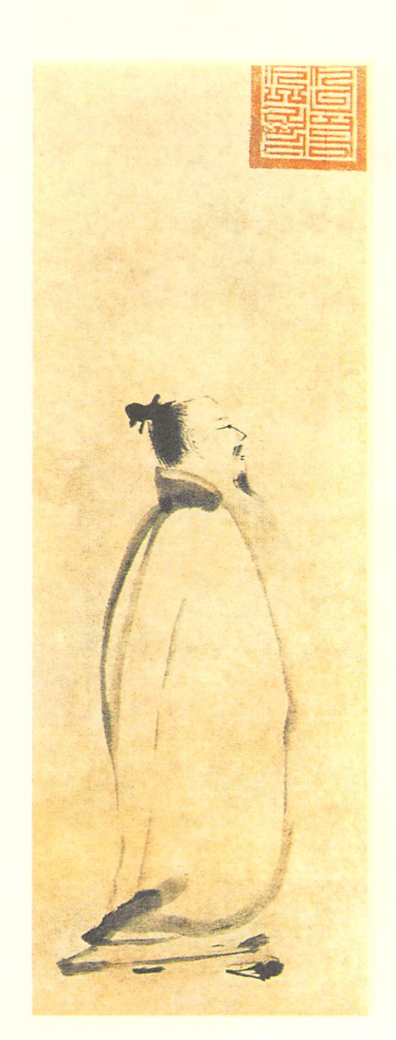
لن يفهم طموحاتي أولئك الناس المجانين.

لم يتوقعوا أن يدعوني الإمبراطور،

لكنني سوف أضحك بأعلى صوتي، ولمَ لا؟

لستُ رجلاً بسيطاً بالتأكيد.

وداعاً لنانكينغ، تأليف لي باي (الصورة 2-19)



الصورة 2-19 صورة لي باي وهو يغني أثناء سيره بريشة ليانغ كاي، سلالة سونغ، رسم على ورق، مجموعة متحف طوكيو الوطني

كان لي باي موهوباً جداً، وكان شِعره جريئاً وحراً. يُعتبر لي واحداً من عدد قليل من الشعراء الموهوبين في تاريخ الأدب الصيني. ولكن، بالرغم من أن لي باي كان مغروراً بسبب موهبته، إلا أنه كان يتطلع إلى تعيينه موظفاً حكومياً، وهذا هو سبب الحماسة التي شعر بها بعد تعيينه رسمياً. تتبنى هذه الصورة أبياتاً بسيطة. ويُضاف إلى ذلك وجود لمساتٍ قليلة تمثّل بوضوح شكل لي باي وروحه؛ وهو الذي كان شاعراً أنيقاً ووسيماً.

اعتبر الأدباء الصينيون القدماء أن هدفهم الأساسي لمدى حياتهم هو تحسين أنفسهم، وتنظيم حياة أُسرهم، والمشاركة في الشؤون الحكومية والسياسية. ويُضاف إلى ذلك أن الكونفوشيوسية دعت إلى كسب العلم من أجل الحصول على منصبٍ رسمي. فقد امتلكت الكونفوشيوسية بوصفها العقيدة الأكثر نفوذاً في الصين تأثيراً كبيراً على أوجهٍ عديدة، بما فيها الأدب. لكن، وكما ذكرنا سابقاً، إن الأدب الصيني كان انعكاساً للكتّاب وأفكارهم.

كان معظم الشعراء أو الكتّاب طلاباً، كما أن طموحاتهم السياسية بطبيعة الحال ظهرت في إبداعاتهم الأدبية. وقد عبّر لي باي مثلاً- وكما يتبيّن من القصيدة التي أوردناها- عن دهشته عندما تلقى دعوةً من الإمبراطور شوان تسونغ (685-762). واعتبر لي باي أن كل طموحاته السياسية سوف تتحقق ما إن يصل إلى تشانغ يان التي كانت عاصمة سلالة تانغ، لكن الوقائع خذلته. وقد قام الإمبراطور بعد ذلك بدعوة لي باي إلى القصر؛ فقط بسبب شهرته في مجال كتابة الشعر، ولكن لم يمنحه أي منصبٍ رسمي حقيقي (الصورة 2-20). لا يُستغرب بعد ذلك إدمان لي باي على تناول الشراب، ومغادرته العاصمة بعد خيبة أمله. (الصورة 2-21)

لم يعبّر كل الكتاب أو الشعراء عن طموحاتهم السياسية بشكلٍ صريح، أي مثلما فعل لي باي، بل عبّروا عن طموحاتهم بشكلٍ غير مباشر. وكان مينغ هاوران (689-740)- وهو شاعر شهير عاش في عهد مملكة تانغ- واحداً من أولئك الشعراء.

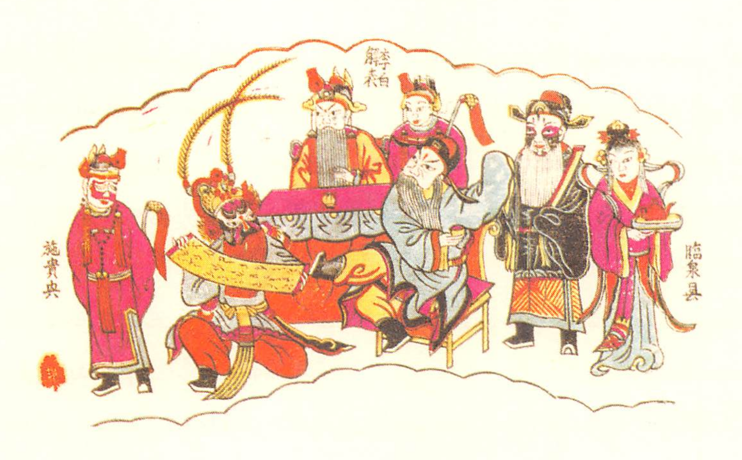
وصف مينغ في قصيدته فوق برج يوي يانغ المنظر الطبيعي قبل تعبيره عن



الصورة 2-20 لي باي على ظهر حوت، بريشة شو ليانغ الذي عاش في فترة سلالة سونغ. لوحة مرسومة بالحبر على الورق، مجموعة متحف هوايان

يمتلك لي باي عدة ألقاب؛ مثل جنيّ الشعر، وجنيّ الشراب، والجنيّ المطرود من الجنة، وغير ذلك... فقد كان الشاعر يحب الشراب، وقيل إنه غرق أثناء تأمّله القمر بمحاذاة البحيرة وكان ثملاً. تصوّر هذه اللوحة لي باي راكباً على ظهر حوت يذرع البحر ذهاباً وإياباً.





الصورة 2-21 لي باي يقوم بالترجمة، الاحتفال برأس السنة، سلالة تشينغ، فو يانغ، مقاطعة آن هوي

عاش لي باي في طفولته في المناطق الشرقية، ولهذا كان يفهم اللغات الأجنبية السائدة في المناطق الغربية من البلاد. وتورد الأسطور أن تانغ شوانغ تسونغ تسلّم وثيقةً دبلوماسية من بلدٍ أجنبي، ولكنه لم يتمكّن من فهمها، ولذلك طلب من لي باي أن يترجمها له. طلب لي باي من جاو ليشي أن ينزع له حذاءه، كما طلب من يانغ غو تشونغ تحضير الحبر. ثم قام الشاعر بالترجمة أثناء تناوله الشراب، وهو الأمر الذي جعل المسؤولين في البلاط يشعرون بالإهانة.

عواطفه (الصورة 2-22). لكنّ الشاعر عبّر عن خيبة أمله بصورة غير مباشرة، وذلك من خلال تصويره المشهد، أي أنه لا يتمكّن من تحقيق طموحاته السياسية من دون استعانته بتوصية من النافذين، وبشكلٍ يشبه استحالة عبور شخصٍ ما النهر من دون عبّارة. لم يكن مينغ الشخص الوحيد الذي عجز عن الاستفادة من موهبته بالكامل.

كان تساو تشي أحد أبناء تساو تساو، وكان أديباً موهوباً خلال فترة الممالك الثلاث، ولكنه لم يتمكّن من الاستفادة من ثقافته الممتازة في عمله السياسي، وذلك لأن شقيقه الأكبر شعر بالغيرة من مواهبه (الصورتان 2-23، 2-24). يمكننا ملاحظة الأمر في قصيدته الحسناء، أي حيث اضطرت فتاة فائقة الجمال إلى البقاء عزباء ووحيدة من دون مساعدة وسيطة زواج. قارن تساو نفسه مع الفتاة الجميلة، أي كما حدث مع عددٍ كبير من الشعراء في الصين القديمة.

صوّر لي شانغ ين في قصيدته التي كانت بلا عنوان فتاةً صغيرة تتمتع بجمالٍ فائق، والتي شعرت بحزنٍ شديد بسبب بقائها من دون أن يتودّد إليها أحدٌ. أدخل لي في قصيدته قصة الشخصيات التاريخية مثل أون جيا يي، بالإضافة إلى الفتاة الجميلة التي تشعر بالوحدة.

كان جيا يي (200-168 ق.م) أديباً موهوباً، وناقداً يتمتع ببعد نظرٍ سياسي خلال



الصورة 2-22 لوحة برج يوي يانغ (جزء) بريشة شيا يونغ، خلال عهد سلالة يوان، لوحة على لفافة حرير، مجموعة متحف القصر

يوي يانغ يستلقي بالقرب بحيرة دونغ تينغ في مدينة يوي يانغ. وهو واحد من الأبراج الأربعة الشهيرة في جيانغ نان. تسلّق عدد من الكتّاب والشعراء البرج ذات مرة، ونظروا إلى المدينة من فوق، ثم ألفوا عدداً من الأعمال الممتازة، مثل الصعود إلى برج يوي يانغ، والتي ألفها دو فو، وملاحظات من يوي يونغ التي ألّفها فان تشونغ يان.

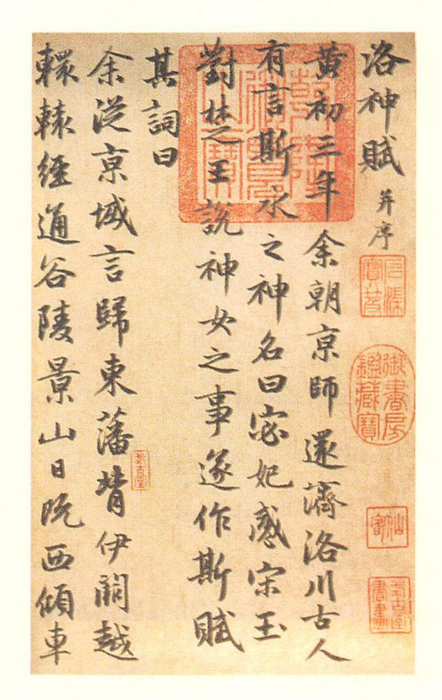


الصورة 2-23 لو شين يقيّم لوحة (جزئياً) بريشة غو كاي تشي في مملكة جين الشرقية، نسخة سونغ، رسم بالألوان على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

لو شين يقيّم لوحة بريشة الرسام الشهير غو كاي تشي الذي عاش في مملكة جين الشرقية (نحو سنة 344-405). لكن اللوحة الأصلية فُقدت منذ زمن، أي أن النُسخ الموجودة كلها عبارة عن نُسخ من عهد مملكة سونغ. تبدو هذه اللوحة أقرب إلى كتابٍ فكاهي. وهي تصوّر من اليمين إلى اليسار قصة حب بين تساو زي جيان ولوشن اللذين فهما بعضهما بعضاً، ولكنهما اضطرا إلى الافتراق. تبدو الشخصيات في هذه اللوحة في غاية النشاط والحيوية. وتُعتبر هذه اللوحة عملاً هاماً في تاريخ الفنون الجميلة.

الصورة 2-24 نصٌ باقٍ من تقييم لو شين (جزئياً)، بريشة تشاو مينغ فو من عهد مملكة يوان، كتابة على الورق، مجموعة متحف القصر

يُعتبر كتاب تقييم لو شين تحفة تساو تشي، وهي التي تتحدث عن حبّ الراوي ولو شين لبعضهما بعضاً، لكن لو شين كانت من الآلهة، ولهذا السبب افترقا. حاول بعض الأدباء تخمين المعنى الحقيقي لهذه المقالة، واعتقد بعضهم أنها كُتبت لزوجة أخيه ملكة تشن، فيما اعتقد بعضهم الآخر أن المؤلف أراد التعبير عن حزنه بسبب ملاحقته على يد أخيه، بينما اعتقد آخرون أنها عبارة عن استعارة تعبّر عن الولاء والإخلاص لأخيه.





فترة حكم مملكة هان. وقد قام إمبراطور شوان الذي كان حاكم مملكة هان، بزيارة جيا لي في الليل، وسأله عن فن السحر بدلاً من سؤاله عن أمور تسيير الدولة. هل كان ذلك أمراً محزناً؟

يُمثّل كل الأدباء الذين تحدثنا عنهم، بمن فيهم جيا يي، وتساو تشي، ولي باي، ومنينغ هاوران ولي شانغ ين مجموعة من الأدباء في تاريخ الأدب الصيني الذين لم يتمكنوا من تحقيق طموحاتهم السياسية.

وقد جرت العادة منذ عهد مملكة سوي أن يتم اختيار الموظفين الحكوميين من خلال امتحانات في البلاط الإمبراطوري. وكان ذلك النظام مصدر ارتياح كبيراً بالنسبة إلى الأدباء الذين يطمحون لتولي مناصب حكومية. أما قبل اعتماد ذلك النظام، فلم تكن تلك الفرصة تُمنح إلا لأفراد طبقة النبلاء. وبالنسبة إلى المواطنين العاديين، كان ذلك مجرد حلمٍ بعيد المنال.

文章冠世而困頓名場不知場內諸公所賞鑒者是何物事

八字中屈煞英雄不少

此眞知己惟場外乃能遇之當涕零不已

聊齋志異新評卷一

葉生

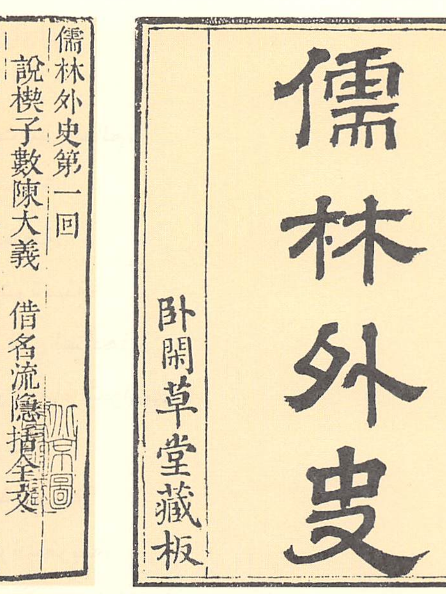
淮陽葉生者、失其名字文章詞賦冠絕當時而所如不偶困於名場會關東丁乘鶴來令是邑見其文奇之召與語大悅使即官署受燈火時賜錢穀恤其家值科試公游揚於學使遂領冠軍公期望綦切闈後索文讀之擊節稱嘆（我讀之爲之大哭）不意時數限人文章憎命榜既放依然鎩羽生嗒喪而歸愧負知己形銷骨立癡若木偶公聞召之來而慰之生零涕不已公憐之相期考滿入都攜與俱生甚感佩辭而歸杜門不出無何寢疾公遺問不絕

الصورة 2-25 نسخة عن قصص غريبة من الاستديو الصيني، وتعليق جديد على قصص غريبة من الاستديو الصيني، نسخة دان منغ لون، وذلك خلال فترة داو غوانغ، مملكة تشينغ

يتواجد عدد كبير من قصص الأشباح وأرواح الثعالب في قصص غريبة من الاستديو الصيني. لكن الأشباح وأرواح الثعالب ليست وحوشاً؛ أي أنها تشبه البشر، وحتى إنها ودود. عالم الأرض يشبه عالم الأشباح، إن هذا التشبيه الموجود في الكتاب يُشير إلى عالم البشر، بالإضافة إلى انتقاد هذا العالم ورغباته.

وفّر نظام الامتحانات طريقاً نحو احتلال منصب رسمي، لكنّ عدداً قليلاً من الأدباء تمكّن من اجتيازه. وهكذا، أمضى عددٌ كبير من الناس حياتهم بأكملها في الدراسة، ولكنهم فشلوا في اجتياز الامتحان، وانعكس فشلهم على أعمالهم بكل قوة.

كانت الامتحانات الرسمية في أيام مملكة تشينغ مؤلفة من أربعة مستويات مختلفة. وكان الأديب الذي يريد أن يصبح موظفاً رسمياً يحتاج إلى اجتياز امتحان من المستوى الثاني. كان ذلك الأمر صعباً على الكثيرين. لكنّ بو سونغ لينغ (1640-1715) الذي كان روائياً شهيراً في مملكة تشينغ، تمكّن من اجتياز المستوى الأول من


嘉慶八年新鐫
儒林外史
卧閑草堂藏板

儒林外史第一回
說楔子敷陳大義 借名流隱括全文
人生南北多歧路將相神仙也要凡人做百代
興亡朝復暮江風吹倒前朝樹功名富貴無憑
據費盡心情總把流光誤濁酒三杯沉醉去水
流花謝知何處這一首詞也是个老生常談不
過說人生富貴功名是身外之物但世人一見
了功名便捨著性命去求他及至到手之後味
同嚼蠟自古及今那一个是看得破的雖然如
儒林外史 第一回 一

الصورة 2-26 أجزاء من نسختين عن الأدباء، كلية ووشيان خلال فترة جيا تشينغ، مملكة تشينغ

كتب وو جينغ زي (1701-1754) الأدباء في فترتَي يونغ تشينغ وشيان لونغ؛ أي عندما كانت القوة القومية في ذروتها في مملكة تشينغ. وكان من الطبيعي جداً في ذلك الوقت أن يدرس الإنسان لكي يجتاز الامتحان ويصبح موظفاً رسمياً. يصف الكتاب الجانب غير الإنساني لهذا النظام بلهجةٍ نقدية قوية وعميقة.

الامتحانات عندما كان في التاسعة عشرة من عمره، ولكنه لم يتمكّن من اجتياز المستوى الثاني قطّ. ومع ذلك، يمكننا أن نتخيّل مدى الإحباط والحزن اللذين شعر بهما. وهكذا، تضمنّت رواية قصص غريبة من الاستديو الصيني التي كتبها قصصاً عديدة عن الأدباء الذين شعروا بالإحباط (الصورة 2-25)، ومن ضمنهم رجلٌ اسمه الأول يي. وتدور تلك القصة عن رجلٍ عجز عن اجتياز الامتحان الإمبراطوري، ثم مات بعد ذلك. وتحوّل الرجل بعد مماته إلى شبحٍ، ثم أصبح معلماً لأحد أبناء موظفٍ رسمي. أتمّ الرجل في النهاية موته، وهلك شبحه. واعتبر بعض الناس أن القصة تعكس صورة الروائي نفسه. لكنّ قصص غريبة من الاستديو الصيني لم تكن العمل الأدبي الوحيد الذي يتحدث عن الأدباء الذين خابت آمالهم نتيجة الامتحانات الإمبراطورية.

أما الأدباء (الصورة 2-26) وهي رواية شهيرة ظهرت في أواخر عهد مملكة تشينغ، فقد تحدثت أيضاً بالتفصيل عن عددٍ من الأدباء الذين أصيبوا بالجنون بسبب فشلهم في الامتحانات، أو في المناصب الرسمية.



| العزلة: حياة ريفية هادئة

في صِغري لم أكترث لأحداث هذا العالم،
والتلال أصبحت رفيقتي الوحيدة،
لكنّني وقعتُ في الأفخاخ الدنيوية،
وهكذا بقيتُ عالقاً لثلاث عشرة سنة،
كعصفورٍ سجين يتوق للغابة التي اعتادها،
ومثل توق سمكة عالقة في بركة ماءٍ لأحواضها
أتوق للعودة إلى حقول الجنوب.
لماذا لا أعود إلى حياةٍ ريفية بسيطة؟
أرضي لا تزيد عن عشرة آكرات مربعة،
وكوخي المسقوف بالقش يشتمل على ثماني، أو تسع غرف.
حديقتي تبدأ بأشجار الدراق والخوخ وتنتشر هنا وهناك،
وفي الخلف أشجار الصفصاف والدردار ترخي بظلالها.
تلوح القرية بعيدةً وسط الظلام،



وتتصاعد أعمدة الدخان والروائح مع نسيمات الهواء،
وعواء كلبٍ يُسمع في زقاقٍ بعيد،
وصياح الديك كأنه آتٍ من فوق أشجار التوت.
لا أسمح لأحد بأن يتطفل بالدخول إلى باحة منزلي،
ويسلب حجراتي الخاصة هدوءها وسكينتها.
أستمتع بسكينة الطبيعة وجمالها
بعد سنوات العبودية الطويلة.

العودة إلى الطبيعة، تاو يوان مينغ (الصورة 2-27)

دعت الكونفوشيوسية- بصفتها العقيدة السائدة في الصين القديمة- إلى المساهمة في الشؤون الاجتماعية والسياسية. لكنّ كونفوشيوس زعمَ في الوقت ذاته أنه يتعيّن على الأدباء المشاركة بقوة في الحياة السياسية لمجتمعٍ هادئ ومزدهر، كما يجب عليهم الابتعاد والانعزال أثناء الاضطرابات الاجتماعية. ويعني ذلك كله أن التوجّه للحصول على منصبٍ رسمي يصبح اختيارياً بالنسبة إلى الأدباء.

لكنّ اختيار الأديب السعيَ إلى الحصول على منصبٍ رسمي، أو السعيَ ليصبح



الصورة 2-27 لوحة العودة إلى الطبيعة التي رسمها لي زاي، من مملكة مينغ. رسمٌ بالحبر على ورق، من مجموعة متحف لياو نينغ الإقليمي

عادةً، يعكس شعر تاو يوان مينغ المرح الذي تتميز به الحياة الريفية. وتمتلئ هذه الحياة بالمرح والمعاني سواء أكانت شجرة، أو عشباً في حقل، أو الأدوات الزراعية المختلفة. وقد كان الشاعر ناسكاً حقيقياً ومستمتعاً بمثل هذه الحياة.

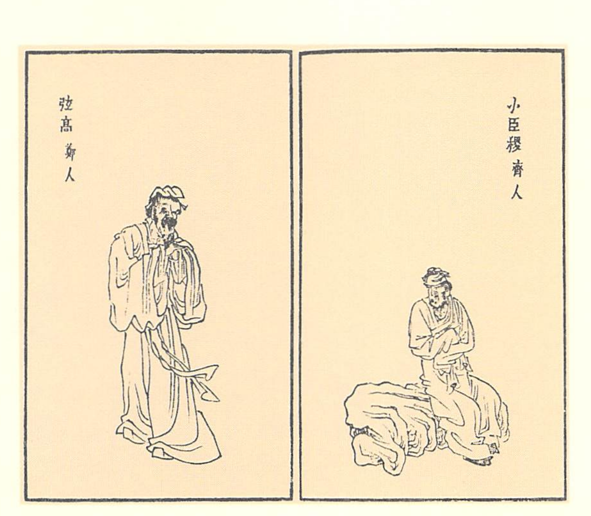


ناسكاً، يتقرر غالباً نتيجة السلوكيات الأخلاقية والاجتماعية، وليس نتيجة الطموحات الشخصية. ولكن، حتى في مجتمعٍ مضطرب، إن المشاركة الفعّالة في الشؤون الاجتماعية والسياسية كانت تلقى ثناءً في معظم الأوقات بالمقارنة مع حياة العزلة.

ارتحل كونفوشيوس خلال الفترة المُسمّاة الربيع والخريف- والتي كانت فترة مضطربة- إلى ولاياتٍ عدة من أجل الترويج لأفكاره السياسية، ولكنه لقي معاملة باردة في كل الأماكن التي قصدها. وذات مرة، حاول ناسكٌ شهير يُدعى لو جاي يو منع كونفوشيوس من مواصلة جهوده المضنية، غير أنه فشل في إقناعه. لكنّ كونفوشيوس ما كان ليُعتبر قديسَ الصين على نطاقٍ شامل لو نجح لو في إقناعه.

تُعتبر الثقافة الصينية ثقافة متسامحة، وهذا هو سبب تمكّن الكونفوشيوسية- بوصفها الثقافة السائدة- من التطور متناغمةً مع الأفكار الأخرى مثل ثقافة التنسّك. كما أن تاريخ الصين شهد ظهور عددٍ كبيرٍ من النساك. ويعني كل ذلك أن ثقافةً خاصة تمكّنت من التأثير بشكل كبير على السياسة، والأدب، والرسم، والبستنة (الزراعة)، وجوانب أخرى من الحياة في الصين.

لكن واقع أن النسّاك عاشوا حياة عزلة في الجبال والغابات لا يعني أن التاريخ قد تجاهلهم تماماً. والواقع هو أن مختلف الكتب التاريخية قد أتت على ذكرهم، أو أن الباحثين ناقشوا أخبارهم مراراً (الصورة 2-28). يُعتبر فان يي (398- 445) مؤرخاً شهيراً



الصورة 2-28 نقش على الخشب يمثل سيَر حياة النسّاك القدماء، السيَر الأربع رن وي تشانغ، قاعة وانغ يانغ هي خلال فترة شيان فينغ، مملكة تشينغ

لا يُعتبر سيَر حياة النسّاك القدماء مجرد كتابٍ فقط، ولكنه أيضاً عنوان فئة من الكتب. ويسجّل هذا النوع من الكتب قصص أولئك النسّاك الذين لم يتعاونوا مع الحكومات. ولكن منذ هوانغ فو مي الذي عاش في مملكة جين لم تنقطع الكتابة عن النسّاك، مثل كتاب سير القدماء الذي كتبه تشن جيرو، وسلسلة سيَر النسّاك الذي كتبه جاو تشاو.

في عهد الممالك الجنوبية، وقد شرح ذات مرة الدوافع المختلفة للنسّاك، وقال: «اختار النسّاك حياة العزلة؛ إما لدوافع روحية شخصية، أو سعياً وراء حياةٍ هادئة في أوقاتٍ مضطربة». وقد امتلك هذا المؤرخ الذي عاش في عهد مملكة تانغ تصنيفاتٍ أكثر تحديداً للنسّاك. توزّع النسّاك بحسب هذه التصنيفات على ثلاث فئات بحسب دوافعهم المختلفة. الفئة الأولى ضمّت أولئك الذين اختاروا حياة العزلة، وتمتعوا بشخصيات راقية واعتاد الأباطرة على استقبالهم. أما الفئة الثانية فضمّت أولئك الذين عادوا إلى أحضان الطبيعة بسبب عجزهم عن الاستفادة الفعلية من مواهبهم. في حين أن الفئة الثالثة ضمّت أولئك الذينأولئك الذين أدركوا أن ما حصّلوه من علم لا يتناسب مع الواقع الاجتماعي، وهكذا أصبحوا نسّاكاً. لكن، بغضّ النظر عن الدوافع، كان النسّاك يلقون ترحيباً على الدوام.



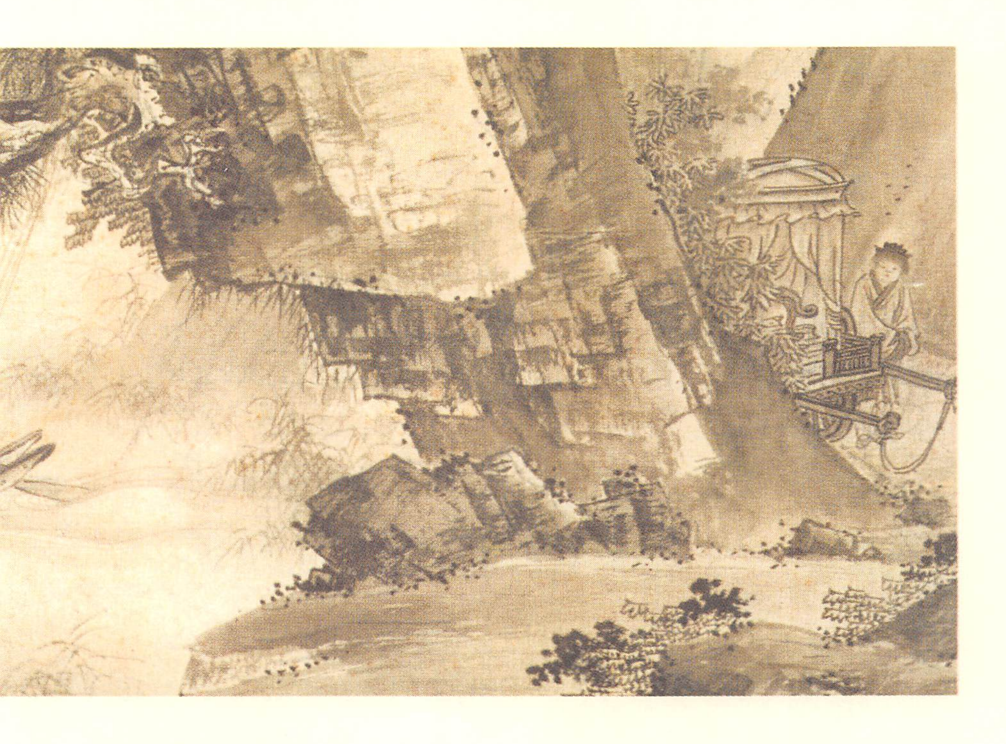
الصورة 2-29 لوحة جبل تشونغ نان، لوحات الجبل الشهيرة بريشة شين شي لينغ، مملكة تشينغ

جبل تشونغ نان هو جبل تاوي شهير، وكان مليئاً بالمعابد والأبنية التاوية. أما في بداية فترة مملكة تانغ فقد أكثرت الحكومة من توظيف النسّاك. عاش لو كانغ يونغ ذات مرة في جبل تشونغ نان، وطُلِب منه بعد ذلك أن يكون موظفاً رسمياً. وقد وجّه بعض الأشخاص انتقاداً له بأنه كان في عزلةٍ زائفة، وما لبثت قصة طريق تشونغ نان المختصرة نحو النجاح أن انتشرت مثل انتشار النار في الهشيم.

اعتبر بعض الناس أن النسّاك يمتلكون شخصيات راقية، كما أخطأوا الظن بأن جميع النسّاك يمتلكون مواهب كبيرة. انتقل بعض الأدباء الذين يمتلكون دوافع قوية- وفي ظل تلك الظروف- إلى الجبال أو الغابات، وذلك بهدف أن يقوم إمبراطور زائر بتعيينهم في وظائف حكومية. واختار معظم أولئك النسّاك جبل تشونغ نان الذي يقع قرب العاصمة ليكون مركزاً مثالياً لهم، وهكذا دُعِي هذا المكان المنعزل الزائف «الطريق المختصرة نحو تشونغ نان». (الصورة 2-29)

لكنّ الناسك الحقيقي كان محترماً ومحط إعجاب مثل تاو يوان مينغ. فقد احتلّ تاو مركزاً حكومياً صغيراً قبل





(في الأعلى) الصورة 2-30 لوحة العودة إلى الطبيعة، بريشة شيا تشي، مملكة مينغ، لوحة مرسومة بالحبر على الورق، مجموعة متحف لياو نينغ الإقليمي

«العودة إلى الطبيعة! العودة إلى الطبيعة!» شعَرَ عددٌ كبير من الناس بالسأم من الدوائر الرسمية، ولهذا اتّخذوا من هذا البيت من الشعر شعاراً لهم استمر على مدى آلاف الأعوام. ولكن بالرغم من أن منشيوس قال ذات مرة: «يتعيّن على الإنسان في أوقات الشدة السعي إلى تطوير الذات من خلال مجهوده الخاص. إلا أنه يجب عليه مساعدة الآخرين ما إن تتحسّن أوضاعه، وأن يفعل ذلك بكل طيبة خاطر». لكن الناسك الصيني كان يشعر بالتردد عندما يضطر إلى عزل نفسه عن الآخرين مع الاحتفاظ بنموذج إدارة شؤون الدولة.

الصورة 2-31 تاو يوان مينغ يحتفل بالأقحوان، لوحة تمثّل احتفال الشعب برأس السنة في أواسط عهد مملكة تشينغ، وو شيانغ، مقاطعة هيباي

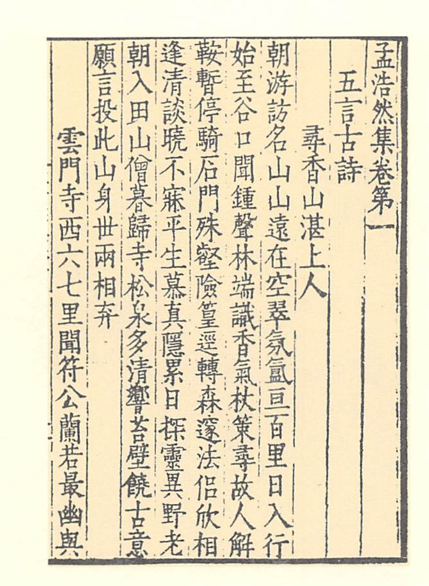
«اجمع الأقحوان النابت إلى جانب السياج، وانظر باسترخاء إلى جبل نان». انغرست صورة يوان مينغ في قلوب الشعب في تلك الفترة. وتُظهر صورة الاحتفال برأس السنة هذه الوقت الذي عاد فيه تاو يوان مينغ بأزهار الأقحوان بينما أعطاه الولد المزيد منها.

عودته إلى الحياة الريفية. وسبق أن اكتشف تاو أن شخصيته لا تتناسب مع الوظائف الحكومية، ولهذا ترك الوظيفة الرسمية ليتفرغ إلى حياة الزراعة (الصورة 2-30). تعبّر قصيدة العودة إلى الطبيعة التي اقتبسناها في بداية هذا القسم عن مزاج تاو الحقيقي، وعن المسرات البسيطة في الحياة الريفية. فقد قارن الشاعر بين حياته في الريف وحياة طائرٍ انطلق للتو من قفصه. كان شعر تاو انعكاساً تاماً لمسراته البسيطة بوصفه مزارعاً وناسكاً يتمتع بشخصية راقية (الصورة 2-31). ويُفسّر ذلك كله سبب احتلاله مراكز مرموقة- الواحد تلو الآخر- في تاريخ الأدب الصيني منذ مملكة تانغ.




九月秋、
菊各色新朵々
青来可爱人
盛誇、
此菊
尽家
童又送
花两盆
双兴顺





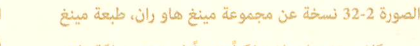
孟浩然集卷第一

五言古詩

尋香山湛上人

朝游訪名山山遠在空翠氛氳亘百里日入行始至谷口聞鍾聲林端識香氣杖策尋故人解鞍暫停騎石門殊壑險篁逕轉森邃法侶欣相逢清談曉不寐平生慕真隱累日探靈異野老朝入田山僧暮歸寺松泉多清響苔壁饒古意願言投此山身世兩相弃

雲門寺西六七里聞符公蘭若最幽與



الصورة 2-32 نسخة عن مجموعة مينغ هاو ران، طبعة مينغ

كان مينغ هاو ران مفكراً شهيراً في عهد مملكة تانغ، وعمل لفترة قصيرة بصفته مساعداً للموظفين، كما عاش معظم حياته إما في عزلة وإما في الترحال. يتميّز شعر مينغ هاو ران بالبساطة والهدوء المترافقين مع مفهوم فني شامل، وتُعتبر قصائده أعمالاً فكرية نموذجية.



الصورة 2-33 لوحة تمثّل باي جو يي، طبعة مينغ من لوحات القدماء في التاريخ

تميّزت الحياة المهنية التي عاشها باي جو يي بانتكاساتٍ متكررة، وهو الذي كان معجباً بتاو يوان مينغ. فبالإضافة إلى 16 قصيدة بأسلوب تاو، كتب الشاعر قصيدة زيارة إلى منزل تاو السابق. أظهر الشاعر في هذه القصيدة احترامه لمبدأ الانضباط الذاتي الذي أظهره تاو يوان، وكذلك إزاء رغبته في حياة الوحدة والانعزال.

عمد عددٌ من الشعراء مثل مينغ هاوران (الصورة 2-32)، وباي جو يي (772-846) (الصورة 2-33)، وسو شي (1037- 1101) إلى تقليد أسلوب الكتابة الذي يعتمده تاو في شعرهم. أما وانغ غو وي، وهو أديبٌ مرموق عاش في أواخر عهد مملكة شينغ، فقد اقتبس أشعار تاو لتكون مثالاً على توضيح العلاقة بين مناظر الطبيعة وعواطف الشاعر. ويبرهن هذا الأمر الدورَ البارز الذي لعبه تاو في الأدب الصيني، والتعايش المتناغم لثقافة النسّاك، والقيَم الكونفوشيوسية السائدة.

لا يمتلك كل الأدباء الشجاعة الكافية ليكونوا نسّاكاً، كما أنه ليس من السهل على الموظف الحكومي التخلي عن وسائل الراحة الدنيوية من أجل الحصول على الحرية الروحية. وكانت هذه هي حال الشاعر وانغ وي الذي عاش في فترة سلالة تانغ. (الصور 2-34، 2-35، 2-36)

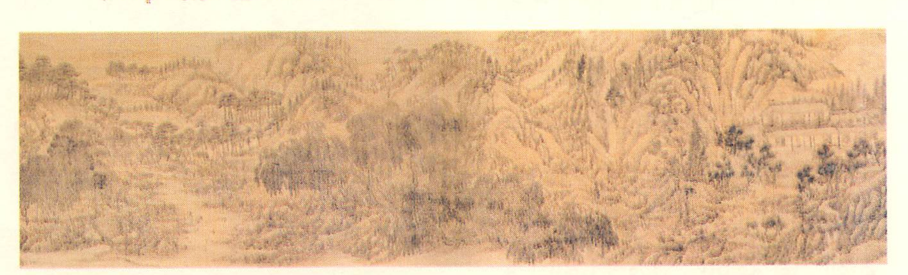
類箋唐王右丞詩集卷之一
唐 藍田 王 維
宋 盧陵 劉辰翁 評
明 勾吳 顧起經 註
五言古詩
四時
早春行
紫梅發初遍黃鳥歌猶澁誰家折楊女弄春如
不及愛水看糚坐羞人映花立香畏風吹散衣
奇字齋　王集卷一　吳應龍書

(إلى اليمين) الصورة 2-34 نسخة عن مجموعة قصائد وانغ وي التي جمعتها مكتبة غو تشي تسي في وو تسي خلال فترة جيا جينغ، مملكة مينغ

عمل وانغ وي ذات مرة بصفته يو تشينغ المستشار، ولهذا حمل أيضاً لقب وانغ يه تشينغ. لكن خلال ثورة آن لو شان أُجبر على العمل بصفته موظفاً رسمياً، غير أن وانغ وي رفض العمل، وتقاعد في منزل وانغ تشوان، وكرّس نفسه للشعر والرسم.

(في الأسفل) الصورة 2-35 لوحة دارة وانغ تشوان (جزء) بريشة سونغ شو، رسم بالألوان على لفافة حريرية، مجموعة متحف وو شي

كان المكان الذي اختاره وانغ وي لعزلته يدعى دارة وانغ تشوان، وكانت تقع أسفل سفح جبل تشونغ نان. كتب وانغ قصائد حول المناظر المحيطة بوانغ تشوان وكانت بعنوان قصائد وانغ تشوان. أسّس وانغ أيضاً حديقة بحسب القصائد، كما رسم لوحة وانغ تشوان، لكن اللوحة فُقدت مع الأسف. غير أنه يبقى باستطاعتنا أن نتخيل المنظر بحسب القصائد العشرين الموجودة في الكتاب.



雖與人境接
閉門成隱居
道言莊叟事
儒行魯人餘
深巷斜暉
靜閒門高柳
踈荷鋤修藥
圃散帙曝農
書上客搖芳
翰中廚饋野
蔬夫君第高
飲景晏出林
閭　濟州過趙叟家宴
薦季槿籬
故新作藥

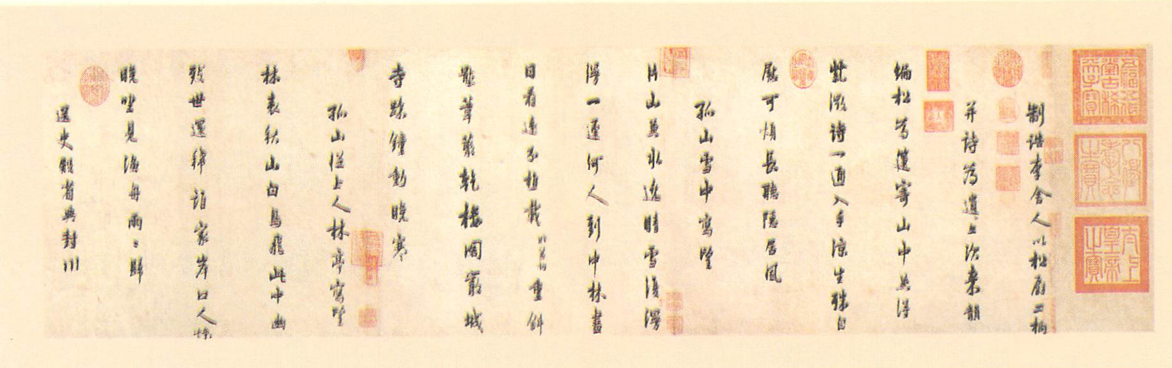
الصورة 2-36 النص الأصلي لقصائد وانغ وي (جزء) بريشة وانغ دو، مملكة تشينغ، كتابة على الورق، مجموعة متحف القصر

عنوان هذه القصيدة هو الذهاب إلى حفل عشاء تشاو الكبير في جي تشو. وتصف هذه القصيدة حياة الشاعر، وتتحدث عن كونفوشيوس والطاوية، والاستمتاع بالمناظر، والعمل بالزراعة، وتجفيف أوراق الكتب، والشرب، والطبخ وما شابه ذلك...

عاش أحد النساك، ويدعى لين بو (967- 1028)، في عهد مملكة سونغ الشمالية. وقد انتقل لين إلى جبل غو في هانغ تشو حيث عزل نفسه عن الحياة الدنيوية. قيل أيضاً إنه استمر في هذه الحياة الجبلية لفترة عشرين سنة (الصورة 2-37). في هذه الفترة، أعرب الإمبراطور ورئيس الوزراء وكبار الرهبان عن إعجابهم به، وأعطاه الإمبراطور الطعام، كما اعتاد على إرسال مبعوثه الخاص لزيارته في فتراتٍ منتظمة. لكنّ عدداً من الأشخاص حاولوا إقناعه بتحمّل أعباء منصبٍ رسمي، إلا أنه رفض العرض. يُضاف إلى ذلك أن لين بقي عازباً طوال حياته، كما اكتشف أنه يستمتع بالعيش مع نباتاته وحيواناته في الجبل. ولكن، بالرغم من الفرص العديدة التي سنحت له ليكون موظفاً حكومياً، إلا أنه تبع مشاعره وتابع حياته كما أرادها. كان لين شاعراً بارزاً،

الصورة 2-37 رسم لقصيدة لين بو، بريشة دونغ تشي تشانغ، مملكة مينغ، رسم ملوّن على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

يُعتبر شِعر لين بو كالشاعر بالضبط؛ فهو أصيل، وبسيط، وأنيق. أما هذه اللوحة فهي بريشة دونغ تشي تشانغ (1355-1636)، وهو فنان شهير عاش في عصر مملكة مينغ. ينقُل لنا هذا الرسم بريشة رفيعة صورةَ الجبال الشاهقة، والأشجار، كما يتناغم تماماً مع أسلوب لين بو.

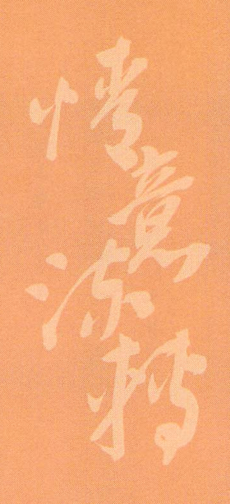


الصورة 2-38 النص الأصلي لقصائدي (جزء)، بريشة لين بو، مملكة سونغ، مجموعة متحف القصر

كان لين بو ماهراً في فن الخط. أما الصورة أعلاه فهي النموذج المتوافر عن الخط الطويل الذي يعتمده. يفوح أسلوب الكتابة هذا بالأصالة والفرح، وهو يُعتبر على الدوام مزيجاً ممتازاً من الشخصية وفن الخط

ورسّاماً، وخطاطاً (الصورة 2-38). وكان فنّه أصيلاً مثل شخصيته، أما القصائد التي كتبها فكانت راقيةً جداً، وعلى الأخص تلك التي كتبها عن مناظر أزهار الخوخ والبحيرة الغربية التي كانت مدهشةً وفي غاية الروعة.

يتألف العمل الأدبي الراقي من مزيجٍ مثالي من موهبة الكاتب ومزاجه. واعتبر الناس في الصين القديمة أن القصيدة انعكاس لعواطف الشاعر. يُضاف إلى ذلك أن السحر الفني والمشاعر الصادقة التي يحتويها الأدب تبقى من دون تغيير مهما مرّ الزمن وتغيّرت الأمكنة. لكن في هذه الأيام يجد الناس صعوبة في اتباع عواطفهم مع التوتر الموجود في الحياة التي يعيشونها، ومع تزايد تعقيداتها. ويُحتمَل أن يفسّر هذا الأمر بقاء النساك الحقيقيين من أمثال تاو يوان مينغ، ولين بو محط إعجاب عددٍ كبيرٍ من الناس حتى إلى هذه الأيام؛ كما يحصل الناس منهم على فهمٍ حقيقي للحرية والإدراك الروحيين.



الأدب الصيني

الفصل الثالث

مناظر طبيعية

أفضل الفصول عند الشعراء: الربيع والخريف

يهطل المطر في أنسب الأوقات،
يهطل المطر عند قدوم الربيع،
ويتسلّل في الليل مع الرياح،
ويبلّل كل شيء بصمت.
تنتشر الغيوم الداكنة فوق طرق البريّة،
ويلوح في الأفق مصباح مركب.
ينبلج الفجر على أنوار المدينة الحمراء
والمليئة بالأزهار

المطر البهيج في ليلة ربيعية، دو فو (الصورة 3-1)

أشار بعض الباحثين إلى أن مشاعر الحيوانات تتأثر بالطقس، أي أن الشتاء يؤثّر على الحيوانات فيجعلها تشعر بالكآبة. وتُدعى هذه الظاهرة الكآبة الموسمية، ويُحتمل أنها بسبب عوامل أشعة الشمس أو الجغرافيا. لم يعرف الشعراء أو الكتّاب الصينيون كيفية كتابة تقريرٍ طبي، ولكنهم أدركوا

الصورة 3-1 نص من قصائد دو فو، بريشة تشينغ شيه، مملكة تشينغ

كان تشينغ شيه (1693-1765)- الذي اتخذ اسماً فنياً هو بان شيا- ممثلاً لمجموعة يانغ تشو في الرسم، وهي التي اشتُهِرت في أوائل عهد مملكة تشينغ. اشتُهر تشينغ بقصائده، وبلوحات خطوطه، وكذلك برسومه. أما الصورة فهي عن النص الذي كتبه عن المطر البهيج في ليلة ربيعية، أما قصيدته الثانية فعن العزلة.





(في الأعلى) الصورة 3-2 أنباء الربيع، بريشة تشو فوليي الذي عاش في عهد مملكة يوان، لوحة بالحبر على ورق، مجموعة غاليري للفن الأميركي الحر

يعود الربيع وكل شيء يبدأ من جديد. تؤدي هذه البهجة إلى إبداع عدد لا يُحصى من الأعمال الفنية الجميلة. كان موضوع هذه اللوحة شجرةَ خوخ. لكن بالرغم من عدم وجود أكثر من لونين، أي الأبيض والأسود، إلا أن الربيع المليء بالحياة ما زال ظاهراً في هذه الشجرة المُزهرة.

(في الأسفل) الصورة 3-3 لوحة تشو شي، رسم العوالم الثلاثة بريشة وانغ تشي، مملكة مينغ

امتلك تشو شي تأثيراً كبيراً في الأزمنة القديمة. وقد كان كتابه شرح الكتب الأربعة من أهم الكتب بالنسبة إلى الطلاب الذين يحضّرون للامتحانات الإمبراطورية.



منذ وقتٍ طويل العلاقة الوثيقة بين البيئة الخارجية ومشاعر الناس.

يظهر تغيّر الفصول الأربعة بوضوح في التأثير على مشاعر الناس وعواطفهم خصوصاً. ويتمتع الشعراء والكتّاب بحساسية شديدة لهذه التغيّرات الخارجية، حيث يعكسونها في إبداعاتهم. ولكن الربيع والخريف هما الأكثر جاذبية بالنسبة إلى الشعراء.

يتميّز فصل الربيع بالحياة التي تظهر في الأزهار المتفتحة (الصورة 3-2). ويفسّر هذا سبب امتلاء عدد من الأعمال الأدبية المتعلقة بالربيع بالبهجة. وهكذا ترسم قصيدة المطر البهيج في ليلة ربيعية والتي اقتبسناها

في مطلع هذا الفصل صورةً مفرحة: المطر البهيج يبلّل كل شيء، ويجعل كل شيء نظيفاً جداً.

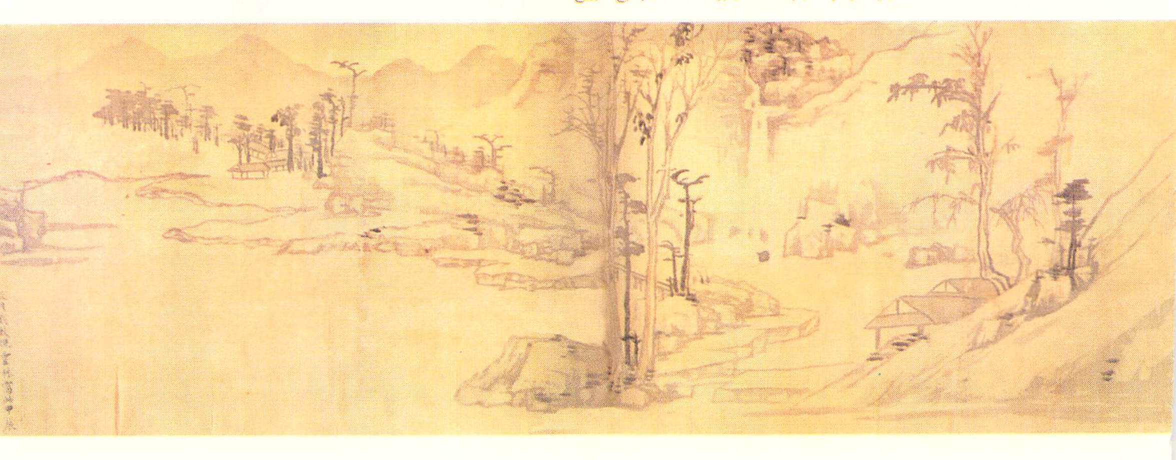
كان الربيع- وبوصفه فصلاً مفرحاً- موضوعاً مفضّلاً لعددٍ من الكتّاب بمن فيهم تشو شى (1130-1200) (الصورة 3-3)، وهو الذي كان مفكّراً وفيلسوفاً شهيراً في مملكة سونغ الجنوبية، كما رسم صورة جميلة للربيع في قصيدة يومٌ ربيعي:

استمتعتُ بالربيع على ضفة النهر في يوم جميل،
وامتدّ أمامي مشهد لا حدّ له من أشعة الّشمس الدافئة،
مَن لا يعرف الربيع برياحه الفصلية،
والربيع هو فصل الأزهار على الدوام.

يميل بعض الناس عند قراءتهم هذه القصيدة إلى تفسيرها على أنها نصّ فلسفي، وإلى محاولة استكشاف معنى أكثر شمولية. ويُحتمل أن تكون تلك هي الطريقة الصحيحة لشرح قصيدة ألّفها فيلسوف، لكن بإمكاننا اعتبارها مجرد قصيدة لوصف جمال الربيع. إننا نشعر عند قراءتها وكأننا نرى صورة جميلة في أذهاننا: كان الشاعر مأخوذاً بالكامل بالأزهار الملونة، وبالمشهد الطبيعي الجميل (الصورة 3-4). ويجعل الطقس الدافئ الذي

الصورة 3-4 الربيع في جيانغ نان (جزء)، بريشة تشينغ مينغ، مملكة مينغ، رسم بالحبر على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

يأتي الربيع فيرى الناس كل شيء جديداً بفضل المناظر البديعة. كيف لا يتأثر كاتب بهذه المناظر الساحرة؟ هل يشعر الإنسان بعد التأمل بهذه الأعمال بفرح الربيع؟





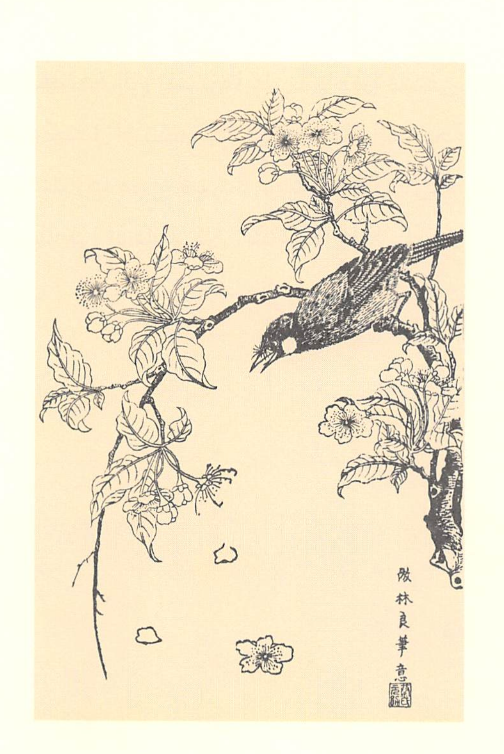
يأتي بعد الشتاء فصلَ الربيع فصلاً محبباً، وهو فصلٌ جذاب بالنسبة إلى كل المخلوقات الحيّة بما فيها النباتات. دعونا الآن نقوم باستعراض قصيدة قصيدة عفوية في مطلع الربيع، والتي ألّفها تشانغ شى (1133-1180):

يعود الدفء إلى سنة مليئة بالثلج والجليد،
فتشعر الأعشاب والأشجار بقدوم ربيع آخر.
أرى أمامي كل شيء نضِراً أخضر اللون،
وتتماوج المياه الخضراء هنا وهناك بفعل الريح.

تتمكن الكائنات من الشعور بقدوم الربيع؛ حتى الأشجار والأعشاب. ويمكننا القول في هذا المجال إن الناس يتشابهون مع الأشياء في ظروف معيّنة. ويروّج الأدب الصيني للمزج المتناسق بين البيئة الخارجية والمشاعر الداخلية. وكل ذلك يُسهّل علينا فهم حقيقة أن عدداً من الشعراء الصينيين قد عبّروا عن مشاعرهم من خلال وصفهم المناظر الطبيعية.

يظهر هذا الأمر في قصيدة الرسو في غوا تشو التي كتبها وانغ آن شي (1021-1086)، وهو سياسي ومفكّر وشاعر بارز عاش في مملكة سونغ الشمالية. وقد كتب الشاعر هذه القصيدة في طريق عودته إلى بلدته تشونغ شان، وذلك بعد إعفائه من منصبه كرئيسٍ للوزراء.

وراء النهر تقع جينغ كو. وسلسلة جبال



الصورة 3-5 نقش على الخشب يمثّل فجراً ربيعياً. رسوم تانغ الشعرية بريشة هوانغ فينغ تشي، مملكة مينغ

فجر ربيعي. كتب مينغ هاوران عن الطيور المغردة والأزهار المتساقطة في كل مكان، والتي وضعها الشاعر بين أبياته الأربعة؛ وذلك للتشديد على حيوية الربيع. وقد تحولت هذه اللوحة منذ ذلك الوقت إلى لوحة معتمدة في كل منزل.

تفصلها عن تشونغ شان.
ها هي نسائم الربيع توقظ النباتات الخضراء في الضفة الجنوبية،
متى سيقودني القمر الساطع في طريقي إلى بلدتي؟

لا تكشف هذه القصيدة عن أي شكوى، أو حقدٍ بعد عزل الشاعر من منصبه الرسمي. وقد عبّر الشاعر بدلاً من ذلك عن سعادته بالعودة إلى بلدته عبر الأراضي الجميلة التي جعلها الربيع خضراء.

لا يرمز الربيع عند الشعراء الرومانسيين إلى السعادة فقط، بل إلى الحزن كذلك. وتُعتبر قصيدة فجرٌ ربيعي التي كتبها مينغ هاو ران نموذجاً لما نقوله.

نمتُ حتى مطلع الفجر في هذا اليوم الربيعي الهادئ،
واستيقظتُ عندما صدحت الطيور هنا وهناك.
سمعتُ في الليلة الماضية زئير عاصفة الريح والمطر،
كم من الأزهار ستسقط مجدداً؟

وصف الشاعر في السطرين الأولين من هذه القصيدة الاسترخاء والجمال اللذين يترافقان مع الربيع، بينما عبّر في السطرين الأخيرين عن حزنه لدى رؤيته منظر الأزهار المتساقطة خلال العاصفة الليلية (الصورة 3-5). ويستطيع القراء العثور على شبهٍ بين المنظر الطبيعي والحياة الحقيقية. إذ يُمكن لحياة إنسانٍ أن تتغيّر كلياً بسبب حادثٍ غير متوقعٍ؛ مثلما تذبل الأزهار الجميلة نتيجة أمطار الربيع الغزيرة (الصورة 3-6). ويمكننا ملاحظة حزنٍ ربيعي مماثل في قصيدةٍ بعنوان جولة هادئة في نهر تشو جيانغ في أواخر فصل الربيع، وهي قصيدة كتبها لي شانغ ين:

التقيتُكِ عندما بدأت أوراق اللوتس بالنمو،
لكننا اضطررنا إلى الافتراق عند اصفرار أوراق اللوتس.
حبي لكِ سوف يرافقني طيلة حياتي،
وأقف الآن حزيناً وناظراً إلى نفسي في النهر.

يُحتمل أن الشاعر قد أمضى فصل ربيعٍ واحداً فقط مع حبيبته؛ وهو الأمر الذي





الصورة 3-6 لوحة الزهرة المتساقطة الشعرية (جزء)، بريشة شن تشو، مملكة مينغ، لوحة ملونة مرسومة على الورق، مجموعة متحف نانجينغ

الأزهار المتفتحة والمتساقطة تُعتبر مناظر عادية ومألوفة للجميع. ولكنها كافية بنظر الكتّاب للتأثير على أمزجتهم. وقد قال وو ذات مرة عن إدخال تنّين في جوهر الأدب: «يُمكن لورقة أن تؤثر على مزاجك، كما أن صوت حشرة يُعتبر كافياً لتغيير مشاعرك».

جعله حزيناً جداً. لكنّ منظر اللوتس ذكّره بالفراق مجدداً (الصورة 3-7). عجز الشاعر عن الشعور بالسعادة ضمن ظروفٍ كهذه؛ حتى إذا كان ما يراه منظراً ربيعياً جميلاً.

اعتبر الشعراء أنّ فصل الربيع- وعلى مدى تاريخ الأدب الصيني- فصل المسرّات أو الأحزان. لكنّ فصل الخريف مع ذلك مساوٍ للحزن. كان سونغ يو (نحو 298- 222 ق.م) شاعراً شهيراً في فترة الدول المتحاربة. وقد عبّر الشاعر في قصيدته الغنائية جيو بيان عن مشاعر وعواطف قوية تجاه الخريف. لم يكن سونغ الشاعر الوحيد الذي عبّر عن حزنه العميق من خلال وصف فصل الخريف.

عبّر دو فو عن يأسه لكونه مسافراً وحيداً، وذلك في قصيدته التي كانت بعنوان تسلّق المرتفعات. أما مشهد «حفيف الأوراق المتساقطة من الأشجار»(الصورة 3-8) فقد ذكّره بأنه وقع «فريسة المرض طيلة حياتي، وصعدت المرتفعات وحدي».

كان لي يو (937- 978) (الصورة 3-9) ماهراً أيضاً في كتابة القصائد العاطفية التي تعبّر عن إشفاقه على ذاته وكآبته لأنه إمبراطور معتقل. وقد ربطَ الشاعر في إحدى قصائده بين القمر والأشجار العادية التي رآها في تلك الليلة الخريفية، وفعل ذلك بكل «الأسى الذي يترافق مع الفراق الذي طال».

أما ما تشي يوان (1250- 1321) الذي كان مسرحياً ومؤلفاً معروفاً في عهد مملكة يوان، فقد عبّر في القصيدة التي كانت بعنوان أفكار خريفية وفي لحن تيان جينغ شا عن إحساسه بالوحدة بوصفه «مسافراً مكسور الخاطر»، وذلك من خلال وصفه منظراً خريفياً كئيباً مؤلفاً من «عرائش العنب الذابلة، والأشجار القديمة، والغربان في وقت الغسق، وجسراً ضيّقاً، وبعض الأكواخ».

أما أو يانغ شيو (1007- 1072) (الصورة 3-10)، فقد كان مؤرخاً شهيراً في مملكة سونغ الشمالية، كما كتب أغنية إلى أصوات الخريف. وقد وصف الشاعر في هذه القصيدة الغنائية- وبكل حيوية- الأوراق المتساقطة في الخريف. وقارن الشاعر حفيف الأوراق المتساقطة مع أصوات الأمواج المتلاطمة بعنف، وأصوات العواصف، وأصوات الأسلحة



الصورة 3-7 لوحة اللوتس بريشة لياو مينغ، مملكة مينغ، لوحة مرسومة بالحبر على الورق، مجموعة متحف العاصمة

تكوّن نبتة اللوتس براعم في الربيع، وتزهر في الصيف، وتتحول إلى اللون الأصفر في الخريف. وتتناغم نسبة نمو هذه النبتة مع الفصول، وهكذا يذكّرنا كل نوعٍ من هذه التحولات بالزمن الذي يمر.



الصورة 3-8 عشرة آلاف من نهر يانغ تسي (جزء)، بريشة وو ماي، مملكة مينغ، لوحة مرسومة بالحبر على لفافة من الحرير، مجموعة متحف القصر

يتميز نهر يانغ تسي بالضخامة والمهابة. ولكن إذا تأمل المرء نهر يانغ تسي في الربيع ورأى الأوراق العديدة المتساقطة باستمرار على صفحة مياه النهر المتدفقة، فإن الأسى هو أول ما يتبادر إلى الذهن.

المتلاطمة، والجنود الزاحفين إلى ميادين المعارك. وذكّرت هذه الأصوات الشاعر بالمنظر الكئيب في فصل الخريف.

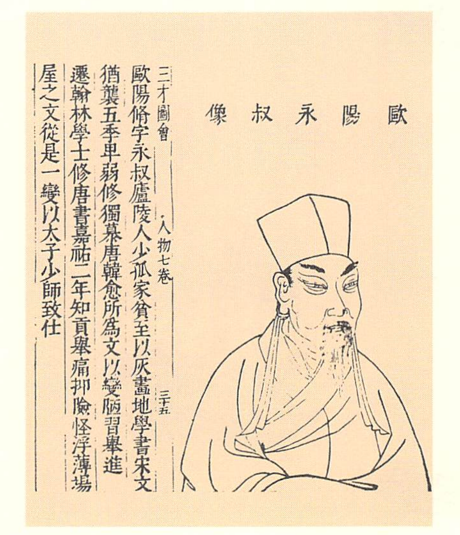
لا تتمكن الأشجار ولا الأعشاب من مقاومة الضرر الكبير والقاسي الذي يسبّبه تعاقب الفصول، دعك عن الدمار الذي يسبّبه الإنسان. البشر ليسوا أقوياء مثل المعادن أو الصخور، ولهذا يُنهكون في النهاية بسبب الأعوام التي قضوها في العمل المجهد والقلق.

كتب أو يانغ هذه القصيدة الغنائية عندما كان في الثالثة والخمسين من عمره، وعندما كانت البلاد في حالة تراجع، وفي وقتٍ عجز الكاتب فيه عن استغلال مواهبه السياسية بالكامل. لكن، يسهل علينا عند قراءة هذه القصيدة أن نتخيّل مدى كآبة الشاعر في ذلك الوقت. تُعتبر هذه القصيدة نموذجاً كاملاً عن جمع البيئة الطبيعية الخارجية



الصورة 3-9 لوحة لي يو، طبعة مينغ للوحات القدماء في التاريخ

كان لي يو إمبراطوراً ذات يوم، ولكنه سُجِن بعد التغلّب عليه. لم يكن من الصعب أن يتخيّل المرء مدى الكآبة التي شعر بها. ويقول المثل «تتولّد عبقرية الشعر مع المصاعب»، وهكذا نرى أن أفضل أشعار لي يو قد كُتبت في فترة ما بعد إخضاعه وسجنه.



الصورة 3-10 رسم يمثّل أو يانغ شيو، رسوم العوالم الثلاثة بريشة وانغ تشي، مملكة مينغ

كان أو يانغ شيو موظفاً رسمياً شهيراً خلال حكم مملكة سونغ، كما وضع أسس حركة النثر القديم. دعا شيو إلى ضرورة إظهار المبادئ في المقالات، كما ركّز على ضرورة أن تحتوي المقالة على قيمةٍ عملية، كما عكست إبداعاته هذه المقترحات.



الصورة 3-11 نقش على الخشب يمثّل جبل لو، من لوحات الجبال الشهيرة بريشة شين شي لينغ، مملكة تشين

كانت الجبال العالية والتلال الشامخة أماكن مفضلة عند الشعراء للكتابة عنها. أما تسلّق الجبال، وزيارة المعابد الطاوية، أو التأمل في جرفٍ صخريٍّ شديد الانحدار فبإمكان كل ذلك الإسهام في إبداع عددٍ لا يحصى من المواضيع الرائعة والأعمال الأدبية الخالدة.

مع الواقع الاجتماعي، ولهذا ليس أمراً عجيباً أن تتحوّل هذه القصيدة إلى رائعةٍ أدبية.

كان ليو شيو ناقداً أدبياً شهيراً أثناء عهدَي المملكتين الجنوبية والشمالية. قدّم ليو في كتابه إدخال التنين في جوهر الأدب وصفاً مستفيضاً عن العلاقة بين المناظر الطبيعية والإبداع الأدبي. واعتبر ليو في هذا الكتاب أن الكاتب الذي يُضمر شعوراً مخلصاً تجاه الطبيعة يتمكّن من الحصول على إلهاماتٍ عديدة (الصورة 3-11). يمكننا- بصفتنا بشراً- أن نعيش في تناسق تام مع الطبيعة، وهي صديقتنا المخلصة في كامل مراحل حياتنا. (الصورة 3-12)



الصورة 3-12 نقش على الخشب يمثّل جبل جينغ تينغ، من مجموعة لوحات الجبال الشهيرة بريشة شين شي لينغ، مملكة تشينغ

يعتبر الكتّاب أن المناظر الطبيعية تصلح لكي تكون صديقة لهم. وعلى سبيل المثال، تسلّق لي باي جبل جينغ تينغ سبع مرات. أما قصيدته التي اختار لها عنوان الجلوس وحيداً فوق قمة جينغ تينغ فقد تخيّل فيها أن الجبل كان صديقه الذي يجالسه بكل سرور وبراحة تامة:

تحلّق الطيور بعيداً،
تاركةً الغيوم سابحةً بكل حرية.
نظر واحدنا إلى الآخر من دون ملل،
كنا وحدنا أنا وجبل جينغ تينغ.



| القمر: موضوع الشعراء الخالد

متى يطلع القمر صافياً وساطعاً؟
سألتُ السماء الزرقاء حاملاً بيدي كأس الشراب.
لا أعرف الفصل السائد في السماء هذه الليلة.
لكنني أرغب في ركوب الريح والطيران إلى بلدي،
وأخشى أن تكون قصور الكريستال والجاد عالية وباردة.
متراقصةً مع ظلّي الذي ينيره ضوء القمر،
لا يبدو لي مثل عالم البشر.

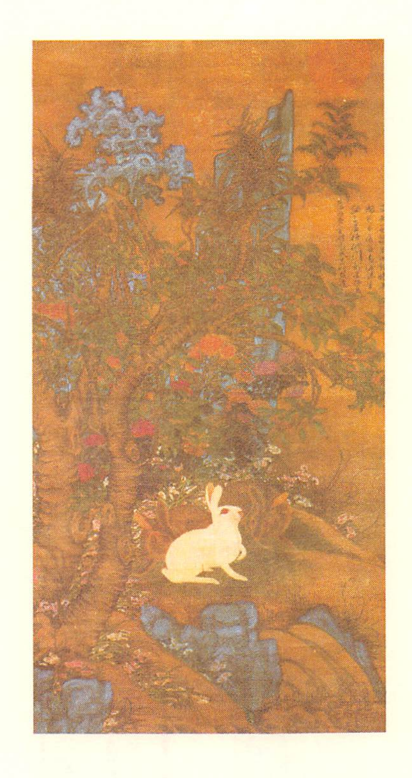
يدور القمر في القصر الأحمر،
وينحدر نحو الأبواب المجلّلة بالحرير،
مشعاً على المؤرقّين،
من دون ملامة.
لماذا يبدو البدر كاملاً عند افتراق الناس؟
يشعر الناس بالأسى، أو بالحبور، قريبين من بعضهم أو متباعدين.
يكون القمر خافتاً أو ساطعاً، متأرجحاً في حجمه.
هكذا كان الحال منذ بدء الزمان،
وأتمنى أن ينعم الله علينا بطول العمر.
ورغم البُعد، إننا نتشارك معاً جمال القمر.

أفكّر فيك، مقدمة لحن المياه، تأليف سو شي

تناقلت الأجيال في الصين قصةً أسطورية عن القمر. فقد ابتلعت تشانغ التي عُرفت لاحقاً بأنها سيدة القمر المقدسة حبةَ الخلود، وطارت إلى القمر. عاشت تشانغ في قصر القمر البارد مع أرنبٍ وحطّاب يدعى وو غانغ، وكانا رفيقيها الوحيدين. شعرت تشانغ بالوحدة، وأرادت العودة إلى الأرض، ولهذا قررت تحضير خلطةٍ سرية مؤلفة من أوراق الغار وأزهاره. ولهذا السبب، استمر وو غانغ بقطع شجرة الغار، كما أن الأرنب لم يتوقف عن قضم الأغصان والأزهار (الصورة 3-13). اعتادت معظم الأُسر الصينية على

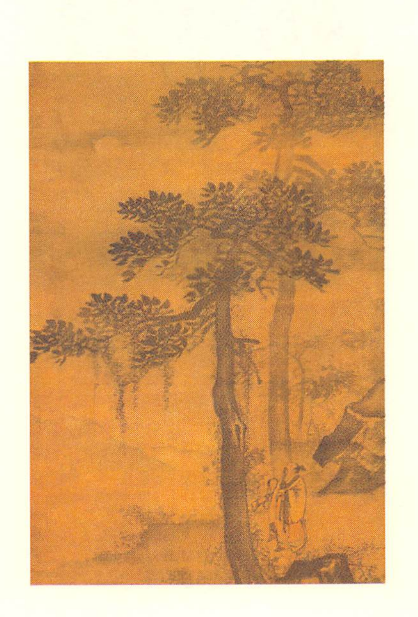
سرد هذه القصة لأولادها في ليلة الاحتفال بمهرجان منتصف الخريف. وتُعتبر هذه القصة من أكثر القصص شعبية عن القمر.

يركّز الصينيون على موضوع جمع شمل الأسرة أكثر من تأمّلهم القمر ذاته، لكن الشعراء الصينيين فضّلوا الكتابة عن القمر بسبب رمزيته الخاصة بدلاً من الكتابة عن جماله. (الصورة 3-14)



يعرف معظم الصينيين القصيدة التي كتبها لي باي بعنوان في ليلةٍ هادئة:

رأيتُ نور القمر منعكساً أمام أريكتي،
وتساءلتُ عمّا إذا كان الجليد الذي يكسو الأرض هو ما أراه
رفعتُ رأسي متطلعاً نحو القمر،
أحنيتُ رأسي وفكّرتُ في بلدي البعيد.



عادة، يربط الصينيون بين القمر وبلدهم الذي وُلدوا فيه، وهم يعتقدون أن القمر الذي

(في الأعلى) الصورة 3-13 أرنب في القمر بريشة تاو تشينغ، مملكة مينغ، لوحة ملونة مرسومة على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

هناك أساطير عديدة عن القمر، وأشهرها قصة تشان جي. لكن بالنسبة إلى مصدر اللون الأخضر فتتواجد عدة تفسيرات، ومنها الهالة الرمزية التي تمثّل هو يي أو تشانغ جي، وهي ابنة روح الأرنب، كما أنها بعمر آلاف السنين، أو يُمكن أن تكون شبح أكبر أولاد جي تشانغ.

(في الأسفل) 3-14 لوحة مشاهدة القمر (جزء) بريشة تشانغ لو، مملكة مينغ، لوحة مرسومة بالحبر على لفافة حريرية، مجموعة متحف جينان

يُعتبر القمر في الصين رمزاً ثقافياً يمثّل الحنين إلى الوطن. وأنت، هل تفكّر بعدَ صعودك إلى الجبل وتأمّلك القمر بأقاربك البعيدين عنك؟



الصورة 3-15 سو دونغ بو، بريشة تشاو مينغ فو في مملكة يوان، رسم بالحبر على الورق، مجموعة متحف القصر

اعتاد سو شي الذي كان يسمّى هو تسي تشان وكان يلقّب نفسه دونغ بو على المشاركة في مسابقات الحفلات القديمة والجديدة، وقد شهد تراجعات وقفزات كثيرة في حياته، ولكنه لم يشغل أي منصبٍ رسمي. كان عبقرياً في تاريخ الأدب الصيني، كما قدّم إسهاماتٍ عظيمة في الشعر والنثر والخط والرسم. ويمكننا أيضاً ملاحظة مزاجه الجريء وانفتاحه في جميع أعماله.

يظهر في ليلة منتصف الخريف يكون كامل الاستدارة وشديد السطوع؛ وهو الأمر الذي يرمز إلى الأسرة التي اجتمع شملها. ويفسّر هذا الأمر سبب إقدام عددٍ كبير من الشعراء على الكتابة عن القمر للتعبير عن حنينهم إلى موطنهم.

حين يرى المسافر الذي يرتحل وحده القمر في الليل يتذكّر فوراً بلده وأسرته البعيدين عنه. يمكننا أن نلاحظ هنا بعض المشاعر ذاتها من أبيات قليلة موجودة في قصيدة التفكير في أشقائي في ليلةٍ مقمرة، وهي القصيدة التي ألّفها دو فو:

تتحوّل قطرات الندى إلى جليد،
لكنني أشعر بأن ضوء القمر ليس ساطعاً
كما كان في بلدي الذي ولدتُ فيه.
والآن تفرّق أشقائي
وليس بإمكاني أن أعرف
إذا كانوا أحياءً أو أمواتاً.

لكن الواقع هو أن القمر يبقى كما هو أينما كنا، والشاعر اعتبر أن القمر أشد سطوعاً في بلده، وذلك لأنه يشتاق إلى أشقائه في تلك الليلة المميزة.

أما سو شي (الصورة 3-15) فقد عبّر في القصيدة التي اقتبسناها في بداية هذا القسم، بالإضافة إلى حزنه، عن اشتياقه إلى شقيقه الأصغر سو تشي (1039- 1112). أدرك الشاعر أن مواطنيه تعوّدوا على الربح والخسارة،



الصورة 3-16 مقدمة للحن المياه نقشٌ على الخشب، رسوم القصيدة، من تنقيح السيّد وانغ، مملكة مينغ

لم تتواجد في الأزمنة القديمة الحواسيب أو الهواتف، وهكذا كان أفراد الأسرة الواحدة والأصدقاء يجدون صعوبة في الالتقاء والتواصل مع بعضهم بعضاً. وبسبب هذه التجربة المشتركة، إن جملة مقدمة للحن المياه التي كتبها سو شي تتناغم مع:

«كان هذا يجري منذ بداية الزمن.

لننعمَ بطول العمر.

بالرغم من تباعدنا، لا نزال قادرين على التشارك معاً بجمال القمر».

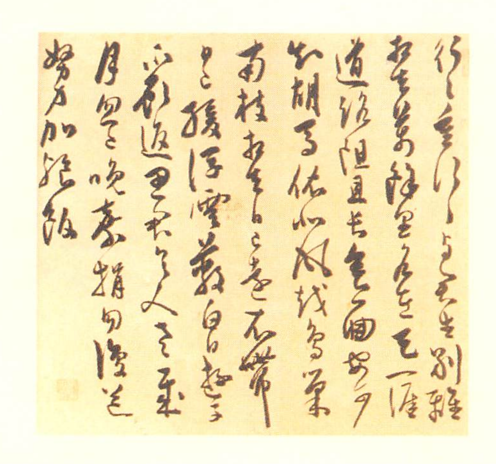
والاجتماع والفراق، ولذلك كان كل ما يتوق إليه هو أن يشارك شقيقه في التأمل بالقمر ذاته. (الصورة 3-16)

استخدم الشعراء القمر أيضاً للتعبير عن مشاعر النساء اللواتي لا يستطعن رؤية أزواجهن. فقد اعتاد الشبان في الصين القديمة على مغادرة منازلهم للخدمة في صفوف الجيش. وهكذا، كان من الطبيعي جداً بالنسبة للزوجات المكوث بمفردهن في منازلهن لسنواتٍ عدة. ونتيجة لذلك، ظهرت قصائد عدة للتعبير عن الوحدة التي تشعر بها الزوجات. وتُعبّر هذه القصيدة القديمة التي تحمل عنوان القمر الساطع الساطع (الصورة 3-17)، والقصائد التي كتبها تساو تشي، وتشانغ جيو لينغ (678- 740) (الصورة 3-18) وشن تشوان تشي (نحو 656-714) عن الوحدة.



عثر الشعراء الصينيون في القمر ليس فقط على الرمز العاطفي، ولكنهم وجدوا فيه أيضاً أفكاراً فلسفية. ويمكننا ملاحظة هذا الأمر في قصيدة لي باي وهي بعنوان سؤال إلى القمر:

لا يرى رجال زماننا القمر كما كان في القِدم،
لكن هذا القمر أرسل شعاعه إلى كل الناس في الماضي.
يموت الناس ويتلاشون مثل الماء، الآن كما في الماضي،
والجميع يرون القمر الذي يبقى إلى الأبد.



الصورة 3-17 تسع عشرة قصيدة قديمة بأسلوب الخط المنحني (جزء)، بريشة تشن دافو، مملكة مينغ، كتابة على ورق الكستناء، مجموعة متحف القصر

تتضمن تسع عشرة قصيدة قديمة عدداً كبيراً من القصائد التي تدور حول المسافرين والنساء الحزينات. وتُعتبر قصيدة القمر الساطع الساطع، وخطوط فوق خطوط من بين تلك القصائد. يشعر راويا هاتين القصيدتين بالكآبة الشديدة. إذ يقلق أحدهما لأن سريره خالٍ تحت ضوء القمر، بينما يشعر الآخر بأنه كسير القلب عندما يرى الطيور ويسمع رفرفة أجنحتها.

張子壽像

三才圖會 人物六卷

張九齡字子壽韶州曲江人七歲知屬文後擢進士調校書郎以道侔伊呂科策高第爲左拾遺數上疏言事遷左補闕累官同平章事以爭牛仙客功賞遂罷政九齡雖忤帝旨然每用人必曰風度得如九齡不張守珪使安祿山討奚契丹兵敗守珪奏請斬之九齡批曰守珪軍令若行祿山不宜免死玄宗宥之千秋節羣臣皆獻寶鏡九齡著千秋金鑑録述前世興廢上欲相李林甫九齡言恐爲社稷之憂上卒相林甫而罷九齡祿山反上思九齡之言遣使曲江祭之厚恤其家

الصورة 3-18 رسم تشانغ جيو لينغ، رسوم العوالم الثلاثة بريشة وانغ تشي، مملكة مينغ

وُلد تشانغ جيو لينغ الذي يحمل اسم التحبّب تسي شو في تشو جيانغ، ولهذا أطلق عليه الناس اسم «تشانغ تشو جيانغ». وبالإضافة إلى كتابة الشعر، اشتُهر تشانغ جيو لينغ بأنه رئيس وزراء بارز في مملكة تانغ. وأشار تشانغ إلى أن آن لو شان بدا وكأنه خائن لأنه حجب الثورة التي كانت قيد التحضير.



الصورة 3-19 نقش على الخشب بعنوان القمر فوق جبل إيماي، رسوم تانغ الشعرية بريشة هوانغ فينغ شي، مملكة مينغ

أحبّ لي باي الكتابة عن القمر في قصائده. وتبدأ قصيدة القمر فوق جبل إيماي بوصف القمر فوق الجبل، وبوصف انعكاس ضوء القمر على صفحة النهر. كان الحنين لأصدقائه مثل المياه، فهو متسارعٌ ولكنه خالد.

يولد الناس ويموتون، لكن القمر يبقى إلى الأبد، وهذا ما تورده القصيدة. لا يعيش الناس على هذه الأرض سوى لفترة قصيرة جداً بالمقارنة مع القمر. يا لهذه الفكرة العميقة! (الصورة 3-19) يمكننا ملاحظة هذه الفكرة الفلسفية في قصيدة القمر فوق النهر في ليلة ربيعية التي ألّفها تشانغ رو شو (نحو 660- 720):

أيها القاطنون على ضفة النهر

مَن رأى القمر أولاً؟

ومتى رأى القمر أول رجلٍ على ضفة النهر؟

مرت أجيالٌ وأجيالٌ وتلاشت،

وبقي القمر على حاله، قديمه وجديده.



لكن، لا نعرف على مَن سيرسل القمر أشعته هذه الليلة،
لكننا نسمع النهر يودّع مياهه.

كان جيانغ كوي شاعراً ومؤلفاً بارزاً في مملكة سونغ الجنوبية، وقد عبّر بدوره عن عواطفه الوجدانية في أشعاره. تعرضّت مدينة يانغ تشو للدمار على يد الغزاة الأجانب، لكن القمر في سماء تلك الليلة المظلمة بقي خالداً وشاهداً على التغييرات الاجتماعية المأساوية، وكأنه ليس سوى شاهدٍ بارد الأعصاب وغير مكترث بما يجري أمامه. (الصورة 3-20)

إننا نعرف بطبيعة الحال- ولكوننا متمدنين- أنه من الطبيعي أن يكون القمر كاملاً في بعض الأحيان، وغير كاملٍ في أحيانٍ أخرى. لكن الشعراء يقدّمون لنا منظوراً جديداً لشرح ظواهر القمر؛ مستعينين بخيالهم الخصب. وهكذا، نجد أنه بإمكاننا أن نشعر بالوحدة بطريقة جديدة. ولكن، عندما نشعر بالوحدة يمكننا أن ننظر إلى الأعلى، ونعتبر القمر صديقاً مقرباً لنا، وبإمكاننا التحدّث معه. هذا هو بالضبط ما تحدث عنه الشاعر العظيم لي باي في قصيدته أشرب وحيداً تحت ضوء القمر:

أحمل كأس الشراب تحت الأشجار المزهرة؛
أشرب وحدي، ولا أجد صديقاً قربي.
أرفع كأسي للقمر الساطع فوقي،
وهكذا نشكّل معاً هو وظلّي ثلاثة رجال،
آه، ليت القمر يشاركني الشراب.
ببطءٍ يزحف ظلّي بجانبي.
يجب عليّ العثور على السعادة
قبل نهاية الربيع؛
القمر صديقي، وظلّي عبدي.
تتراقص أشعة القمر مع الأغاني التي أغنّيها،
أتلاقى مع ظلّي في رقصتي وأتباعد عنه.
تشاركنا المرح نحن الثلاثة قبل أن نثمل؛
لكن كل واحد منا اختار طريقه بعد ثمالتنا.
أتمنى لو يطول تشاركنا في هذا الاحتفال الجامد،
وأن نلتقي أخيراً في نهر السماء الملبّد بالغيوم.



الصورة 3-20 حمائم تحت القمر الحزين، بريشة يون شو بينغ، مملكة تشينغ، رسم بالألوان الشاحبة على الورق، مجموعة متحف قصر شن يانغ

تجمّعت مجموعة من الحمائم في ليلةٍ ضبابية، وكان بالإمكان رؤية ضوء القمر من خلال فجوات أغصان الصنوبر. ما الذي يستطيع الإنسان التفكير فيه في هذا الجو الأثيري؟ أما الجملة الأخيرة من هذه القصيدة فقد كتبها الرسام يون شو بينغ:

«في هذا الربيع البارد،
تجفل الطيور وتطير،
بينما تتردد أصداء الجرس في أنحاء الغابة».

تكسر أجراس المعبد صمت الأجواء الأثيرية المتناغمة.



| المياه: لا يتمكن السيف من تمزيق نهرٍ جارٍ

متى يختفي القمر وتختفي أزهار الربيع،
وأنا الذي عشتُ ساعاتٍ كثيرة لا تُنسى؟
وعليّتي التي صمدت الليلة الماضية
بوجه رياح الربيع، ذكّرتني
بالأرض المفقودة التي أضاءها القمر.

بقيت من دون شك الأسيجة المحفورة
والدرج الرخامي،
لكن الوجوه الزهرية فقدت رونقها.
إذا سألتني كم ازداد حزني،
فانظُر إلى النهر الهادر نحو الشرق!

السيّدة الجميلة يو، تأليف لي يو

قال كونفوشيوس ذات مرة: «الوقت يشبه النهر الذي يجري في النهار والليل». وقد ربط ذلك المفكّر العظيم بين ظاهرةٍ طبيعية وأفكاره السياسية التي لم تتحقق. ولاحظ كونفوشيوس أيضاً الشبه القائم بين المياه والحكمة. إذ رأى كونفوشيوس أن المياه الجارية ترمز إلى ميزات الرجال الحكماء، ولهذا قال: «يحبّ الحكماء المياه محبةً خاصة».

أما لاو تسي، وهو المفكر والفيلسوف البارز في فترة الربيع والخريف، فقد قال ذات مرة: «أفضل الأشخاص يشبهون المياه» (الصورة 3-21). وهكذا تتغيّر المياه- وفقاً لفلسفته هذه- بحسب البيئة الخارجية، وتعيش في تناغمٍ تام مع كل الأشياء الموجودة في الطبيعية. تُعتبر المياه بهذا المعنى الأكثر قرباً إلى الطاو (أصل الكون بحسب داو دي). (الصورة 3-22)

فضّل جميع الفلاسفة الصينيين القدماء تقريباً التحدّث عن المياه، أي مثلما فعل كونفوشيوس ولاو تسي. ولكن، من السهل علينا أن نفهم سبب فعلهم ذلك عندما نلاحظ



الصورة 3-21 نقش خشبي يمثّل لاو تسي، تاريخ النقوش الخشبية الصينية

لاو تسي، واسمه لي إر، مفكّر شهير في الصين في فترة الربيع والخريف. يُعتبر لاو تسي أيضاً سيّد الأخلاق الموقّر، وأب الطاوية. أما كتابه الذي أُطلِق عليه اسم داو دي جينغ فيفسّر مفهوم اللا- فعل الطبيعي، وذلك في تناقضٍ تام مع القيَم الأخلاقية والمفاهيم السياسية التي تدعو إليها الكونفوشيوسية.

上善若水水善利萬物而不爭處衆人之所
惡故幾於道居善地心善淵與善人言善信
政善治事善能動善時夫惟不爭故無尤矣

الصورة 3-22 نص بالحرف الصغير عن داو دي جينغ (جزء)، بريشة تشاو مينغ فو في مملكة يوان، كتابة على الورق، مجموعة متحف القصر

يُعتبر الماء واحداً من الأشياء التي يراها الناس ويشعرون بها في حياتهم اليومية. ويُحتمل أن ذلك هو السبب الذي يجعل المفكرين يميلون إلى استخدامه لتصوير الواقع. تتشابه آراء لاو تسي وكونفوشيوس حول المياه، ولكنها مختلفة قليلاً في المضمون. فقد لاحظ المفكران السمة المتغيّرة للمياه، ولكن لاو تسي يرى الخير «الذي لا جدال فيه»، بينما كونفوشيوس يرى فيه «البدائل الحكيمة».

أن المياه هي المادة التي نشاهدها في كل مكان في حياتنا، وهي متغيّرة في الطبيعة؛ الأمر الذي يجعل المياه خياراً نموذجياً بالنسبة إلى الفلاسفة لإيصال أفكارهم. ولكن بعض الناس لا يرون في المياه إلا مادةً مؤلفةً من الهيدروجين والأوكسجين، ولهذا لا يمكنهم أن يفهموا السبب الذي يجعلها ترمز إلى أشياء عديدة. ويميل الشعب الصيني إلى وضع أفكاره وعواطفه في ملاحظاته أو توصيفاته للبيئة الخارجية. ويفسّر ذلك

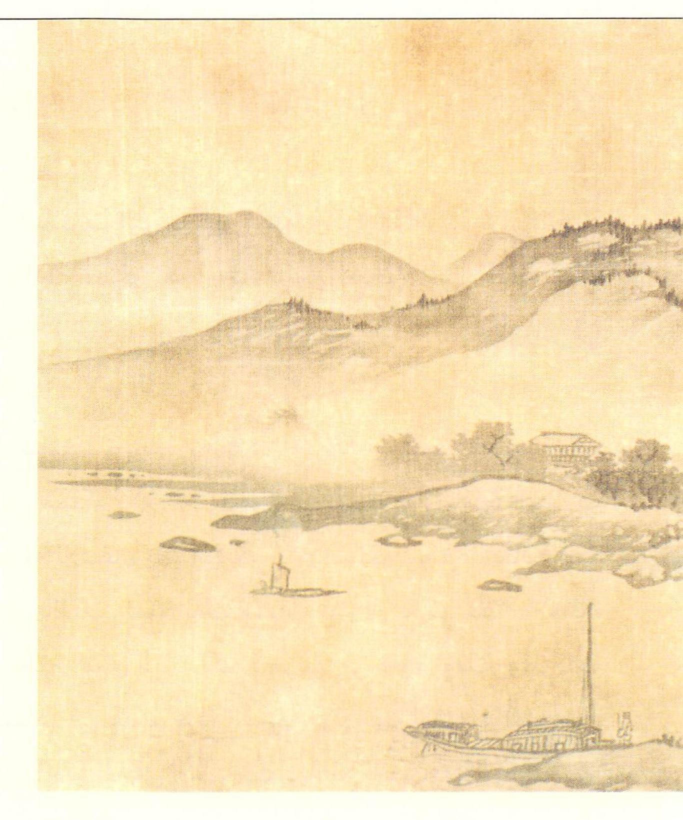


سبب كون المياه موضوعاً متكرراً في عددٍ من الأعمال الأدبية الصينية. ولم يكتفِ الشعراء في تلك الإبداعات الأدبية بوصف شكل الماء وخصائصه، وإنما عمدوا أيضاً إلى استخدامه للتعبير عن أفكارهم أو مشاعرهم. وكانت الأشكال المائية المختلفة مثل الأنهار والجداول، والشلالات، موضوعاتٍ مفضلّة عند الشعراء الصينيين القدماء. (الصورة 3-23)

كتب لي باي قصائد عديدة حول الماء، وتُعتبر قصيدة إلى وانغ لون واحدة منها.

أنا على متن المركب ونحن على وشك الإبحار،
الضجيج والغناء يملآن الأجواء على الشاطئ،
عمق بركة أزهار الخوخ يبلغ ألفاً من الأقدام،
لكنها ليست بمثل عمق صداقة وانغ لون.

إذا أردنا الحصول على تفهّم أكبر لهذه القصيدة، فنحن بحاجة إلى معرفة المزيد عن خلفيتها. كان وانغ لون يعتني عنايةً كبيرة بصديقه لي باي، وكان يقدّم له الشراب



الصورة 3-23 وداع في جيانغ تشي. لوحة من دون توقيع في عهد مملكة مينغ، رسم بالحبر على لفافة حريرية، مجموعة متحف هواي آن

يُعتبر الوداع على مرفأ في ضفة النهر مشهداً شاعرياً في الأدب الصيني. ويتسبّب المنظر الطبيعي بمشاعر الصداقة العميقة أثناء الوداع، وهو أفضل تعبير عن مزيج المشاعر والمناظر الطبيعية.

الذي يتم تحضيره في البيوت. حضر وانغ من مكانٍ بعيد لوداع صديقه بعد أن عزم على الانطلاق برحلة طويلة. وكان هذا هو سبب امتنان الشاعر العميق لصديقه، والذي عبّر عنه عن طريق هذه القصيدة الغنائية.

كانت بركة أزهار الخوخ بالنسبة إلى الشاعر أكثر من مجرد بركةٍ عادية، أي أنها كانت رمزاً للصداقة. وقد كتب لي باي أبياتاً أخرى بعنوان وداعاً للوزير لي يون في برج شوان تشو. وقد اشتملت القصيدة على الأبيات التالية: «يستمر الماء في الجريان حتى لو قطعناه بسيوفنا. تعاودنا الأحزان بالرغم من إغراقنا إياها بالشراب». كتب الشاعر هذه الأبيات للتعبير عن أحزانه التي لا تنتهي.

أما في قصيدة رحلة خيالية إلى جبل تيان مو، فقد وصف الشاعر بكل حيوية كيف أنه توجّه إلى بلاد العجائب، والتقى الشخصيات الخيالية التي رآها في حلمه. لكن كان على الشاعر الاستيقاظ من الحلم متأوهاً مهما كان جميلاً، «هذه هي الطريقة التي

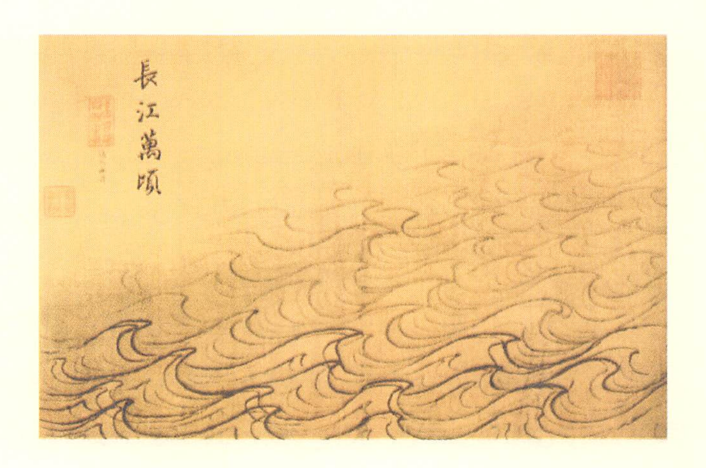


تجري بها الأمور مع مسرات الإنسان على الدوام؛ إذ يتلاشى كل شيء مثل المياه التي تجري نحو جهة الشرق».

عرف الشاعر جيداً أن المسرات التي يجلبها الحلم، والوظيفة الرسمية في الحياة الواقعية لا تدوم إلى الأبد. لذا، لم تكن هناك فائدة من الانحناء أمام طبقة النبلاء وخسارة السعادة التي يستحقها المرء». وقد عبّر الشاعر عن المسرات والأحزان في قصائده بطريقةٍ حرة وسهلة؛ وهو الأمر الذي جعل لي باي شاعراً ذا مزايا فريدة.

كتب لي يو عن الماء بطريقةٍ تختلف تماماً عن طريقة لي باي. وقد تعرّض لي باي بصفته آخر إمبراطور في مملكة تانغ الجنوبية- التي ظهرت خلال فترة السلالات الخمس، وفترة الممالك العشر- للاعتقال بعد استيلاء جنود مملكة سونغ الشمالية على العاصمة. وبقي الإمبراطور في السجن لمدة ثلاث سنوات قبل أن يُحكم عليه بالإعدام. ويمكننا في هذه الحالة أن نتصور مدى الكآبة التي شعر بها في ذلك الوقت. وقد كتب الشاعر القصيدة التي اقتبسناها في مطلع هذا القسم خلال تلك الظروف التاريخية. ونلاحظ أن كل سطرٍ من أبياتها يكشف عن الأسى العميق الذي أحسّ به الشاعر.

أما آخر سطرٍ من هذه القصيد فهو مؤثّر جداً: «إذا سألتني كم ازداد حزني، فانظُر إلى النهر الهادر نحو الشرق!» (الصورة 3-24). لكن يمكننا ملاحظة بصيص أمل في قصائد لي باي، بينما لا نشعر مع لي يو إلا بالكآبة العميقة.



الصورة 3-24 نهر يانغ تسي بريشة ما يوان، مملكة سونغ، رسم ملون على لفافةٍ حريرية، مجموعة متحف القصر

يمتلك الماء وجوداً موضوعياً، وخصائص يتميّز بها. لكن الماء بالنسبة إلى الشعراء يرمز إلى أشياء مختلفةٍ عديدة. ويضع الشعراء أفكارهم أو عواطفهم الشخصية في إبداعاتهم الأدبية، ولهذا يعطون الماء قيمةً رمزية. كان الصينيون القدماء يفضّلون ملاحظة البيئة الخارجية، ووصفها بمشاعرهم الذاتية. وتساءل الشعراء عما إذا كان بإمكانهم الاستمرار في رؤية العالم بقلبٍ صادق وعواطف مخلصة. وإذا أردنا إدراك مدى أصالة الماء وجماله، فيمكننا أن نختم هذا القسم بقصيدة الصياد العجوز التي كتبها ليو تسونغ يوان (773-819) (الصورة 3-25)؛ وهو أشهر الشعراء في عهد مملكة تانغ.



الصورة 3-25 رسم ليو تسونغ يوان، طبعة مينغ من لوحات القدماء في التاريخ

وُلِد ليو تسونغ يوان الذي اتخذ اسماً آخر هو تسي هوى في هي دونغ، ولهذا أُطلِق عليه اسم ليو هي دونغ. وقد عمل ذات مرة بصفته حاكماً إقطاعياً في إقليم ليو تشو. كانت لغة أشعاره بسيطة للغاية، وتترافق مع قدرٍ كبيرٍ من الوصف، وهو أسلوب يشبه أسلوب تاو يوان مينغ وواي ينغ وو.

أمضى صياد عجوز ليلته هنا تحت الجرف الصخري الغربي؛

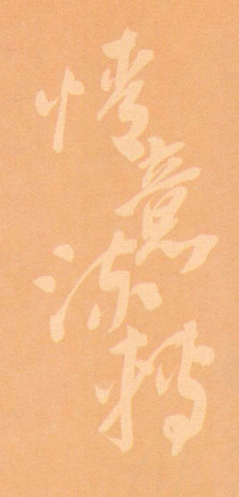
استخرجَ المياه من شيانغ الصافي، وأشعلَ ناراً من أعواد الخيزران؛

وبعدها، عند شروق الشمس مضى في طريقه من خلال الضباب الكثيف.

لم يبقَ سوى صوت مجذافه وسط خضرة الجبل والنهر.

التفتُّ ورأيت الأمواج القادمة من البعيد،

والسحب الزاحفة بهدوء من فوق الصخور؛ واحدة بعد أخرى.



الأدب الصيني

الفصل الرابع

الحب

الحب بين أفراد الشعب: السيّد يرغب بالحصول على سيدة جميلة

أرجوك يا سيّد تشونغ، يا عزيزي،
من فضلك لا تقفز إلى حديقتي
ولا تكسر أشجار الصندل!
إنّي لا أكترث لهذه الأشجار،
ولا أخشى جيراني،
بقدر ما أحبك يا عزيزي،
وكيف لا أخشى
ما يُمكن أن يقوله جيراني!

أرجوك يا سيّد تشونغ، من كتاب الأغاني

قال منشيوس- وهو حكيمٌ صينيٌ قديم- إن الوقوع في الحب من طبائع البشر. ويمتلك كل إنسان الحق في الحب؛ بغضّ النظر عما إذا كان غنياً أم فقيراً، ذكياً أم غبياً، صغيراً أم كبيراً. ولا يقتصر الحب على الطبقة، أو العمر، أو الثروة، أو العِرق. ولهذا السبب، يمكننا أن نقول إننا محظوظون لتمكّننا من الاستمتاع بكل أنواع قصص الحب. وسبق لنا أن ذكرنا أن الأدب انعكاس للحياة الواقعية والعواطف الغريزية، ولكن ليس من المبالغة القول إن الحب موضوعٌ خالد في الأدب.

أما كتاب الأغاني الذي يُعتبر أقدم مجموعة شعرية، فيتضمن عدة أغانٍ شعبية حيوية ومؤثرة، كما أن فتاتي الهادئة والجميلة واحدة من بين تلك القصائد. وقد وصفت القصيدة كيف أن شاباً أصيب بالقلق والصدمة عندما لم يرَ فتاته كما كان يتوقع.

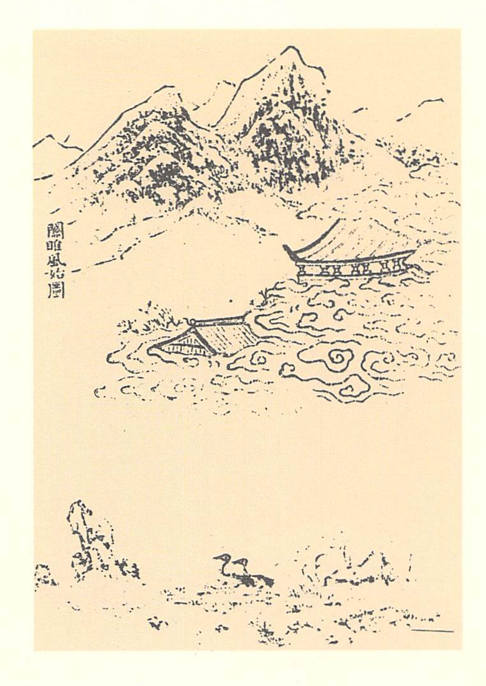
انتظرتني فتاتي الهادئة والجميلة
عند جدار المدينة.
كانت مختبئةً هناك من دون أن يراها أحد.
حككتُ رأسي وعبستُ.

يمكننا أن نتصور عند قراءتنا لهذه القصيدة كيف أن شاباً طيّباً داعبته صديقته



الجميلة والهادئة. ويمكننا الآن الانتقال إلى أغنية شعبية أخرى تحمل عنوان الهديل (الصورة 4-1) والتي وردت في كتاب الأغاني:

تهدل طيور الماء
فوق صخرةٍ في الغدير.
شابٌ أحب مغازلة
فتاة جميلة الملامح.
هناك حيث تنمو أعشاب الماء
التي يحب الناس جمعها؛
هناك تعيش فتاة جميلة،
والفتى عشقها بجنون.
تجاهلته الفتاة الجميلة،
لكن الفتى اشتاق إليها حقاً،
وكان نهاره طويلاً،
أما في الليل فكان يتقلّب من القلق.



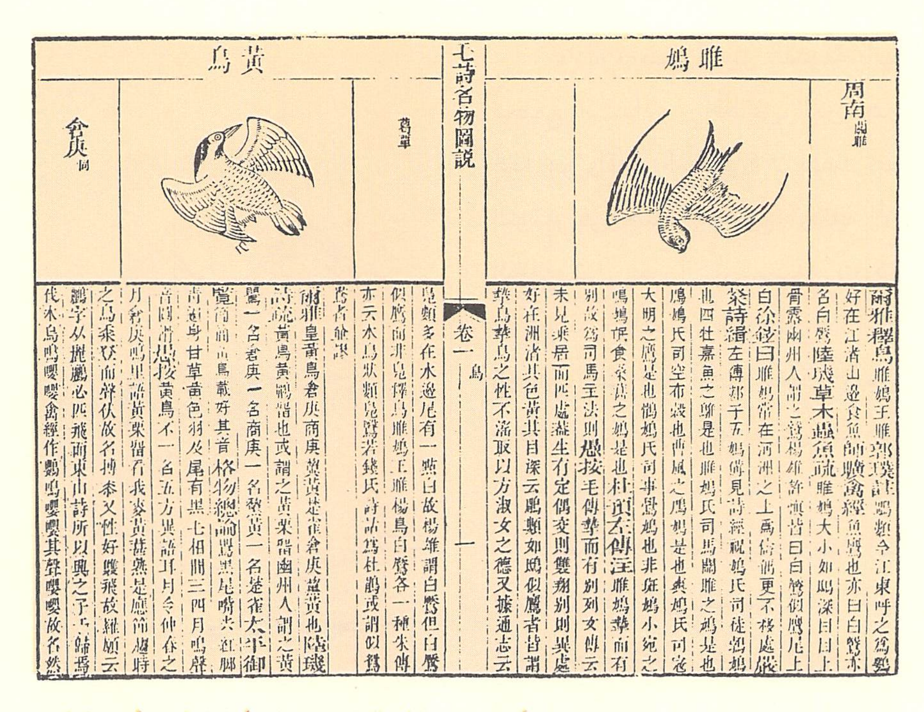
الصورة 4-1 الهديل، صور كتاب الأغاني، بريشة جاو تشاي هي، مملكة تشينغ

إن الحب القائم بين رجلٍ وامرأة هو بداية المجتمع البشري. وتبدأ قصيدة الهديل من المغازلة القائمة بين الطيور أثناء السعي للحصول على أنثى؛ وهو الأمر الذي يعكس أبسط الرغبات وأكثرها وضوحاً عند البشر. ولا تهدف تلك القصائد إلى تشجيع السلوك الأخلاقي والتنور، ولكنها تهدف إلى التركيز على التناغم والبهجة والعاطفة.

تذكّر الشاعر الفتاة التي يشتاق إليها لدى رؤيته أسراب طيور الماء، ولدى سماعه هديلها فوق أجمات عشب المياه (الصورة 4-2). اشتاق الشاعر إلى الفتاة لدرجةٍ عجز معها عن النوم في الليل. ويدل هذا على مدى عمق مشاعر الشاعر وصدقه تجاه محبوبته! (الصورة 4-3)

نلاحظ أن معظم القصائد تعبّر عن الحب بطريقةٍ هادئة ومباشرة، وهو أمرٌ يمكننا ملاحظته في أغنيةٍ شعبية تدعى أيتها السماء التي تظلّلنا، والتي تعود إلى عهد سلالة هان:

أيتها السماء التي تظلّلنا!
سوف أنثر حبي عليك.
سوف أتحمّل بالرغم من أقدارنا.
عندما لا ترتفع الجبال عالياً،


毛詩名物圖說 卷一 鳥 一

雎鳩

周南 關雎

爾雅鵹鳥雎鳩王雎郭璞註鵰類今江東呼之為鶚好在江渚山邊食魚師曠禽經魚鷹也亦曰白鷢亦名白鷢陸璣草木蟲魚疏雎鳩大小如鴟深目目上骨露幽州人謂之鷲楊雄許慎皆曰白鷢似鷹尾上白徐鉉曰雎鳩常在河洲之上為儔偶更不移處嚴粲詩緝左傳郯子五鳩備見詩經祝鳩氏司徒鵻鳩也四牡嘉魚之鵻是也雎鳩氏司馬關雎之鳩是也鳲鳩氏司空布穀也曹風之鳲鳩是也爽鳩氏司寇大明之鷹是也鶻鳩氏司事鶻鳩也非斑鳩小宛之鳴鳩俱食桑葚之鳩是也杜預左傳注雎鳩摯而有別故為司馬主法則按毛傳摯而有別列女傳云未見乘居而匹處若生有定偶交則雙翔別則異處好在洲渚其色黃其目深云鵰類如鴟似鷹者皆謂摯鳥摯鳥之性不淫取以方淑女之德又據通志云鶚頬多在水邊尾有一點白故楊雄謂白鷢但白鷢似鷹而非鶚釋鳥雎鳩王雎楊鳥白鷢各一種朱傳亦云水鳥狀類鳧鷖若錢氏詩詁為杜鵑或謂似鷙鳥者俱謬

黃鳥

葛覃

倉庚

爾雅皇黃鳥倉庚商庚鶩黃楚雀倉庚鶩黃也陸璣詩疏黃鳥黃鸝留也或謂之黃栗留幽州人謂之黃鸎一名倉庚一名商庚一名鶩黃一名楚雀太平御覽引爾雅鳥載好其音格物總論鸎黑尾嘴尖紅腳青黃身甘草黃色羽及尾有黑七相間三四月鳴聲音圓滑按黃鳥不一名五方異語耳月令仲春之月倉庚鳴里語黃栗留看我麥黃葚熟是應節趨時之鳥乘陽而鳴伏故名摶黍又性好雙飛故維頌云鸝字从麗麗必匹飛而東山詩所以興之子于歸焉代木鳥鳴嚶嚶禽經作鸎鳴嚶嚶其聲嚶嚶故名然

الصورة 4-2 رسوم تمثّل طيور الماء والطيور الصفراء، موضوعات وأشياء في كتاب الأغاني، طبعة ماو، بريشة شو دينغ، مملكة تشينغ

يجمع كتاب الأغاني عدداً كبيراً من الأغاني الشعبية الغنية بالعاطفة الصادقة، كما يفتتح تقليداً جديداً في الكتابة. وقد قال كونفوشيوس إنه أثناء قراءة كتاب الأغاني يستطيع القارئ على الأقل معرفة عدد كبير من الأسماء والموضوعات المختلفة، مثل طير الماء والطائر الأصفر الظاهرين في الصورة. تمثّل الصورة الأولى الهديل في تشو الجنوبية، بينما تأتي الصورة الثانية من تشين فينغ وتسمى الطائر الأصفر.

أو عندما تجفّ الأنهار،

أو عندما تقصف رعود الشتاء،

أو عندما تطير ندف الثلج في الصيف،

أو عندما تلتقي الأرض السماء،

عندها فقط سوف أتخلى عن حبّي.

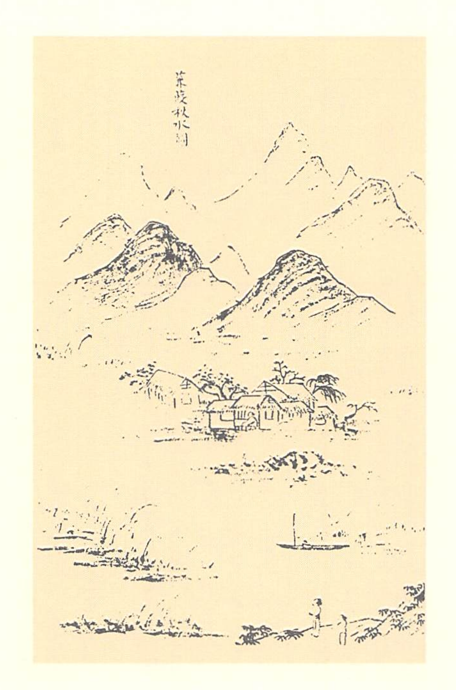
يُحتمل أن هذه القصيدة قد وصفت امرأةً أقسمت على عدم التخلي عن حبّها للشاعر. ويبدو أن المرأة لم تُظهر أي خجل أو حرج في التعبير عن حبّها القوي. هل تتبادر إلى أذهاننا هذه المشاعر الصادقة لدى قراءتنا قصائد كهذه؟ (الصورة 4-4)



عادةً، توصف الصين القديمة بأنها مجتمعٌ استبدادي وإقطاعي. لكن، هل هذا هو واقعها الحقيقي؟ لا نقصد هنا التوسّع في هذا الموضوع، وذلك لأن الوقائع تدل على أن أي مجتمع تتحكّم به قواعد وتقاليد محددة. لكن، إذا أردنا الحصول على فهمٍ أفضل للعمل الأدبي، فيتعيّن علينا معرفة المزيد عن الظروف الاجتماعية التي يستند إليها.

يمكننا الآن أخذ قصيدة أرجوك أيها السيد تشونغ التي اقتبسناها في بداية هذا القسم كمثال. طلبت راوية هذه الأغنية الشعبية من حبيبها عدم القفز إلى حديقتها، أو تكسير أغصان أشجار الصندل. ولكن، بالرغم من حبّها لذلك الرجل، كانت تخشى على سمعتها من أقاويل جيرانها.

كان كل حيٍّ في عهد مملكة تشو يتألف من خمسة منازل منفصلة ومحاطة بالجدران، لذا كان التسلّل إلى منزل



الصورة 4-3 قصب في المياه، كتاب الأغاني، الصور بريشة جاو تشاي هي، مملكة تشينغ

«القصب والأعشاب بلونها الأخضر الداكن،
حيث تتحول قطرات الندى إلى جليد.
أما السيّدة التي أحبها فهي في مكانٍ ما في المياه».
تلك التي أحبها قريبة مني، ولكن كيف لي أن أسعى إليها مع وجود كل هذه العقبات؟

تتمازج هنا المناظر والمشاعر معاً باعترافٍ صريح؛ وهو الأمر الذي يجعل كل هذا الأغنية الشعبية الأكثر صدقاً وتأثيراً.



الصورة 4-4 السيّدة الأفعى البيضاء، صورة شعبية عن السنة الجديدة في أواخر عهد مملكة تشينغ، كاي فينغ مقاطعة هينان

السيدة الأفعى البيضاء، أسطورة شعبية معروفة جداً في الصين، وهي تروي قصة أفعى تدعى باي سو تشين. تم تناقل هذه القصة شفهياً بين الناس، وبنسخٍ عديدة. لكنّ كل تلك النُسخ تتحدث بإطراء عن قوة الإرادة التي تتمتع بها باي سو تشين، وكذلك عن حبها لزوجها شو شيان الذي يتميّز بنكران الذات.

الحبيبة صعباً جداً ومحفوفاً بالخطر. لكن، بالرغم من عدم وجود قواعد صارمة لمعاقبة الذين يخوضون في علاقات غير أخلاقية، إلا أن لقاء الحبيب في الليل كان يُعتبر عملاً شائناً.

وبعد فهمِنا الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة، سوف يسهل علينا فهمُ السبب الذي يدفع الفتاة إلى الخشية من الشائعات التي يُطلقها جيرانها، وذلك بالرغم من حبّها القوي للرجل. لم يكن الحب في الصين القديمة يُعتبر مسألةً شخصية، بل كان يتأثر بالعوامل العائلية والاجتماعية. وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه التأثيرات في عددٍ من الأعمال الأدبية مثل القصيدة المُعنوَنة عروس جياو تشونغ تشينغ.

نُظِمت هذه القصيدة السردية الطويلة في عهد مملكة هان، وهي تشتمل على 356 سطراً، ويتألف كل سطر منها من خمس كلمات. تروي هذه القصيدة قصة حزينة عن شابٍ يدعى جياو تشونغ تشينغ وزوجته ليو لان تشي. عجزت ليو عن كسب محبة والدة زوجها جياو، ولهذا عادت إلى موطنها. أقسمت ليو على عدم الزواج مجدداً، لكن شقيقها الأكبر أجبرها على الزواج من رجلٍ ثري.

شعرت ليو بالحزن الشديد، لدرجة أنها أغرقت نفسها في يوم زفافها، وكذلك أقدم زوجها السابق على شنق نفسه في باحة منزله عند سماعه ذلك الخبر المُحزن. وهكذا، دُفِن الزوجان السابقان في مدفنٍ واحد. واستمر زوجٌ من طيور الحب بالهديل فوق الأشجار النابتة إلى جانب المدفن ليلاً ونهاراً، وكأنهما كانا يحاولان تحذير الناس من عدم تكرار هذه المأساة. نلاحظ أيضاً أن الكلمات البسيطة جعلت من هذه القصيدة الطويلة سهلة الفهم، وهي التي قدّمت وصفاً حيوياً عن البطل والبطلة اللذَين كانا عاثرَي الحظ.

يمكننا القول بشكلٍ عام إنّ الأغاني الشعبية لا تعبّر فقط عن قصص حب عامة الشعب، بل تعكس الوقائع الاجتماعية السائدة. قال كونفوشيوس ذات مرة إنه بالإمكان استخدام الشِعر ليكون انعكاساً للمجتمع والناس (الصورة 4-5). يُضاف إلى ذلك أنه تأسّست في عهد مملكة هان وكالة رسمية وخاصة تهدف إلى جمع الأغاني الشعبية لتأليف ألحانٍ موسيقية. لعبت تلك الوكالة دوراً كبيراً في نقل الوقائع الاجتماعية السائدة في البلاد إلى الإمبراطور.

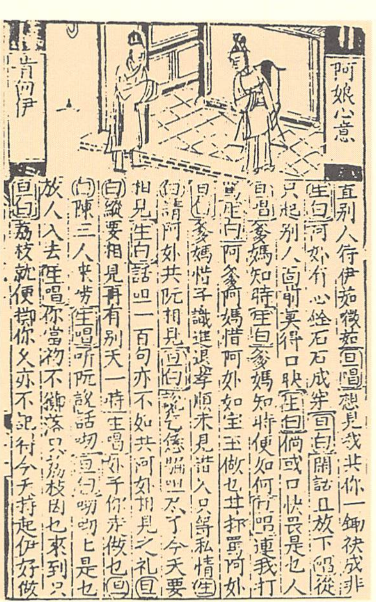
كانت بعض الأغاني الشعبية جذابةً جداً، إلى حد أن بعض الشعراء أقدموا على



تقليد أشكال تلك الأغاني وتقنياتها في إبداعاتهم الأدبية الخاصة بهم. كان ليو يو شى (772-842) شاعراً شهيراً في عهد مملكة تانغ، وقام ذات مرة بتقليد الأغاني الشعبية من أجل تأليف قصيدة كان عنوانها أغنية حب:

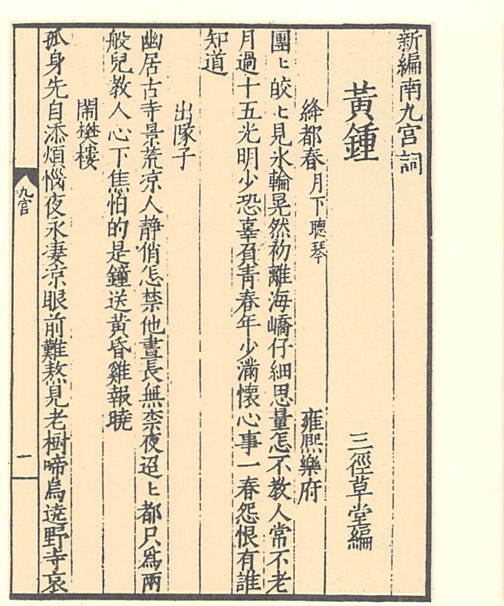
أزهار الخوخ الحمراء ملأت الجبل،
ويتدفق النهر وسط المناظر الربيعية الخلابة.
أزهار الخوخ هشة مثل حبّك،
لكنّ أحزاني تتدفق مثل مياه النهر.

تتميز هذه القصائد بالوصف الشفّاف، واستخدام الاستعارات والتشابيه، كما أنه



الصورة 4-5 نقش قصة لي شي الخشبي، نسخة الشخصيات المضافة الجديدة في قصة لي شي، قاعة تشو يو جينغ، فترة وان لي، مملكة مينغ

أسطورة شعبية تروي قصة مينان الصيني. تدعو هذه القصة إلى الحب، وذلك بشكل يناقض تقليد الزواج القائم، أي «نظام الآباء ونصائح وسطاء الزواج»، ولهذا تعرّض للمنع خلال فترة حكم مملكة مينغ وتشينغ. لكن شعبية هذه القصة لا تزال غامرة.



新編南九宮詞
黃鍾　三徑草堂編
絳都春　月下聽琴　雍熙樂府
團々皎々見氷輪晃然初離海嶠仔細思量怎不教人常不老
月過十五光明少恐辜負青春年少滿懷心事一春怨恨有誰
知道
出隊子
幽居古寺景荒凉人靜悄怎禁他晝長無奈夜迢々都只爲兩
般兒教人心下焦悄的是鐘送黃昏雞報曉
鬧樊樓
孤身先自添煩惱夜永淒凉眼前難熬見老樹啼鳥遶野寺哀
九宮　一

الصورة 4-6 نسخة عن الطبعة الجديدة شى جيو جونغ الجنوبية، نسخة سان جينغ، مملكة مينغ

استمرت مسرات الناس العاديين ملحوظةً في يوي فو، وأغاني تشو تشي الشعبية. أما شى جيو جونغ الجنوبية الظاهرة في هذه الصورة فهي مجموعة يوي فو المنشورة أثناء فترة مملكة مينغ. اختارت المجموعة أغاني الجنوب قبل فترة جيا جينغ في فترة حكم مملكة مينغ، بينما كان الحب بين الرجل والمرأة موضوعها الأساسي.

بالإمكان التعبير عن المشاعر من دون التقيّد بالدقة. فعلى سبيل المثال، قارنت هذه القصيدة الأزهار الرقيقة والهشة مع حب الرجل، كما قارنت المياه المتدفقة مع أحزان الفتاة. كانت ليو يو شى أول شاعرة تكتب الشعر بهذه الطريقة. (الصورة 4-6)

يعود السبب الأساسي لشهرة الأغاني الشعبية إلى صدق المشاعر التي تحتويها تلك الأغاني وصراحتها. ويفسّر هذا الأمر سبب تمتّع القصائد الشعبية بمركزٍ عالٍ في الأدب الصيني. ويؤمن الصينيون أن كل المشاعر الصادقة تنبع من أعماق القلب، وهكذا يصبح التعبير عن العواطف الصادقة هو الهدف الخالد لجميع الشعراء أو الكتّاب.

اعتبر الصينيون القدماء أن أفضل الشعر هو ذلك الصادر عن الناس العاديين. ولا يعني ذلك أن الأشخاص المتعلمين يعجزون عن كتابة قصائد جيّدة، ولكن الهدف هنا هو التشديد على أهمية الصدق في التعبير عن المشاعر. لكن، لا يمكن تحقيق الصدق العاطفي في العمل الأدبي من خلال الأسلوب المصطنع.



| حنين: تشهد دموعي كم اشتقت إليك

يطوف السحاب مشكّلاً لوحةً فنية
وتُرسِل النجوم أحزانها إلى القلب.
يلتقي الراعي الخادمة في درب التبانة.
وعندما تعانق ريح الخريف الذهبية ندى الجاد،
تتلاشى كل مشاهد الحب، على كثرتها، من الأرض.

يسري حبهما الرقيق مثل جدول ماء،
ويبدو هذا الموعد السعيد مثل الحلم.
أيمكنهما تحمل الافتراق في طريق العودة؟
إذا كان للحب بين الفريقين أن يستمر إلى الأبد،
إذاً لماذا يبقيان معاً ليل نهار؟

خالدون فوق جسر ماغبي، تأليف تشين غوان



يُعتبر الفراق أكثر الأمور إثارةً للحزن عند المحبين، ولا بد أن الحنين هو أكثر التجارب العاطفية شيوعاً عند الجنس البشري. لا يتقيّد الحنين بعوامل الزمن، أو المكان، أو العِرق. إننا نعجز عن تعداد الأعمال الأدبية المؤثرة التي كُتبت عن الحنين للحبيب في العالم كله (الصورة 4-7). ويتواجد في الصين قدرٌ كبير من الأعمال الأدبية التي تحدثت عن موضوع الحنين، وقد شكّلت مشهداً فريداً في الأدب الصيني. يُضاف إلى ذلك أننا كلما تعمقنا في قراءة تلك الأعمال ازداد تأثرنا بها. وفي هذه الحالة، لا نعجب إذا كان بعض الباحثين قد أطلقوا على الأعمال الأدبية الصينية وصف «حياة كاملة من التعبير العاطفي».

يمكننا أن نبدأ الآن بأسطورة.

كانت هناك فتاة جميلة تدعى ويفر (حائكة) (الصورة 4-8)، وكانت تقوم بحياكة ملابس إمبراطور الجاد (حاكم السماء الأعلى). وقد سمح إمبراطور الجاد للفتاة بالزواج

الصورة 4-7 رسم الأغاني التسع (جزء)، بريشة تشانغ وو في مملكة يوان، رسم بالحبر على الورق، مجموعة متحف جيلين الإقليمي

شيانغ وسيّدة شيانغ قصيدتان عن الحب من أصل القصائد التسع التي ألّفها تشو يوان. تصف قصيدة شيانغ حب السيدة شيانغ لشيانغ؛ كما أن قصيدة السيدة شيانغ هي القصيدة التوأم لقصيدة شيانغ. وتعبّر القصيدتان عن الموضوع ذاته، وعلى الأخص عن آلام الحب والموت والفراق.





الصورة 4-8 الحائكة، بريشة تشانغ لينغ، مملكة مينغ، رسم ملوّن على الورق، مجموعة متحف شنغهاي

تمثل الحائكة في الثقافة الصينية الغرام والعشق. ولم يكن بإمكانها الالتقاء بالراعي إلا مرة واحدةً في السنة، بينما كانا يقضيان الفترة المتبقية من السنة في الوحدة والانتظار.

من راعي بقر إذا أصبحت وحيدة. شعرت ويفر بسعادة كبيرة بعد زواجها بسبب حياتها على الأرض، وذلك إلى درجةٍ دفعتها إلى التخلي عن الحياكة. لكن ذلك أغضب الإمبراطور كثيراً، وهكذا أمر الزوجين بالانفصال، إلا أنه سمح لهما برؤية بعضهما بعضاً مرة واحدة كل سنة، وذلك في اليوم السابع من الشهر السابع من السنة القمرية. يُقال إنه في ذلك اليوم المميز تجتمع أعدادٌ لا حصر لها من طيور العقعق في درب التبانة، كما أنها تشكّل جسراً بين الفتاة الحائكة وراعي البقر لتسهيل لقائهما. هذا هو سبب الاحتفال بيوم السابع من تموز بوصفه احتفالاً شعبياً تقليدياً في الصين. (الصورة 4-9)

تظهر هذه الأسطورة الجميلة كثيراً في الأعمال الأدبية منذ أيام مملكة هان. وقد تضمنت إحدى القصائد القديمة وصفاً حياً للحنين الذي شعرت به ويفر، أو الحائكة، تجاه حبيبها. شعرت ويفر بالحزن الشديد بعد ذلك الفراق، إلى حدّ أنها كانت تبكي خلال عملها.

أما قصيدة الخالدون فوق جسر ماغبي التي ألّفها تشين غوان

(1049- 1100) واقتبسناها في مطلع هذا القسم فهي قصيدة شهيرة استندت إلى هذه الأسطورة. وقد اختار الشاعر منظوراً خاصاً للكتابة عن قصة الحب المأساوية هذه، كما شدّد أكثر على السعادة التي كان الحبيبان يشعران بها عند لقائهما بعد مضي وقتٍ طويلٍ على افتراقهما. أما ما يجعل هذه القصيدة أكثر تأثيراً فلم يكن الوصف المفصّل للّقاء بحد ذاته، وإنما ملاحظات الشاعر حول حبّهما، وذلك عندما قال إنه إذا كان بإمكان الحب بين الطرفين أن يستمر إلى الأبد، فلماذا يتعيّن عليهما البقاء معاً في الليل والنهار؟ ويعني ذلك أنه لا يتعيّن على المحبين البقاء معاً طيلة الوقت، وذلك لأن الفراق يجعل حبهما أطول عمراً.

الصورة 4-9 نقش على الخشب عن قصة الراعي والحائكة، الشخصيات المطبوعة حديثاً من قصة الراعي والحائكة، طبعة يو تشينغ تشانغ عن شو لين شيانغ يوان

تقوم طيور العقعق في السابع من تموز من السنة القمرية كل عام بتشكيل جسرٍ فوق درب التبانة لكي يتمكن الراعي من لقاء ويفر. تنتشر هذه القصة الرومانسية كثيراً بين أفراد الشعب، كما ظهرت عدة أعمالٍ مقتبسة عنها. هذه الصورة نسخة عن قصة الراعي والحائكة التي ألّفها تشو مينغ تشين خلال حكم سلالة مينغ. وتقتبس هذه القصة نمط الطباعة الشائع بوضع الصورة في أعلى الصفحة والكتابة أسفلها.

يُعتبر لي شانغ ين، الشاعر الشهير في أيام مملكة تانغ، واحداً من أفضل الشعراء الذين كتبوا عن قصائد الحب. كتب لي شانغ ين خلال حياته عدداً كبيراً من القصائد التي تركها بلا عنوان. ويميل الصينيون إلى تخمين مواضيع الأعمال الأدبية من عناوينها. أما بالنسبة إلى القصائد التي كانت من دون عناوين فيتعيّن على القارئ تخمين الموضوع بنفسه من كلمات القصيدة أو من صورها. وهذا هو سبب اعتبار أن معظم القصائد التي تكون من دون عنوان تتحدث عن حب الشاعر الذي لا يمكن أن يُنسى. أما القصيدة التالية فهي من هذا النوع:

يصعب علينا اللقاء، لكن الفراق يبقى أكبر صعوبة،



وعندما تضعف النسائم تسقط كل الأزهار وتتلاشى.
لا تتوقف دودة الحرير عن حياكة خيطها قبل أن تموت.
تذرف الشمعة دموعاً لا حصر لها قبل أن تحترق وتصبح رماداً،
وتفضح المرآة عند الفجر خوفك من الشَعر الذي كلّله البياض.
أشعر عند سردي القصائد في الليل ببرودة القمر في الهواء.
لا يبعد جبل بينغ لاي مسافةً كبيرة،
لكنّني أصلّي ليكون الطائر الأسود طيّباً معك بين الحين والحين.



الصورة 4-10 نص بالخط المنحني عن شعر ليو يونغ الغنائي، بريشة سوي مينغ يونغ، مملكة مينغ، كتابة على ورق، مجموعة متحف القصر

«أينما تتواجد بئر يمكن قراءة شعر ليو يونغ الغنائي».

إن الوصف العميق للوعة الحب الذي نلاحظه في شعر لي يونغ الغنائي هو الأكثر تأثيراً. كان لي يونغ مؤثراً جداً في ميدان الشعر في ذلك الوقت، لكن عندما قام القدماء بتقييم قصائده أشاروا إلى أن أسلوبه الفني لم يكن راقياً، وذلك لأن معظم قصائده كانت محصورة بموضوع الحب.

يمكننا العثور على موضوع هذه القصيدة في السطر الأول منها. أما في الأسطر التالية فتظهر مجموعة من الصور التي تهدف إلى التعبير عن الحب اليائس للراوي، واشتياقه الذي لا حدود له. لا يمكن استعادة الحب المفقود، مثلما يستحيل على الريح الشرقية إحياء زهرةٍ ذابلة. ولا تتوقف دودة الحرير عن غزل خيطها إلا حين تموت، وينطبق الأمر ذاته على حب الشاعر. أما الشَعر الأبيض الذي نلاقيه في الصباح فيوحي بالاشتياق الكبير الذي يحسّ به الشاعر تجاه محبوبته. يشعر الشاعر أيضاً بالبرودة القارسة في الليل، وذلك لأن المرأة التي يحبها بعيدة عنه. تساعدنا كل هذه الصور على الإحساس بشكلٍ أفضل باشتياق الشاعر لحبيبته.

إن الحب شيء رائعٌ فعلاً، وبإمكانه منع الشخص من النوم، أو حجب رؤيته للواقع، وبإمكانه أيضاً تذكيرنا بالأوقات الماضية.

عاش شاعرٌ شهير يدعى ليو يونغ (نحو 987- 1053) في مملكة سونغ، وكان يُكثر من زياراته لبيوت الدعارة. كتب الشاعر خلال حياته عدة قصائد عاطفية للتعبير عن الأسى الذي لا ينتهي، والذي أحسّ به نتيجة الحنين (الصورة 4-10). يُحتمل أن قصائد الشاعر عبّرت عن أفكار البغايا، وهكذا أقدمن بعد موت الشاعر على زيارة قبره في كل عام خلال مهرجان تشينغ مينغ (مهرجان صيني تقليدي للاحتفال بذكرى الذين ماتوا). يمكننا الآن قراءة إحدى قصائده، وهي بعنوان وداعٌ في الخريف، وتشبه قصيدة يقرع الجرس وسط المطر:

خفّ أزيز الصراصير
وغابت وراء جناح الوداع شمس المساء.
توقفت الآن زخات المطر المفاجئة عن الهطول.
لكن كؤوس الشراب الحزينة ما زالت تدور،
والمركب يرسل صفارات الإبحار.
بقينا غير مستعدين للفراق،
وتأملنا الدموع في عيني بعضنا بعضاً يداً بيد.
كسرت صرخة مخنوقة جدار الصمت،
تتعرج القناة أمامنا لألف ميل،
ممتدة داخل الغابة تحت السماء الداكنة.

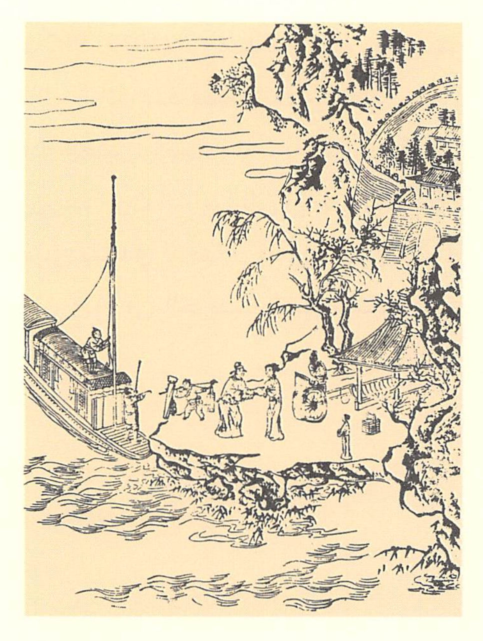
مؤلمٌ القول وداعاً مع الحب العميق،
وعلى الأخص في ليلةٍ خريفية باردة وساكنة.
إلى أين سيأخذني هذا المركب
بعد استيقاظي من نومي العميق؟
رأيت ضفة النهر التي تزيّنها أشجار الصفصاف،
وهبّت نسائم الصباح تحت الهلال.
لكنني أعجز عن الاستمتاع بمناظر خلابة كهذه من دونك.
والتي أعترف لها بالرغم من ذلك بمشاعري وعواطفي؟ (الصورة 4-11)

يقرع الجرس وسط المطر هو عنوان قصيدة، ويرتبط الاسم بحد ذاته بقصة حب.



فقد قام إمبراطور شوان تسونغ في عهد سلالة تانغ بتأليف قصائد غنائية عند سماعه قرع الجرس وسط المطر في سيشوان، وحيث أُجبر على قتل محظيته المفضلة يانغ يو هوان.

أما بالنسبة إلى القصيدة الغنائية التي أوردناها، فهي تصف مشهد الفراق في قسمها الأول، كما عبّرت عن ألم الفراق في قسمها الثاني. لم يتمكن العاشقان قبل افتراقهما من الاستمتاع بالمنظر الطبيعي الخلاب مهما كان جذاباً. ويعني ذلك أن المنظر الجميل، والحزن المخيّم على القلب متباينان بشكل واضح.



الصورة 4-11 نقش على الخشب لقصيدة الجرس يقرع وسط المطر، تنقيح صور القصائد بريشة السيّد وانغ، سلالة مينغ

شاطئ أشجار الصفصاف، نسائم الصباح والقمر المخيّم.

كيف بإمكاني الاستمتاع بهذا المنظر الجميل وأنا سأفترق عن محبوبي قريباً؟!

يشكّل هذا المنظر الجميل مع عواطف الكاتب المشبعة بالألم تبايناً حاداً؛

و«كأنني أختزن ألفاً من مشاعر الحب لأعترف بها، لكنني لا أجد أذناً متعاطفة معي!»

يشير بعض النقاد إلى أن لي يونغ ماهرٌ في إظهار العواطف الجياشة من خلال وصفه البيئة الطبيعية الخارجية. يُضاف إلى ذلك أنه خلال فترة حكم سلالة سونغ شاع المثل التالي: «حيثما توجد بئر فسوف يكون بالإمكان قراءة شعر لي يونغ الغنائي». ويُظهر هذا مدى انتشار الشعر الغنائي بين أفراد الشعب. لا يستطيع جميع الناس تأليف إبداعاتٍ أدبية، ولكننا نسرّ جميعاً عندما نقرأ الأعمال الأدبية المؤثرة، ونحسّ بالعواطف الجياشة التي تعبّر عنها تلك الأعمال.

مراثٍ: لا تزالين الوحيدة في قلبي

عشرة أعوام مرّت. الأموات والأحياء يتقدمون ويبتعدون.
لا أحاول أن أتذكر،
لكن النسيان صعب.
قبرٌ وحيد على بُعد ألف ميل،
أفكارٌ باردة كيف لي إبعادها؟
لكن إذا التقينا لن تعرفيني،
يغطي الغبار وجهي
وشعري يبدو كالجليد.

في الليلة الماضية، فجأةً، رأيت البيت في حلم.
كنتِ إلى جانب النافذة تسرّحين شعركِ وتتجملين.
استدرتِ ونظرتِ من دون كلام.
لم أرَ سوى الدموع المنهمرة على الخدّين.
هل سينفطر قلبي هكذا عاماً بعد عام؟
قبرٌ ينيره القمر،
وصنوبرات صغيرة.

حلمٌ، مهداة إلى جيانغ تشينغ تسي، تأليف سو شي

يُعتبر الموت أقسى شيء في هذا العالم. وهو الأمر الذي يجعل من المستحيل بالنسبة إلى الإنسان أن يرى الآخرين مجدداً. وقد اعتبر الشعراء الصينيون القدماء الذين فقدوا الذين يحبونهم أن الطريقة الفضلى للتعبير عن أحزانهم هي تأليف قصائد المراثي. كُتِبت معظم تلك القصائد بطريقةٍ مباشرة لتكون طريقة للتعبير عن المشاعر، ولذلك كانت سهلة الفهم. كان بان يوي (247- 300)، شاعراً شهيراً ووسيماً في تاريخ الأدب الصيني، وهو الذي كتب ذات مرة قصيدة تفيض بالحزن لتخليد ذكرى زوجته الراحلة.

مضى عامٌ على رحيلك عميقاً تحت التراب.

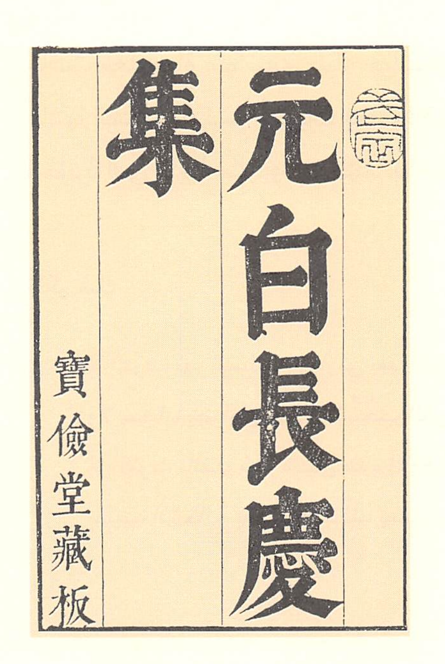


كيف لي أن أراكِ وأنتِ تحت الأرض؟
يزداد حزني إن طال بقائي، وربما كانت
عودتي إلى العمل أفضل خيار أمامي.
ذكّرني المنزل بكِ فور دخولي
وعاد الماضي كله وبحيوية إلى ذهني.
الستائر والمناخل ما زالت في مكانها،
وكتاباتك لم تفارق الجدار.
رائحة ثيابك العطِرة ما زالت كما كانت من قبل.
كيف لي أن أصدّق أن كل ذلك حقيقي،
وأنك لم تعودي على قيد الحياة،
وأنك مثل الأسماك والطيور،
التي تفترق في منتصف الطريق، ولا تعود معاً.
تتسلل نسائم الربيع من خلال شقوق الباب،
وقطرات ندى الصباح تتساقط من المزاريب.
تبقين في أفكاري ليل نهار،
وتتجمع أحزاني العميقة يوماً بعد يوم.
لكم أتمنى لو ينقص حزني،
مثلما غنّى تشوان تسي ذات مرة موت زوجته.

يمكننا تقسيم هذه القصيدة إلى ثلاثة أقسام. نعرف من القسم الأول أن الشاعر كان على وشك العودة بعد مرور سنة على وفاة زوجته إلى حيث عمل موظفاً حكومياً. ووصف الشاعر في القسم الثاني جميع الأشياء القديمة الموجودة في منزله، والتي ذكّرته بكل شيء يتعلّق بزوجته الراحلة. أما في القسم الأخير من القصيدة فقد قارن الشاعر بينه وبين طائرٍ وسمكة انفصلا عن شريكيهما، وذلك للتعبير عن حزنه ووحدته. حاول الشاعر جاهداً الابتعاد عن الحقيقة القاسية، أي مثل تشوانغ تسي (فيلسوف صيني قديم رثى زوجته الراحلة)، إلا أنه اكتشف أن حزنه يتزايد يوماً بعد يوم.

كُتبت هذه القصيدة الحزينة بمشاعر صادقة، وقد أظهرت أفكار الشاعر التي

元氏長慶集卷第一
唐河南元稹微之著　明松江馬元調巽甫校
古詩
思歸樂
我作思歸樂盡作思歸鳴爾是此山鳥安得失鄉名應
緣此寄跡自古離人征陰愁感和氣俾爾從此生我雖
失鄉去我不失鄉情惨舒在方寸寵辱將何驚浮生居
大塊尋丈可寄身身安即形樂豈獨樂咸京命者道之
本死者天之平安問遠與近何言殤與彭君看趙工部
八十支體輕交州二十載始對長安城長安不須臾復


元白長慶集
寶儉堂藏板

الصورة 4-12 نسخة عن مجموعة يوان تشين، طباعة ما يوان، قاعة باو جيان، فترة وانلي، مملكة مينغ

كان يوان تشين صديقاً مقرّباً من باي جووي. وقد ألّف الصديقان معاً عدداً من قصائد يوي فو، واعتُبر الشاعران رائدَي حركة يوي فو الجديدة في فترة تانغ الوسطى. يوجد ما يزيد عن 800 قصيدة ألّفها يوان تشين، والتي تتصف بتمايزها. يُضاف إلى ذلك أنه كتب أسطورة نالت شعبية كبيرة وكانت بعنوان قصة ينغ ينغ.

لا تنتهي والمتعلقة بزوجته الراحلة. وهكذا، لا نستغرب إذا اعتُبرت قصائد الرثاء التي نظمها بان مؤثرةً جداً. فقد كان بان أول شاعرٍ جعل قصائد المراثي موضوعاً خاصاً بالشعراء يتمكنون من خلاله من تخليد ذكرى زوجاتهن الراحلات.

كان يوان تشين (779-831) شاعراً عاش خلال فترة حكم مملكة تانغ، وكان شهيراً بقصائد المراثي التي نظمها (الصورة 4-12). اشتُهر يوان في منصبه الرسمي، وفي حياته الخاصة على السواء. لكنّ ذلك لا يعني أنه لم يكن زوجاً صالحاً، والواقع هو أنه أحبّ زوجته، وكتب عنها القصائدَ بشغف لتخليد ذكراها بعد وفاتها.

كان اسم زوجة يوان واي كونغ، وهي فتاة تحدّرت من أسرة كانت تشغل وظائف حكومية. لم يتلقَّ يوان ترقية في مركزه إلا بعد وفاة زوجته. ويعني ذلك أن زوجته



عاشت معه حياةً متواضعة، طيلة حياتهما معاً. لكن بالرغم من العلاقات العاطفية التي عاشها الشاعر مع نساءٍ أخريات بعد وفاة واي، إلا أنه أظهر حبّه العميق لها في المراثي المؤثرة التي كتبها عنها؛ وذلك مثلما نلاحظ في القصيدتين التاليتين.

أفكّر فيك

لا أعرف نهراً يستحق زيارتي بعد البحر الذي زرته،
ولا سحاباً يضاهي جمال السُحُب التي تظلّل جبل وو.
لا أكترث بإلقاء نظرةٍ على هذه الأزهار التي أشاهدها،
بسبب انشغالي بعملي، وكذلك بسببكِ أنتِ.

مرثية

هنا أجلس وحيداً، حزيناً علينا.
كم من السنين أفتقد من أصل سنواتي الستين؟
هناك رجالٌ أفضل مني، وأنا الذي حرمتني السماء من الابن.
كان هناك شاعرٌ أفضل مني، وأنا الذي لا تتمكن زوجته الراحلة من سماعه.
ما الذي أسعى إليه في قبرنا المظلم؟
أنتِ وأنا فقدنا الأمل في اللقاء بعد الموت
لكنّ عينيّ المفتوحتين تريان طوال الليل،
حاجبيكِ اللذين أنهكتهما المتاعب طوال حياتك.

شدّد الشاعر في القصيدة الأولى على أن أحداً لا يمكنه الحلول مكان زوجته الراحلة. وهكذا، لم يكترث الشاعر بإلقاء نظرةٍ على الأزهار التي مرّ قربها.

كتبَ يوان ذات مرة ثلاث قصائد رثاء، والقصيدة التي اقتبسناها هي الثالثة. لكن بالإضافة إلى مراثيه التي كتبها بعد وفاة زوجته، عبّر الشاعر عن رغبته بأن يُدفن في القبر ذاته مع زوجته. غير أن الشاعر كان يعلم أنه من الصعب تحقيق رغبته هذه، لكن الأصعب كان التقاءه زوجته بعد الموت. وكان ذلك يعني أنه لم يكن لديه خيار لمكافأة العمل الشاق الذي قامت به زوجته المتوفاة غير تمضيته الليالي المؤرقة والتي لا حصر

لها. لكن، مهما مرّ الزمن فإن حبّ الشاعر العميق لزوجته يبقى على حاله.

يمكننا القول بكلماتٍ بسيطة إن هاتين القصيدتين المقتبستين مؤثرتان جداً. وقد اعتبر الشعراء الصينيون القدماء أن مهمة الشاعر هي التعبير عن مشاعره. إن التعبير عن العواطف واحد من العناصر الأساسية في الأدب. وهكذا، يعتبر الناس أن وجود الأفكار السياسية فقط في العمل الأدبي أمرٌ شديد الابتذال.

تتميّز القصائد الحزينة بالتعبير عن الأسى بسبب الموت. ويُضاف إلى ذلك أن الصينيين يمتلكون مشاعر عميقة تجاه الأحياء والأموات على حدٍّ سواء. ويفسّر هذا الأمر السبب الذي يدفع الشعراء إلى الاستمرار في التحدث مع زوجاتهم الراحلات؛ وهو الأمر الذي نلاحظه في القصيدتين آنفتَي الذكر. فقد دفع الحزن الشعراء إلى الاعتقاد أن زوجاتهم الحبيبات ما زلن على قيد الحياة.

هناك قصيدة أخرى بعنوان حلم، وهي قصيدة شبيهة بقصيدة جيانغ تشينغ تسي التي اقتبسناها في مطلع هذا القسم. تخيّل سو شي أيضاً المشهد عندما التقى زوجته الراحلة، وذلك لكي يُظهر مدى اشتياقه لها. وقد تمّ نظم هذه القصيدة في العام 1075،



الصورة 4-13 رسم يمثّل سو شي، طبعة مينغ عن صوَر القدماء في التاريخ

كتب سو دونغ بو عدداً كبيراً من القصائد الغنائية. ويبلغ عدد القصائد الموجودة لدينا ما يزيد عن 300 قصيدة. وقد عالجت قصائده الغنائية عدداً كبيراً من المواضيع؛ مثل الكلمات الغنائية، والتفكير التاريخي، وخدمة البلاد، ومواضيع أخرى عديدة، وجميعها هدفت إلى توسيع مجال الشعر الغنائي.





الصورة 4-14 لوحة تمثّل لي تسوى واي، مملكة تشينغ، لوحة ملونة مرسومة على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

كانت لي تشينغ تشاو كاتبة اشتُهرت بالشعر الغنائي خلال عهد مملكة سونغ. وقد كتبت لي عدداً كبيراً من قصائد الشعر الغنائي للتعبير عن اشتياقها لزوجها الراحل، وعبّرت فيها عن الفراغ الذي تشعر به في حياتها من دونه. ومثال ذلك مطلع قصيدة شينغ شينغ مان: «أنظر وأبحث، باردةٌ من دون فرح، يائسة ومتأسفة. أتى الربيع، لكنه أصعب الأوقات للراحة». إنها القصيدة التي أصبحت أبرز قصيدة عبر العصور.

أي بعد موت زوجته بعشرة أعوام. مكث الشاعر في مي تشو (التي أصبحت الآن مدينة تشو تشينغ الواقعة في إقليم شاندونغ) بينما دُفنت زوجته في ماي شان (في إقليم سيشوان)، والتي تبعد ألف ميل عن المدينة. (الصورة 4-13)

اعتبر الشاعر أن النسيان صعب خلال السنوات العشر التي مضت على موت زوجته. وقد بلغ حزن الشاعر درجةً تخيّل معها أنه قد يلتقي زوجته المتوفاة بعد الموت. لكن، إذا حدث ذلك فلن يتمكن الزوجان من التعرّف إلى بعضهما بعضاً. وهل يمكننا أن نتصوّر المشهد المحزن عند ذلك!؟

قدّم الجزء الثاني من هذه القصيدة وصفاً لحلم الشاعر، أي عندما عاد إلى بلدته،

ورأى زوجته وهي تضع مساحيق التجميل، أي مثلما كانت تفعل عندما كانت على قيد الحياة. نظر الزوجان إلى بعضهما بعضاً، وذرفا خيوطاً متواصلةً من الدموع. لم يكن اللقاء في الحلم جميلاً كما كان متوقعاً. وكان الشاعر يأمل أن يتمكن الزمن من معالجة جرحه العاطفي، ولكنه اكتشف أن أفكاره التي لا نهاية لها والمتعلقة بزوجته قد ازدادت قوة. (الصورة 4-14)

إنّ التعبير غير المباشر والاختصار من المعايير المعتمدة في تقييم العمل الأدبي الصيني. لكنّ شعر المراثي والشعر الغنائي اللذين اقتبسنا منهما لا يتطابقان مع ذينك المعيارين. أما العواطف والكلمات الواردة في القصيدة فلا تُعتبر مختصرة. لكنّ بعض تلك الأبيات- مثل: « لا أعرف نهراً يستحق زيارتي بعد البحر الذي زرته، ولا سحاباً يضاهي جمال السُحُب التي تظلّل جبل وو»، و«عشرة أعوام مرّت. الأموات والأحياء يتقدمون ويبتعدون. لا أحاول أن أتذكر، لكن النسيان صعب»- الموجودة في تلك القصائد لا تزال تحظى بشعبية حتى هذه الأيام. لكن لماذا؟ إن المشاعر الصادقة أكثر أهمية من الشكل الأدبي بحدّ ذاته من ناحية جعل العمل الأدبي مؤثراً وجذاباً. هذه هي القيمة الحقيقية للأدب.



الحب العميق: قوة الحب تُنعش الموتى

ما هو الحب بحق السماء؟ الحب شديد القوة، حيث يدفع الشخص إلى الرغبة بالموت وعودة الشخص الآخر من الموت إلى الحياة. لكن الذين لم يعرفوا الحب قطّ لا يمكنهم فهم حقيقة هذا الأمر.

بايوني بافليون، تانغ شيان زو (الصورة 4-15)

شدّد يوان هاو ون (1190- 1257) الذي كان كاتباً في عهد مملكة يوان ذات مرة على قوة الحب الهائلة في شعره وقال: «ما هو الحب بحق السماء؟ والحب يجعل حبيبين في حالة استعداد للموت معاً». يُضاف إلى ذلك قيام عدد كبير من الكتّاب الصينيين والأجانب بتمجيد الحب الخالد في أعمالهم الأدبية.

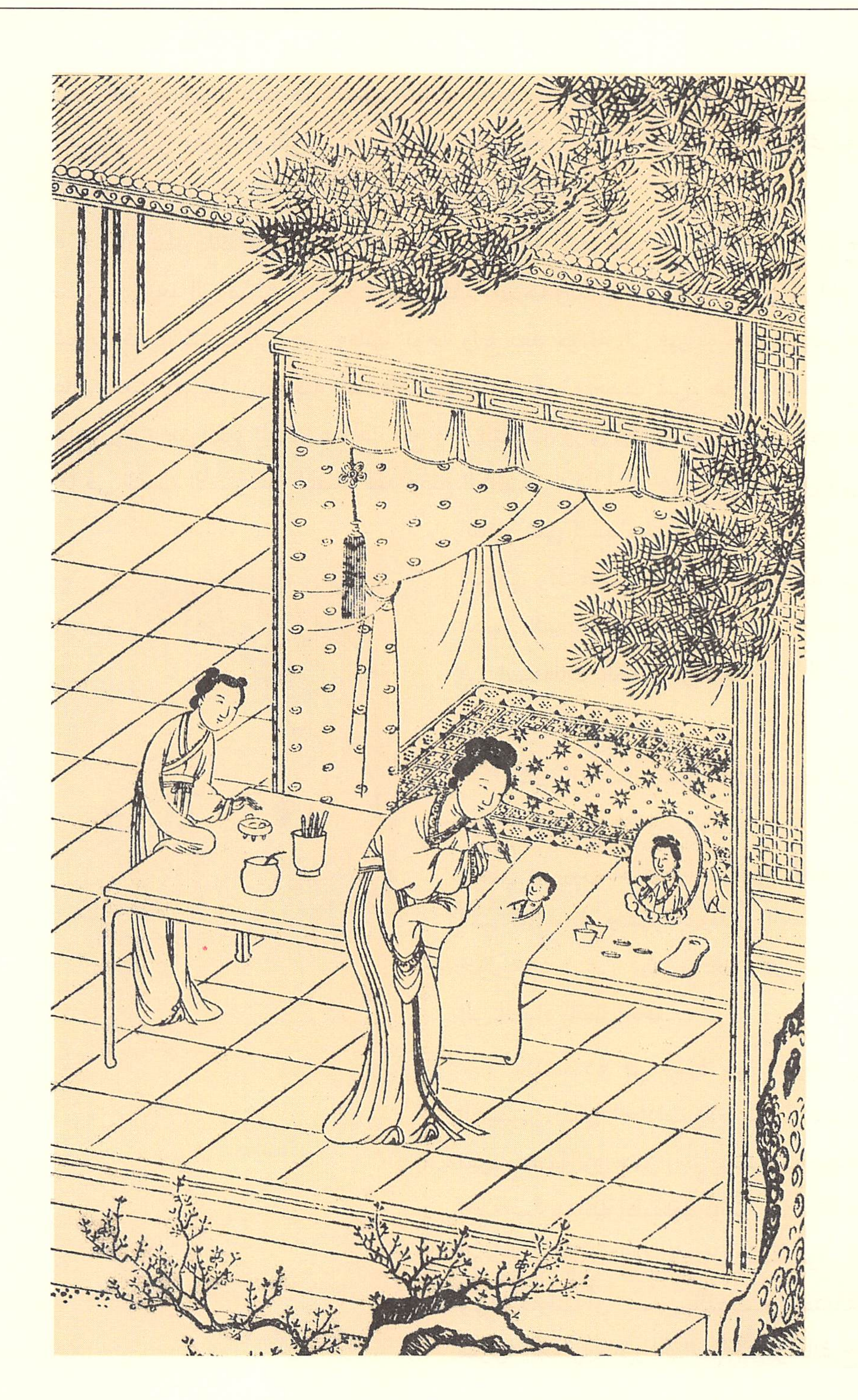
على سبيل المثال، روى شكسبير (1564-1616)، الكاتب المسرحي البريطاني الشهير، قصة حبٍ مؤثرة في مسرحية روميو وجولييت. وقد اختار البطل والبطلة في هذه المسرحية الانتحار لأنهما لم يتمكنا من الزواج.

يتمكّن الناس في الصين من ملاحظة وجود الحب المخلص في أسطورة شعبية تدعى «محبّو الفراشات». فقد تحوّل البطل والبطلة في هذه القصة بعد موتهما إلى فراشات، ثم بدأا بالطيران ذهاباً وإياباً على شكل أزواج. هل هذه القصص مؤثرة؟ وهل تعتقد أن الموت يمتلك تلك القوة الخارقة التي يتمتع بها الحب؟ يُحتمل أن الموت لا يمتلك تلك القوة.

يقدّم لنا الأدب الصيني مستوًى أعلى من الحب. إذ يبدو الحب قوياً جداً حيث يقوم بإحياء الموتى. ويُعتبر تانغ شيان زو (1550- 1616) ممثلاً لأولئك الكتّاب. ويعني ذلك أن الأدب الصيني يقدّم مستوى أعلى من الحب.

الصورة 4-15 لوحة تمثّل جناح بايوني، نسخة وو لين عن فترة وان لي، مملكة مينغ

شعرت دو لينيانغ بعد أن التقت ليو مينغ ماي في حلمها بهبوطٍ دائم في المعنويات، ولذلك بدأت بالاهتمام كثيراً بمظهرها، وأدركت أنها سوف تموت في غضون وقتٍ قصير. رسمت دو لوحة ذاتية لها، ثم دفنت أسرتها تلك اللوحة إلى جانب ضفة البحيرة بالقرب من باحة المنزل. التقطت ليو مينغ ماي في وقتٍ لاحق هذه اللوحة بالصدفة، وهكذا بدأت بقصة حب بين شبحٍ وإنسان.



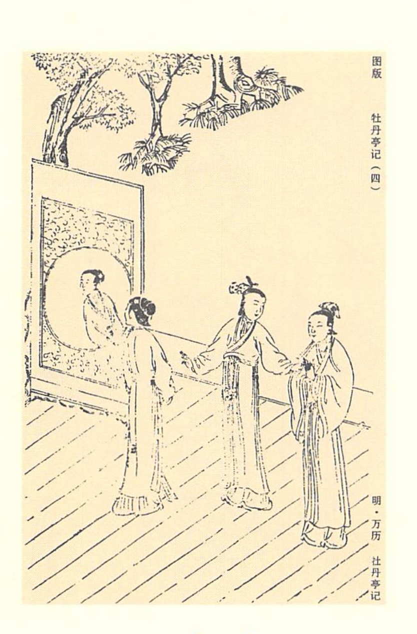


قام بعض الكتاب في القرن الثالث بإدخال بعض قصص الحب التي يصعب تصديقها إلى رواياتهم البوليسية. وقد كتب جان باو (؟- 336) ذات مرة قصة غريبة ضمّنها مجموعته التي أطلق عليها عنوان قصص الخالدين.

كان بطل تلك القصة يدعى وانغ داو بينغ، وهو الذي خدم في الجيش لمدة تسع سنين ولم يعد إلى منزله. أما زوجته فو يو فقد أجبرها والداها على الزواج من رجلٍ آخر. شعرت فو بالاكتئاب إلى حين وفاتها. توجّه وانغ بعد عودته إلى قبر فو وبكاها بصوتٍ عالٍ. بعد ذلك، بدا أن زوجته المتوفاة سمعت بكاءه، ثم حدث شيء هائل، فقد خرج شبح زوجته من القبر للقائه. عندها، فتح وانغ التابوت، ورأى فو أثناء عودتها إلى الحياة. أما في القسم الأخير من القصة، فقد وضع الكاتب تعليقاً: أدى حب وانغ العميق إلى التأثير على السماء لتُنقذ زوجته من براثن الموت. وقد ظهرت عدة قصصٍ مماثلة في الصين القديمة للتعبير عن رغبة الشعب في استعطاف السماء، وتغيير حياة الناس من خلال الحب العميق.

كان تانغ شيان تسو كاتباً مسرحياً في عهد مملكة مينغ، وكانت مسرحية جناح بايوني من بين المسرحيات الأربع الشهيرة التي كتبها، بل وأشهرها. وتدور المسرحية حول فتاة تدعى دو لينيانغ، والتي عادت إلى الحياة بفضل الحب.

وُلِدت دو في أسرة من الموظفين الرسميين، لكن العادات الاجتماعية كانت تفرض عليها الزواج من رجلٍ ينتمي إلى طبقةٍ اجتماعية مماثلة لطبقتها. كانت الفتاة تكره الوحدة والبقاء داخل المنزل طيلة الوقت، ولهذا حاولت أن تتسلى باللعب في حديقة منزلها الخلفية. غير أنها لم تشعر بالفرح



الصورة 4-16 رسم يمثّل منظراً من مسرحية جناح بايوني، نسخة وولين من فترة وانلي، مملكة مينغ

ذهبت دو لينيانغ بعد عودتها إلى الحياة لتقديم شهادتها أمام الإمبراطور لصالح زوجها ليو مينغ ماي. أراد الإمبراطور التحقق ممّا إذا كانت حيةً أم لا، فأمر أحد الأشخاص بالنظر إليها عبر المرآة، وذلك للتحقق ممّا إذا كانت شبحاً أم بشراً. وقد نجحت لينيانغ في هذا الاختبار بطبيعة الحال، وأقنعت الإمبراطور ووالدها في نهاية الأمر بقبول علاقتها مع ليو مينغ ماي.

لدى رؤيتها المناظر الخلابة التي يجلبها الربيع معه، ولم تخفّف تلك المناظر من شعورها بالوحدة، فازداد حزنها.

لكنّ الربيع الجميل والقصير ذكّر بطلة القصة بأوقات فراغها عندما كانت فتاة عازبة. شعرت دو بالإرهاق في ذلك الوقت، واستسلمت للنوم في الحديقة. التقت دو في منامها أديباً شاباً، ووقعت في حبّه، ولكنها أدركت عند استيقاظها أن ما مرّت به كان مجرد حلم. بعد ذلك، بدأت دو تفكّر في ذلك الشاب الأديب ليلاً ونهاراً إلى أن وقعت فريسة المرض الشديد وماتت بعد وقتٍ قصير.

الصورة 4-17 رسم يمثّل منظراً من مسرحية جناح بايوني، نسخة وولين من فترة وانلي، مملكة مينغ.

ركزت مسرحية جناح بايوني على وصف والد دو، لي مينغ ماي وآخرين، كما وصفت عودة لينيانغ إلى الحب علناً، وذلك لكي تبرهن للقرّاء أن الحب العميق يتجاوز الحياة والموت.

رسمت دو صورةً تمثّلها قبل وفاتها ودفنتها في مكان ما بالقرب من الجناح. وبعد مرور ثلاثة أعوام، مرّ أحد الأدباء الشبان بحديقة دو المهجورة، وعثر على اللوحة عندما كان في طريقه إلى العاصمة لتقديم امتحان يخوّله الحصول على وظيفة حكومية، وكان اسمه ليو مينغ ماي. وفي تلك الليلة، ظهر شبح دو والتقى ليو، فوقع الاثنان بحب بعضهما بعضاً وقررا الزواج.

قادت دو ليو إلى قبرها، وطلبت منه فتح تابوتها. عادت دو أخيراً إلى الحياة، وتزوجت سراً من ذلك الشاب. وقام ليو بعد انتهائه من تقديم الامتحان في البلاط الإمبراطوري بزيارة والد زوجته دو باو، وأخبره بما جرى بالكامل، لكن دو باو رفض تصديقه ووضعه في السجن.

في تلك اللحظة، وصل مبعوثٌ من الإمبراطور حاملاً معه أخباراً جيدة مفادها أن ليو حلّ في المركز الأول في الامتحانات التي جرت في البلاط الإمبراطوري. بعد ذلك، ارتحل دو باو بصحبة ليو مينغ ماي إلى بلاط الإمبراطور ليحكم بينهما. فبرهن



الإمبراطور بمساعدة المرآة السحرية أن دو لينيانغ ما زالت امرأة حية. وفي نهاية الأمر، أعلن الإمبراطور ليو مينغ ماي ودو لينيانغ زوجاً وزوجة، وهكذا عاشا بسعادة منذ ذلك الحين. (الصورة 4-16)

يجدر بنا أن نلاحظ هنا أن فتاةً تتحدر من أسرةٍ نبيلة، وعاشت في الصين القديمة لم تتمكن من التحكّم بمصيرها، وعلى الأخص بعد الزواج الذي رتّبه لها والداها. لكن دو لينيانغ، بطلة مسرحية جناح بايوني، أظهرت شجاعتها في الدفاع عن حبّها. يعني الموت نهاية كل شيء في معظم الحالات. أما بالنسبة إلى دو، فإن الموت كان يعني بداية جديدة؛ وذلك لأن قوة الحب أعادتها إلى الحياة. (الصورة 4-17)

كان واقع زواج البطلة من ليو لينغ ماي من دون وسيط يُعتبر عملاً غير أخلاقي في ذلك الوقت. لكن دو لم تعتبر ذلك عملاً مُخجِلاً، لذا اعترفت بكل شيء فعلته أمام الإمبراطور؛ وهو الحاكم الأعلى. وقد كانت تلك شجاعة لا نظير لها. كانت الفتاة عازبة في مجتمع إقطاعي، وكانت شجاعةً بما يكفي لمواجهة القواعد الاجتماعية الصارمة وحتى الموت.

علّق الكاتب المسرحي بالقول إن «الحب شيء قوي إلى درجة أنه يجعل الشخص الحي مستعداً للموت، والميت يعود إلى الحياة». وقد أظهرت الفتاة تصميمها على الاستمرار في حبّها. كانت القواعد الاجتماعية في الصين ظاهرة منذ الأزمنة القديمة، كما أن أثرها كان واضحاً في الأدب. وقد تمكّنت مسرحية جناح بايوني من خلال قصة مذهلة



الصورة 4-18 تشجّع الأغاني التي تتضمنها مسرحية جناح بايوني جوهر الجمال. صورة الاحتفالات الشعبية بالسنة الجديدة في أواخر عهد مملكة تشينغ، يانغ ليو تشينغ، تيان جين

تلامس قصة جناح بايوني قلوب الناس. فبالإضافة إلى حبكتها المعقدة، إن نهايتها السعيدة تجعل الناس سعداء أيضاً. كان موضوع «روميو سوف يحصل على جولييت، وسوف يعيش الجميع بسعادة» محط ترحيب لدى عددٍ لا يحصى من القراء منذ القِدم وحتى أيامنا هذه.



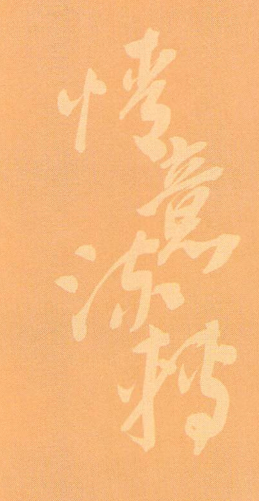
الصورة 4-19 لوحة حلم القصور الحمراء، شخصيات حلم القصور الحمراء بريشة جاي تشي، مملكة تشينغ

تُعتبر مسرحية حلم القصور الحمراء عملاً أدبياً عن الحب والعواطف، وذلك إلى جانب مسرحية جناح بايوني. أما قصة حب جيا باو يو ولين داي يو فهي بمثابة مأساة، لكن الإخلاص للحب صدم عدداً كبيراً من القراء.

ذات نهاية سعيدة، من وضع تركيزٍ أكبر على الحب بدلاً من السلوك الأخلاقي. (الصورة 4-18)

توضّحت قيمة المسرح الصيني التقليدي لدى عددٍ متزايدٍ من الناس، كما وجدت كل أنواع المسرحيات الصينية طريقها إلى خشبة المسرح؛ سواء أكانت داخل البلاد أو خارجها. ويمكننا القول إن مسرحية جناح بايوني، وبوصفها أوبرا من نوع كون تشو، هي أكثر المسرحيات شعبية.

تمكنت بطلة المسرحية دو لينيانغ- بالإضافة إلى الأداء الممتاز الذي قام به الممثلون والممثلات- بفضل موقفها من الحب، من جعل المسرحية شديدة التأثير. إننا نستمتع- من خلال عيشنا في مجتمع حديث- بحريةٍ أكبر في كل المجالات؛ بما في ذلك الحب. ويعني ذلك أنه لا يتعيّن علينا مواجهة الضغوط الاجتماعية الشديدة التي واجهها القدماء. لكن، هل يمكننا أن نشعر بالسحر الذي تتميز به مسرحية جناح بايوني بوصفها قصة حبٍّ مؤثرة، وأن نتأثر بعمق بجرأة البطلة في سبيل تحقيق سعادتها؟ (الصورة 4-19)



الأدب الصيني

الفصل الخامس

الحياة

الحنين: المسافر البعيد عن موطنه

شفرات حادة هي القمم إلى جانب النهر،
شفرات تقطع قلبي كلما اقترب الخريف.
لو أن أحداً يستنسخني ويبعثرني
فوق كل الجبال كي أنظر إلى موطني.

إلى أصدقائي وأفراد أسرتي في تشانغ آن، تأليف ليو زونغ يوان

كان من الشائع جداً في الصين القديمة أن يغادر الناس منازلهم بهدف القيام بمهمةٍ رسمية، أو بهدف السفر. وهذا هو سبب كثرة الحنين إلى الوطن في عددٍ كبيرٍ من الأعمال الأدبية. أما القصيدة التي اقتبسناها أعلاه فقد كتبها ليو زونغ يوان (الصورة 5-1)، وقد كان شاعراً شهيراً خلال حكم مملكة تانغ عندما أُنزلت رتبته في ليو تشو (التي تسمى الآن مدينة ليو تشو في إقليم غوانغ شى).

وُلد الشاعر في العاصمة تشانغ، وكان طموحاً جداً، إلا أن رُتبته خُفِّضت مرتين في حياته. ولكن بعد أن شغل وظيفة برتبةٍ عادية في يونغ تشو (التي أصبحت الآن مدينة يونغ تشو في إقليم هونان) لفترة عشرة أعوام، استدعاه الإمبراطور إلى تشانغ آن في العام 815. توقّع الشاعر الحصول على ترقية في منصبه، ولكنه شعر بخيبة أمل لأن رتبته

الصورة 5-1 نسخة من مجموعة ليو تسونغ يوان، مجموعة ليو تسونغ يوان مع خمسمئة ملاحظة، نسخة من المكتبة الكاملة في فروع الأدب الأربعة، مجموعة مكتبة ون يوان

كان ليو تسونغ يوان شهيراً مثل هان يو الذي كان زعيم حركة الأدب القديم في عهد مملكة تانغ. شارك ليو في الحركة الإصلاحية التي قام بها وانغ شو ون. ولكن عندما فشلت الحركة الإصلاحية، بدأت حياته المهنية الرسمية في التراجع، وهكذا تعرّض إلى تخفيض رتبته أكثر من مرة. لكن رواية ثمانية أماكن في يونغ تشو كُتِبت في فترة إبعاده إلى يونغ تشو.





الصورة 5-2 مشاهدة الجبل من الشاطئ المقابل (جزء)، بريشة تشاو تشونغ الذي عاش في مملكة يوان، رسم بالحبر على الورق، مجموعة متحف القصر

«كل شيء أراه، أراه بعواطفي».

لا تتمكن المناظر الطبيعية الجميلة من تغيير مزاج المُشاهِد. لكنّ المسافرين ينظرون إلى المنظر الطبيعي بحنين لأنه يذكّرهم بموطنهم. أما العاطفة في المشهد الطبيعي فتشتمل على المزج بين المشهد الطبيعي والمشاعر.

أُنزلت مجدداً. وكان ذلك هو السبب الذي جعله يعتبر كل القمم مثل شفراتٍ حادة تقوم بتقطيع قلبه، وذلك أثناء قيامه بتسلّق الجبل في يومٍ خريفي.

عجز الشاعر- وحتى عند وصوله إلى قمة جبلٍ عالٍ- عن رؤية موطنه الأصلي تشانغ آن، أي حيث يعيش جميع أفراد أسرته والإمبراطور أيضاً. يسهل علينا في هذه الحالة أن نعرف سبب فكرة الشاعر في استنساخ نفسه. يُحتمل أن هذه الفكرة هي الأمر الوحيد الذي يريح روح الشاعر التي تشعر بالخيبة بسبب بُعده الشديد عن موطنه. (الصورة 5-2)

تستمد المخيلة، بوصفها عاملاً أساسياً في الإبداع الأدبي، إلهامها من واقع الحياة. وقد كتب الشعراء المشهورون عدة أعمالٍ جيدة، لكن لم تُكتَب كل القصائد الرائعة بأقلام عمالقة الأدب. إن معظم القصائد التي جُمعت في كتاب الأغاني كتبها أناسٌ عاديون. ويُذكَر أيضاً أن بعض أبيات تلك القصائد لا تزال تُعتبر مدهشة؛ حتى إلى هذه

الأيام. «من قال إن النهر واسع؟ يتمكن الشخص من عبوره بواسطة طوف. مَن قال إن مملكة سونغ بعيدة جداً؟ أتمكن من رؤيتها عند وقوفي على رؤوس أصابعي».

يمكننا الاستنتاج من هذه الأبيات أن الشاعر قد فكّر في موطنه كثيراً عندما كان يسافر وحيداً. وكان من السهل عليه رؤية موطنه الأصلي عبر النهر، ولكنه كان عاجزاً عن العودة. لكن المخيّلة تساعد المسافر في بلادٍ غريبة على تقليص حدة حنينه. ويمكننا ملاحظة هذا التأثير ذاته في كتاب الأغاني أيضاً.

«أتسلق تلةً مغطاة بالأشجار وأنظر نحو موطني. تراءى لي أن والدي يقول لي: يا ابني الأصغر الحبيب، أنت منشغلٌ في الليل وفي النهار. احترس، وعُدْ إلينا». (الصورة 5-3)

اختار معظم الكتّاب وصفَ منظرٍ كئيبٍ للتعبير عن الحنين الذي يشعرون به. كان ما تشى يوان شاعراً في عهد مملكة يوان، وقد قام برسم منظرٍ كئيب كهذا في قصيدة أفكار خريفية، وهي قريبة جداً من قصيدة تيان جينغ شا:



الصورة 5-3 صعود الجبل (تشي هو شي تشي)، صور كتاب الأغاني بريشة جاو تشاي هي، مملكة تشينغ

كلمة تشي تعني التسلّق، بينما هو وتشي اسمان لجبلين. لكن، عندما يتسلّق المسافر الجبل، فإن ما يراه قد يكون جبالاً وأنهاراً عظيمة، أو حتى بحاراً أو غيوماً. وبغض النظر عن حدة بصره، فإنه يعجز عن رؤية موطنه. لكنّ هذا الحنين الطاغي يرافق كل خطوة وكل رحلة يقوم بها المسافر.





الصورة 5-4 نسخة مقلدة عن رسوم جدول جبلي بريشة دونغ يوان (جزء)، بريشة وانغ جيان، مملكة تشينغ، رسم بالحبر على الورق، مجموعة متحف القصر

كان أحد الغرباء يمشي وحيداً فوق جسرٍ صغير فوق النهر. لكن، هل ستتمكن البيئة الهادئة والساكنة من جلب السكينة الروحية إليه؟ أو حتى هل ستمكّنه من الاجتماع بأفراد عائلته؟

عرائش العنب مستندة على الأغصان اليابسة،

تنعق الغربان العائدة عند الغسق،

منازل قليلة مخبأة وراء جسرٍ ضيّق،

ينساب جدول مياهٍ بهدوء تحت الجسر،

وفي ممرٍّ صخري وسط الرياح الغربية

اقترب حصانٌ هزيل متثاقلاً،

غرُبت الشمس في الغرب،

وما زال المسافر مكسور الخاطر في نهاية العالم.

يتوافق هذا المنظر الكئيب مع الشعور بالوحدة الذي يشعر به المسافر مكسور



الصورة 5-5 رسم لقصيدة هان يو بريشة وانغ يوان تشي، مملكة تشينغ، رسم ملوّن مرسوم على الورق، مجموعة متحف القصر

قام الفنان برسم معاني جملتين واردتين في قصائد تشونغ نان شان من تأليف هان يو:

«تطوف الغيوم في السماء،

مثل الحواجب المقلّمة بالضبط،

واللون الأخضر يجعل كل شيء يبدو جديداً».

ظهر في الرسم جسرٌ صغير وجدول مياه وكوخ، لكنّ الرسم يخلو من أي إشارة للحنين إلى الوطن. أما الجبل الظاهر في البعيد والغيوم التي تطوف في السماء فتجعل الإنسان مرتاحاً ومنعزلاً عن الآخرين.

الخاطر (الصورة 5-4). وقد قال وانغ غو وي ذات مرة- وهو الذي كان أديباً عظيماً في أواخر عهد مملكة تشينغ- إن ذلك يعني أن المسافر الوحيد والبعيد عن موطنه نادراً ما كان يعتبر المناظر التي تحيط به مبهجةً ومليئة بالحياة. (الصورة 5-5)

كان نالان شينغ دي (1655-1685) (الصورة 5-6) واحداً من أشهر شعراء الشعر الغنائي في عهد مملكة تشينغ. زار الشاعر شينغ جينغ (والتي أصبحت الآن مدينة شينغ يانغ في إقليم لياو نينغ) برفقة الإمبراطور كانغ شي، وذلك بهدف حضور مناسبة إحياء ذكرى. لم يتمكّن الشاعر من النوم خلال أسفاره. وكل الجبال، والأنهار، والثلوج، والرياح التي مرّ بها لم تعنِ له، سوى أنها زادت من حنينه لموطنه. والواقع هو أن كل زهرة أو





الصورة 5-6 لوحة تمثّل نالان شينغ دي، لوحات وسيّر الأدباء في مملكة تشينغ، مملكة تشينغ

كان نالان شينغ دي، والذي اشتُهر باسم رونغ رو، ضابطاً رفيعاً في الحرس الشخصي. رافق نالان الإمبراطور في أسفاره عدة مرات. وكانت قصائده التي تنتمي إلى الشعر الغنائي ذات مستوى عالٍ، كما كان يُعتبر واحداً من بين ثلاثة من رواد الشعر الغنائي في مملكة تشينغ، وذلك بالإضافة إلى تشو يي زون وتشين وي سونغ. لكن، كان من المؤسف أن يموت هذا الكاتب البارز بسبب المرض عندما كان في الثلاثين من عمره.

صوتٍ مألوفٍ في بلاد الغربة يذكّر المسافر بموطنه. يمكننا إظهار الأمر من خلال هذه القصة التاريخية المعروفة جيداً في الصين.

تقاتل شيانغ يو وليو بانغ في أواخر حكم مملكة تشين؛ وذلك بوصفهما زعيمَي أكبر جيشين متمردين يتصارعان من أجل السلطة الحاكمة في الصين. وقد حوصر جيش شيانغ بعد ذلك. أراد ليو بانغ خداع خصمه، فأمر جميع جنوده بتأدية أغانٍ بلهجة تشو (مملكة شيانغ). وتبيّن بعد ذلك أن هذه الحيلة فعّالة، وذلك لأن معظم جنود شيانغ كانوا من تشو، وهكذا شعروا بالحنين إلى موطنهم بعد سماعهم هذه الأغاني المألوفة لديهم، وخسروا المعركة.

عبّر بعض الأشخاص عن حنينهم لمواطنهم بطريقةٍ أقرب إلى السلبية، أي مثل لي يو. استمر لي يو، وهو الإمبراطور الذي أُلقِيَ به في السجن بالتفكير في بلاده التي خسرها، وفي الأيام الجميلة الماضية التي قضاها. وقد كانت الأحلام هي السبيل الوحيد أمامه لنسيان كل الأحزان- ولو مؤقتاً- التي يولّدها كونه أسيراً في بلادٍ غريبةٍ عنه. لكننا نعرف بطبيعة الحال أن السبب الرئيس لشعوره بالحنين كان خسارته لبلده، وسجنه كأسير. وبالرغم من حزن لي يو الشديد، ما زلنا نعثر بين أشعاره على بعض قصائده المؤثرة والجميلة. (الصورة 5-7)

يتواجد في الصين عدد كبير من الأمثال التي تتعلق بشدة بالحنين الذي يشعر به الناس. ويعتبر الصينيون أن الموطن الذي وُلِدوا فيه هو المكان الأفضل لهم على الدوام. لكنّ تعلّقهم بمواطنهم يستمر بعد أن يضطروا إلى مغادرتها لمختلف الأسباب. ويُضاف إلى ذلك أن عودة الرجل إلى موطنه في أواخر أيامه تُعتبر نعمة، وكذلك تُعتبر الوفاة في بلاد الغربة بمثابة سوء طالع. لكنّ الأدب الصيني يوفّر لنا طريقة جيّدة لمعرفة الشعب

簾外雨潺潺春意闌珊羅衾不耐五更寒夢裏不知身
是客一晌貪歡　獨自莫憑闌無限江山別時容易見
時難流水落花春去也天上人間
自南唐後。俱用此調。○石孝友此調。前後用四兒字
爲叶。乃狡獪伎倆。非另有此體。即如獨木橋之類耳。
汲古刻李之儀首句。霞卷雲舒。乃卷字下落一字。非
另體也。觀其後段。仍是五字可知。與後柳詞不同。○
按此調。一名賣花聲。而謝池春。又別名賣花聲。不可
混也。圖譜改調名。并前唐調。亦曰賣花聲。無理。○沈
氏選吳邃巖一首。後第三句。已飄零一片減嬋娟。乃
誤多一已字。沈注云。後段多一字。則似有此體矣。謬。
萬氏注汲古刻李之儀詞首句霞卷雲舒乃卷下
落一字非另體也按杜壽域有簾外微風一首亦
前四後五則此句並
非落字實另有一體

الصورة 5-7 مقاربة لانغ تا شا من تأليف لي يو، ألحان الشعر الغنائي، وان شو، مملكة تشينغ

ازداد العمق الذي يتميّز به شعر لي وعلى الأخص بعد استسلامه. ويُحتمَل كثيراً أن حياة السجن التي عاشها الشاعر جعلته يشتاق إلى الماضي في كل لحظة. وهكذا، تتحوّل كل زهرة، وكل عشبة، وكل مبنى وكل جناح إلى هدف للتعبير عن حزنه.

الصيني والحنين الذي يشعر به. والواقع هو أن تلك الأعمال الأدبية تعكس مدى عمق المشاعر التي يكّنها الصينيون تجاه مواطنهم التي وُلِدوا فيها.

يمكننا القول إنه حيثما يتواجد شخصٌ صيني يتواجد الحنين معه؛ وهو الأمر الذي يلاحظه الناس في عدد كبير من المدن الصينية المتواجدة في أنحاء العالم كافة، وفي وجود المطاعم الصينية. ويُحتمل أن هذه طريقةٌ أخرى يعبّر الصينيون بواسطتها عن حنينهم لموطنهم أثناء عيشهم في بلادٍ أجنبية. يمكننا القول أيضاً إن أي شيء يتعلّق بالصين- بما في ذلك الرسم الصيني التقليدي، والأوبرا المحلية، أو حتى طبقٌ من الأرز المقلي- يدفع الصينيين إلى التفكير بالصين؛ بلادهم الأم البعيدة عنهم.



الحرب: جنود في ميادين المعارك

جلنا السماء بأنظارنا، باحثين عن ضوء مشعل الحرب،
في يوم صافٍ فوق قمة الجبل؛
ارتوت خيولنا من النهر الذي يشكّل حدّاً وسط ضوء الغسق الأصفر،
تعالت أصوات طبول الحراسة في الأجواء المحملة بالرمال،
كأن أميرة الهان تعزف على القيثارة واصفةً حزنها الذي لا ينتهي.
ثلاثة آلاف من الأميال تفصلني عن موطني، ولا أرى سوى المعسكرات،
والغيوم الملبدة تخيّم بثلوجها على الصحراء الفسيحة.
أسمع صرخات الإوز البري الحزينة والمخيفة في طيرانها من ليلة إلى ليلة،
يختزن جنود التتار دموعاً كثيراً لذرفها.
سمعنا أن ممر يو مين ما زال تحت الحصار،
وسنغامر بأرواحنا بعد قليل من فوق عرباتنا الحربية.
ندفن تحت رمال هذه الصحراء عظاماً لا حصر لها،
لكن نترقب رؤية عرائش الكروم في السهول الوسطى.

أغنية حربٍ قديمة، لي تشي

كانت الحروب أمراً لا مفر منه في الصين القديمة، هذا إذا كان الهدفُ قلبَ سلالةٍ حاكمة، وكذلك إخمادَ الاضطرابات الاجتماعية، أو مقاومةَ المعتدين الأجانب. ويعكس الأدب واقع الحياة، ولذلك كان من الطبيعي بالنسبة إلى الكتّاب الصينيين والأجانب على السواء الكتابة عن الحروب.

نلاحظ عند قراءتنا الملاحم التي كتبها هوميروس، مثل الإلياذة والأوذيسة، مقداراً كبيراً من البطولات الرومانسية، أو مشاهد من الحروب الطاحنة؛ وهي خصائص نموذجية في الملحمة الغربية. أما بالنسبة إلى الكتّاب الصينيين، فإنهم يركّزون أكثر على الاستكشاف العميق للحروب والأبطال. وهذا هو السبب الذي يجعل معظم الأعمال الأدبية الصينية المتعلقة بالحرب مليئةً بالعاطفة أو الحزن. يمكننا أخذ القصيدة التي اقتبسناها أعلاه كمثال.

فقد وصف الشاعر في هذه القصيدة المجهود الذي يبذله الجنود، وميادين



الصورة 5-8 السيّدة تشاو جون عند عبور الحدود (جزء)، بريشة جونغ سوران الذي عاش في مملكة جين، رسم على الورق، غاليري فنون أوساكا، مجموعة اليابان

إن جميع القصص المتعلقة بأسطورة وانغ تشاو جون قصص مأساوية. ولكن، إذا تزوجت امرأة من أجنبي لأسبابٍ سياسية فسوف تتحول حياتها إلى عذاب. أما إذا كانت دولة ما قوية، وجاء إليها رجالٌ من مختلف الأمكنة كضيوف، وبكل احترام، فهل كان مصير تشاو جون سيتغيّر؟

المعارك الواسعة، وشراسة الحرب، ولكن تلك العناصر لم تكن نقطة التركيز الرئيسة في القصيدة. ففي الواقع، أراد الشاعر التعبير عن مشاعره العاطفية من خلال أوصافٍ كهذه، كما توقّع من قرّائه التفكير في الحرب بشكلٍ أعمق.

عسكَر الجنود على الحدود، وسمعوا «أميرة الهان أثناء عزفها على القيثارة (آلة موسيقية صينية) خلال وصفها الألم الذي لا حدّ له». لكن، ما الذي جاء بالأميرة إلى ميدان المعركة؟

أرسل أباطرة الهان الأميرات إلى حكّام الهون للزواج بهم، وذلك خلال فترة مملكة الهان، ومن أجل كسب ود الهون، وتجنّب الحروب المتكررة معهم. وكانت سياسة الزواج هذه تؤدي إلى تعايشٍ سلمي مؤقت بين مملكة الهان والغزاة المحتملين، ولكنها كانت بمثابة كارثة بالنسبة إلى الأميرات؛ أي مثلما حدث مع وانغ تشاو جون وليو شي جون. لم يكن لدى الأميرتين أي خيار غير السفر مسافة طويلة جداً إلى مناطق بعيدة، والعيش



هناك حتى الموت. ولا عجب في هذه الحالة أن يُسمع عزف القيثارة الذي لا نهاية له وسط الرياح والثلوج. (الصورة 5-8)

لم يعد بالإمكان العثور على أي جندي في ميدان المعركة الكبير والشاسع. ولم يُسمع في ذلك الوقت سوى أنين الإوز البري الشرس، وأصوات جنود التتار الذين كانوا يذرفون الدموع. لكن، ماذا كسبت مملكة الهان من تلك الحرب التي بدت وكأن لا نهاية لها؟ لم تحصل المملكة إلا على عرائش العنب التي زرعها مواطنوها في بلادهم.

لكن، يحق للقراء أن يطرحوا هذا السؤال: هل هذه هي النتيجة الوحيدة للحرب؟ وهل يستحق الحصول على عرائش عنب بلادٍ أخرى كل تلك التضحيات؟ لكن كلّما ازداد تفكيرنا في هذه القصيدة ازداد إحساسنا بعواطف الشاعر الجياشة. هذا هو المنظور الفريد الذي اختار الشعراء الصينيون الكتابة عن الحروب من خلاله.

يمكننا إرجاع هذه الطريقة الخاصة بالكتابة عن الحروب إلى ما قبل 2,500 عام. ويُمكننا تقسيم كتاب الأغاني الذي يُعتبر أول مجموعة لقصائد الشعر إلى ثلاثة أقسام: فينغ، ويا، وسونغ.

تشير فينغ إلى الأغاني الشعبية التي جُمعت من مختلف أقاليم الصين القديمة. وتشمل يا قصائد سياسية كتبها أفراد من الطبقة الراقية والأدباء، بينما تشير سونغ إلى القصائد المتعلقة بالأضاحي، أو الطقوس الدينية. أما الأعمال المجموعة في فينغ فقد كانت عاطفيةً للغاية، وهكذا وصفت إحدى القصائد المشاعر الكئيبة لأحد الجنود؛ وهي المشاعر التي نتجت عن فراقه عن زوجته.

«قطعنا وعداً بالبقاء معاً إلى الأبد، لكن قَسَمنا هذا أصبح الآن بلا معنى. لا يمكنني التأكد- وبوصفي جندياً- أنه يمكنني العيش حتى اليوم الذي يمكننا فيه الالتقاء مجدداً».

وقد عبّر عملٌ أدبي آخر عن مشاعر مماثلة. دأب أحد الجنود العائدين من ميادين المعارك على التفكير بكل شيء موجودٍ في بيته، مثل أشجار التوت، ودود الحرير، والعرائش الذابلة، وحتى العناكب. لكنّ أكثر ما اشتاق إليه الجندي كان زوجته بطبيعة الحال.

«تركتها بعد أن تزوجنا. كيف هي الآن يا ترى؟ أيمكننا أن نكون قريبين من بعضنا بعضاً مثلما كنا من قبل، وبعد فترة الانفصال الطويلة؟».

لكن الجنود من أمثاله لم يكترثوا بما تعنيه الحرب للبلاد، أو بالشرف الذي يُمكن أن تجلبه الحرب لهم. لم يعرف أولئك الجنود أن الحرب قاسية لأنها قد تعني انفصالاً مؤقتاً، أو حتى دائماً، عن زوجاتهم، ومن تبقى من أفراد عائلاتهم.

لكن بالمقارنة مع الناس العاديين الذين فكّروا أكثر بشأن الموت أو الانفصال- وهي الأمور التي تسبّبها الحروب- نستطيع القول إن الشعراء أو الكتّاب الصينيين القدماء قيّموا الحروب من منظور أوسع نطاقاً. وقد كان أولئك الشعراء والكتّاب يميلون إلى انتقاد مجتمعاتهم من خلال إنشائهم خلفية تاريخية لذلك الانتقاد. فبهذه الطريقة، تمكّن الشعراء والأدباء من تجنّب استفزاز الإمبراطور الحاكم، كما جعلوا القصائد محفزةً للتفكير. أما القصيدة التي حملت عنوان أنشودة حرب العربات والتي ألّفها دو فيمكننا أخذها كمثال. (الصورة 5-9)

العربات الحربية تزمجر
وخيول الحرب تصهل.
كل واحد منكم يحمل قوساً وسهماً في حزامه.
يحملق فيكَ الوالد والوالدة والابن والزوجة عند مغادرتك،
إلى أن يغمر الغبار الجسر وراء تشانغ آن.
يركضون معك، ويبكون، ويتمسكون بكمّيك،
حتى يصل عويلهم إلى أعالي السحاب.



الصورة 5-9 رسم يمثّل دو فو، طرائق الرسم في مكتبة شي ينغ، نسخة ليانغ شينغ بياو خلال فترة كانغ شي، مملكة تشينغ

استخدَمت أبياتٌ عديدة ألّفها دو فو الماضي من أجل انتقاد الحاضر، والكشف عن التأثيرات السلبية التي تتركها الحرب على حياة الناس. أما مشهد الوداع في قصيدة أنشودة العربات الحربية فمثير. ولم يعمد دو فو في قصائده إلى الفصل بين الأدب والواقع، كما أن عظمته تكمن في اهتمامه بمصير البلاد وحياة الشعب.



وصف الشاعر في بداية هذه القصيدة صورة للعائلات التي تصطف لوداع جندي ذاهبٍ إلى ميدان المعركة. كوّن الشاعر خلفيةً تاريخية، والتي يُفترض بها أن تكون في مملكة هان. وقد تسبّبت الحروب المتكررة والضرائب الباهظة بمغادرة الرجال لمنازلهم، وهكذا فرغت قرىً عديدة. اعتبر الناس في مجتمعٍ كهذا أنه «من الأفضل بكثير أن تكون لديك ابنةٌ يتزوجها جارك، في حين يقبع شبابنا تحت التراب». تنتهي القصيدة برؤية بائسة: «فوق العظام القديمة بيضاء اللون، تنتحب أشباحٌ جديدة مع الأشباح القديمة، ويقوى عويلها في يومٍ عاصف».

يشير إمبراطور الهان في هذه القصيدة إلى الإمبراطور شوان تسونغ الذي حكم في عهد مملكة تانغ. كان الإمبراطور شوان حاكماً جيّداً في البداية، أما في سنواته الأخيرة فقد تسبّب بحروب عديدة مع الأقليات العرقية، وهكذا عاش الناس حياةً بائسة (الصورة 5-10). وقد ظهرت في ذلك الوقت عدة أعمالٍ أدبية استندت على خلفياتٍ تاريخية كهذه، كما هدفت إلى انتقاد استخدام شوانغ تسونغ الأعمى للقوة العسكرية (الصورتان

الصورة 5-10 حفلة ربيع السيّدة غو، بريشة تشانغ شوان خلال حكم مملكة تانغ، نسخة مملكة سونغ، لوحة ملونة مرسومة على لفافة حريرية، مجموعة متحف لياوننغ

كانت السيّدة غو شقيقة يانغ يو هوان. وقد تلقت أسرتها عنايةً طيبة لأن يانغ هوان كان على علاقةٍ وثيقة بالإمبراطور. أما شقيقها يانغ غو تشونغ فقد أصبح رئيساً للوزراء، بينما حصلت كل من شقيقاتها الأكبر سناً منها على لقب سيّدة. عاش الجميع حياة شديدة الترف. أما ثورة آن لو شان التي وقعت في وقتٍ لاحق، فقد كانت أسبابها تعود إلى رضى الإمبراطور وثقته بيانغ.





الصورة 5-11 العودة من الصيد (جزء)، بريشة هو شيانغ في مملكة لياو، مجموعة تايبيه في متحف القصر القومي

«إن قلة التربية التثقيفية تُنتج محاربين على درجة من الغرابة». وقد اعتبر الأدباء الصينيون أن الكونفوشيوسية بإمكانها جلب السلام والاستقرار إلى البلاد. ولكن بسبب عدم تطبيق القواعد الأخلاقية في أنحاء العالم، اعتبروا أن الأجانب سوف يقومون بغزو الصين.

5-11، 5-12). تُعتبر القصيدة التالية نموذجاً آخر يقوم بانتقاد السياسة السائدة في عصرها من خلال تكوين خلفية تاريخية لها.

هذا القمر السائر فوق معبر الجبل ما زال كما كان في القديم،
والرجال الذين ذهبوا لحراسة المعبر لم يعودوا من هناك
حيث الجنرال الطائر ما زال هنا في مدينة التنين،
وحيث لا يجرؤ أي جواد للتتار على عبور الحدود الشمالية.

على الحدود، من تأليف وانغ تشانغ لينغ



اعتبر بعض النقاد الذين عاشوا خلال فترة حكم مملكة مينغ أن هذه القصيدة أفضل رباعية ذات سبعة أحرف. ويُضاف إلى ذلك أن وانغ تشانغ لينغ كان يحمل لقب «سيّد الرباعيات ذات الأحرف السبعة». وقد عمد الشاعر في هذه القصيدة إلى مزج المشهد الحدودي مع الأحداث التاريخية.

كانت الحروب حتمية، ولم يتمكن الجنود من العودة إلى ديارهم؛ سواء أكان ذلك في عهود سلالات تشين، أو هان، أو تانغ. لكن، لماذا كان من المستحيل إلحاق الهزيمة بالغزاة الذين يقتحمون الحدود؟ لم يكن هناك أي جنرالٍ يفوق لي غوانغ في الشجاعة، وهو الذي كان قائداً عسكرياً بارزاً خلال عهد سلالة هان، وكان يُعرف بلقب الجنرال الطائر. لكن، ماذا كان السبب الحقيقي؟ كان الناس يستغرقون في التفكير العميق في الحروب عند قراءتهم قصائد كهذه، وهكذا كانوا يحصلون على فهمٍ أفضل للعواطف الجياشة التي تبثّها أبياتها.

الصورة 5-12 رحلة صيد يوان شي تسو (جزء) في مملكة يوان، لوحة بالألوان مرسومة على لفافةٍ حريرية، مجموعة تابيه في متحف القصر القومي

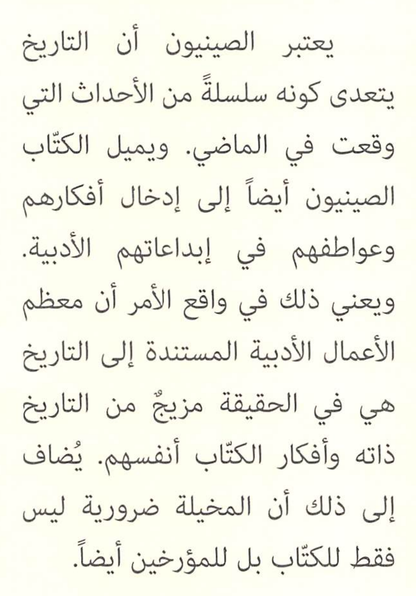
تسبّب ضعف الروح القومية في فتح المجال أمام الغزو الأجنبي. فقد كانت الأوضاع في أخطر حالاتها في أيام مملكة سونغ. إذ قام لياو، وجين، والمغول بالغزو بشكل متتالٍ، وهكذا سقطت مملكة سونغ الشمالية ومملكة سونغ الجنوبية.



تاريخ: إبداع أدبي مع المخيّلة

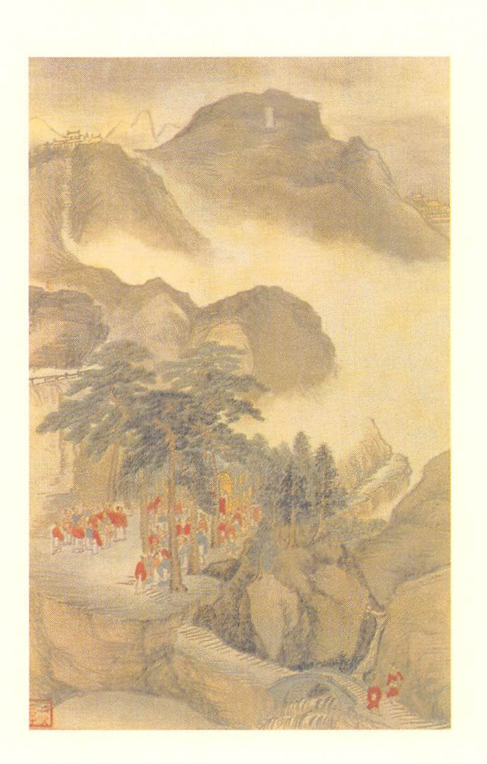
محظية يو قتلت نفسها بالقرب من نهر وو جيانغ،
واندلعت معركة شرسة ذات يوم فوق الصخور الحمراء.
حرس الجنرال بان تشاو ممر يو مين حتى مماته،
ومعاناة الناس كانت عظيمة خلال حكم تشين وهان.
ليس لي إلا التأوّه لأنني شاعر ضعيف.

التأمل في التاريخ، تأليف تشانغ كي جيو



يعتبر الصينيون أن التاريخ يتعدى كونه سلسلةً من الأحداث التي وقعت في الماضي. ويميل الكتّاب الصينيون أيضاً إلى إدخال أفكارهم وعواطفهم في إبداعاتهم الأدبية. ويعني ذلك في واقع الأمر أن معظم الأعمال الأدبية المستندة إلى التاريخ هي في الحقيقة مزيجٌ من التاريخ ذاته وأفكار الكتّاب أنفسهم. يُضاف إلى ذلك أن المخيلة ضرورية ليس فقط للكتّاب بل للمؤرخين أيضاً.

فعلى سبيل المثال، كتب سيما تشيان قصة عن شيانغ يو، وذلك ضمن كتابه سجلات تاريخية. توجّه شيانغ يو عندما كان فتى صغيراً إلى الشارع مع عمّه، ورأى تشين شي هوانغ (وهو أول إمبراطور في سلالة تشين) في أحد الاستعراضات الضخمة (الصورة 13-5)، فأبلغ شيانغ عمّه أن الإمبراطور



الصورة 5-13 أول إمبراطور في تشين يمارس طقوس عبادة السماء والأرض في جبل تاي، رسوم القصص بريشة وو لي، مملكة تشينغ، رسم ملوّن على لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

أعلن تشين شي هوانغ نفسه الإمبراطور الأول. ولكنه لم يكتفِ بإعادة توحيد الصين بأكملها بالقوة، وإنما تخلّص أيضاً من حالة الانقسام التي كانت سائدة في البلاد خلال فترة الأمم المتحاربة. وبالرغم من أنه لم يحكم أكثر من خمسة عشر عاماً، إلا أنه كان جريئاً وشجاعاً جداً. ويُحتمل أن يكون هذا هو السبب في تكرار ذكره في الأدب الصيني.

سوف يُستبدل قريباً. لكن عند قراءة هذه القصة التاريخية لا يعود بإمكاننا التأكد ممّا إذا كان شيانغ قد قال تلك الجملة بالفعل أم لا. (الصورة 5-14)

أدخل سيما شيان في هذا الكتاب التاريخي ذاته قصةً عن يو رانغ الذي كان مجرماً في أواخر فترة الربيع والخريف، وكان معروفاً بإخلاصه لسيّده. أراد يو الانتقام لسيّده، فأقدم على تشويه نفسه، والتخفي بزي متسولٍ في الشوارع. ولكن عندما تعرّف عليه صديقه حدّثه كثيراً عن إخلاصه. لكن لا يمكننا البرهنة على صحة هذه القصة. فهل تحدّث يو مع صديقه بالفعل؟ وهل قام أحد المساعدين حقاً بتدوين تلك المحادثة التي جرت في الشارع؟ يُحتمل أن هذا لم يحدث، لكن هذه هي قوة المخيّلة التي يحتاج إليها كلّ من الكاتب والمؤرخ، وذلك في سياق أغراضٍ مختلفة. ويلجأ الكاتب إلى المخيلة الجامحة للتعبير عن العواطف، بينما يحاول المؤرخ استكشاف التاريخ، وتفسيره بمساعدة المخيلة.

التاريخ مرآة. كان سيما غوانغ (الصورة 5-15) مؤرخاً وسياسياً شهيراً في مملكة سونغ الشمالية، وهو الذي ألّف كتاباً تاريخياً خالداً بعنوان التاريخ مرآة. ويعني هذا العنوان حرفياً أنه بإمكان الحكام استخدام التاريخ كمرآة في حكم البلاد. هذه هي قيمة



الصورة 5-14 رسم يمثّل شيانغ يو، طبعة مينغ من لوحات القدماء في التاريخ

كان شيانغ يو ماهراً في الكونغ فو والقتال، وكان كريماً وجليلاً. ولكن بالرغم من أنه هُزم على يد ليو بانغ الذي كان أول إمبراطور في مملكة الهان أثناء الصراع الذي دار بينهما، إلا أن قصصه كانت أسطورية.



الصورة 5-15 رسم يمثّل سيما غوانغ، طبعة مينغ من لوحات القدماء في التاريخ

ترأس سيما غوانغ حكومةً تتمتع بصلاحيات قوية. وقد كان الرجل محافظاً تماماً، كما عارض مراراً وتكراراً وانغ آنشي. يُضاف إلى ذلك أنه جمع كتاب التاريخ مرآة، ويُعتبَر الكتاب أول تأريخ زمني يسجّل الأحداث التي جرت في ست عشرة سلالةً؛ بدءاً من تقسيم جين في فترة الربيع والخريف، وامتداداً حتى مملكة تشو في خمس سلالات.



التاريخ. وكان عددٌ من الكتّاب الصينيين القدماء واعين تماماً لأهمية التاريخ، وهكذا عبّروا عن أفكارهم السياسية مراراً من خلال سرد قصصٍ تاريخية، أو من خلال انتقاد سياسات السلالات السابقة.

كان جيا يي أديباً وناقداً سياسياً في مملكة الهان الغربية. وقد كتب ذات مرة مقالةً سياسية موجزة بعنوان حول سلالة تشين. وأشار في تلك المقالة إلى أن الفظائع التي ارتكبها الحكام هي السبب في انهيار سلالة تشين التي كانت قويةً جداً ذات مرة. يا لهذا الرأي القوي! وقد كتب جيا تلك المقالة لتذكير إمبراطور الهان بأهمية الحكم الصالح. ويعني ذلك أن جيا شدّد على حل المشاكل السياسية الراهنة من خلال انتقاد الماضي، وذلك بدلاً من الاكتفاء بسرد القصص.

كان أو يانغ شيو أديباً ومؤرخاً بارزاً في عهد مملكة سونغ الشمالية، وقد قام بدوره في انتقاد السياسات الراهنة من خلال التاريخ. وعاد أو يانغ في المقالة التي كتبها بعنوان حول الزُمَر (أو المجموعات) إلى زمن ياو وشون (أي أوائل الأباطرة المحترمين في الصين القديمة)، وذلك للرد على خصومه السياسيين. أشار الكاتب عن طريق اقتباس الحقائق التاريخية إلى الفروقات القائمة بين زمرةٍ من الرجال الشرفاء وأخرى من العمال العاديين، وهكذا برّر صوابية تأليف الأحزاب. (الصورة 5-16)

يُضاف إلى ما أوردناه أعلاه أن الوالد والأبناء- وهم كتّاب مقالات مشهورون، أي سو شون (1009-1066) وولداه سو شي وسو تشي-



الصورة 5-16 نصّ بخط اليد من قصائدي وكتاباتي النثرية، تأليف أو يانغ شيو، مملكة سونغ، كتابة على الورق، مجموعة متحف لياوننغ الإقليمية

كان أو يانغ شيو- الذي كتب تحت اسم يونغ شو ويلقّب بالثمِل- موظفاً حكومياً شهيراً في مملكة سونغ الشمالية. وكان يهتم كثيراً بوالدٍ وأبنائه من عائلة سو (سو شون، وسو شي وسو تشي). شجّع أو يانغ عند توليه منصبه على اعتماد أسلوب هان يو في الكتابة، كما كتب عدة مقالات بسيطة وعملية على طريقة النثر القديم، وساهم أيضاً في حركة النثر القديم في مملكة سونغ الشمالية.

كانوا ماهرين جداً في التعليق على الأحداث الراهنة من خلال انتقاد السلالات السابقة. وذات مرة، كتب الثلاثة مقالاتٍ سياسية حملت العنوان ذاته حول الممالك الست، وكانت المقالة التي كتبها سو شون هي الأكثر إثارةً للانتباه.

أشار سو في تلك المقالة إلى أن الممالك الست لم تهلك بسبب عدم شجاعة جنودها، أو لأن أسلحتها لم تكن متقدمة بما يكفي، بل كان السبب الرئيس هو الرشاوى التي كانت تقدّمها تلك السلالات بصورةٍ متكررة لمملكة تشين، والتي كانت على شكل أراضٍ وأموالٍ نقدية. كان سو في الظاهر ينتقد الممالك الست، ولكنه في واقع الأمر كتب تلك المقالة لتذكير إمبراطور سونغ الشمالية بضرورة تعلّم ذلك الدرس من التاريخ.

يمكننا العثور على التاريخ في الشعر، وهكذا عبّر بعض الشعراء الصينيين القدماء عن أفكارهم أو عواطفهم من خلال أحداثٍ تاريخية معيّنة. فقد كان دو مو (803-852) شاعراً شهيراً في مملكة تانغ، ووصف على سبيل المثال معركة الجرف الصخري الأحمر بطريقةٍ خاصةٍ جداً في القصيدة التالية، وهي بعنوان قرب الجرف الصخري الأحمر: (الصورة 5-17)

على رمح لم يصدأ بعد فوق الرمال
وجدت رمزاً لامعاً لمملكةٍ قديمة...
الريح ساعدت الجنرال تشو يو،
لكن الربيع حجب فتيات تشياو في قصر الطائر النحاسي.

لم يسجّل الشاعر في تلك القصيدة أحداث المعركة بالضبط، أي كما هي في السجلات التاريخية، ولكنه فضّل بدلاً من ذلك إعادة تكوين الحادثة التاريخية بمساعدة مخيلة خصبة: لو أن جيش مملكة وو الذي كان بقيادة الجنرال تشو يو قد خسر المعركة، لكانت زوجته الجميلة شياو تشياو، وشقيقته الكبرى أسيرتين ومحظيتين عند تساو تساو في قصره (الصورة 5-18). وكان ذلك مثالاً عن إعادة تكوين الأحداث التاريخية بمساعدة المخيلة الخصبة التي امتلكها شاعرٌ ركّز على التعبير العاطفي، بدلاً من التركيز على الأحداث التاريخية كما جرت بأمانة. ويمكننا ملاحظة الأمر ذاته في كتاب التأمل في التاريخ من تأليف تشانغ كي جيو (نحو 1270- 1348)، وفي القصيدة التي اقتبسناها في بداية هذا القسم.





الصورة 5-17 زيارة ليلية إلى الجرف الصخري الأحمر، صورة شعبية تُظهر الاحتفال بعيد رأس السنة، يانغ ليو، تيان جين في أوائل عهد مملكة تشينغ

إن أغنية الجرف الصخري الأحمر من تأليف سو دونغ بو وتعرفها كل الأُسر. ولوحة الاحتفال برأس السنة تصوّر أيضاً هذا الموضوع. سو دونغ بو أثناء زيارة الجرف الصخري الأحمر والتفكير في الزمن الماضي.

(في الأسفل) الصورة 5-18 معركة الجرف الصخري الأحمر (جزء)، بريشة يوان شانغ تونغ، مملكة مينغ، مجموعة متحف القصر

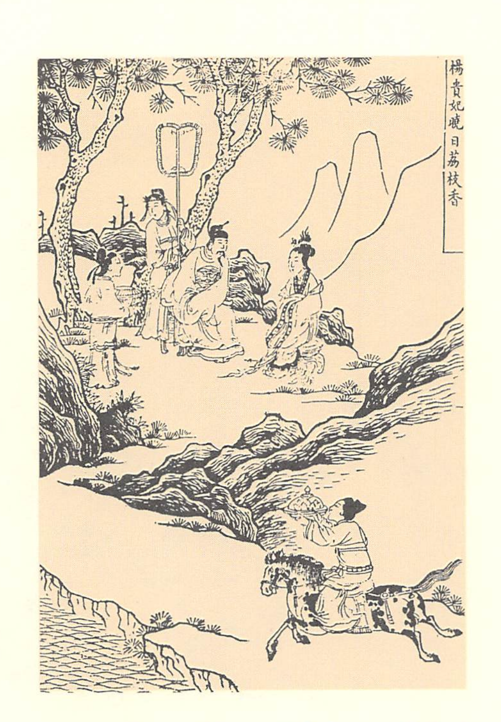
كانت معركة الجرف الصخري الأحمر معركةً في غاية الأهمية في القرن الثالث، كما كانت حادثةً أساسية ساهمت في انفصال الممالك الثلاث. أما عندما حضر تساو تساو إلى الجنوب بصحبة مئات الآلاف من الجنود فقد اتحد سون تشيوان وليو باي لمحاربته، وهكذا تمكّنا من هزيمة تساو بمساعدة الآلاف من جنود البحرية في الجرف الصخري الأحمر. وتحولت هذه المعركة إلى إحدى المعارك الخالدة التي تمكنت فيها قوة ضعيفة من إلحاق الهزيمة بقوة أقوى منها.





وقد استشهد الشاعر بالأحداث التاريخية التي تضمنت الحديث عن المحظية يو، وبان تشاو، ومعركة الجرف الصخري للتعبير عن أفكاره المتعلقة بما عاناه الناس العاديون خلال حكم سلالتَي تشين وهان. لا يستطيع الشاعر الذي يعيش في مجتمعٍ مضطرب أن يفعل شيئاً غير التأوه بعمق. وتساعد الأعمال الأدبية المماثلة- المستندة إلى التاريخ- القراء على كسب فهمٍ معمقٍ للماضي والواقع. ورغم أنّ الكتّاب والشعراء الصينيين القدماء الذين كتبوا عن التاريخ قد رحلوا منذ وقتٍ طويل، إلّا أن حكمة التعلّم من التاريخ تبقى خالدةً رغم ذلك.

يعتبر الكتّاب والشعراء الصينيون القدماء أنه يُمكن الكتابة عن التاريخ بطريقة رومانسية. وقد علّمنا التاريخ أيضاً أن انهيار سلالة تانغ يعود جزئياً إلى استغراق الإمبراطور شوان تسونغ في ملذاته الحسيّة مع النساء، وإهماله الشؤون السياسية. أما يانغ يو هوان، وهي المحظية المفضّلة عند الإمبراطور، فتتحمّل كل الملامة في دفع شوان تسونغ إلى العجز كلياً عن التفريق بين المخلصين وغير المخلصين.



الصورة 5-19 رسم يمثّل أمطار شجرة الفينيق الصينية، مختارات من يوان تشو، نسخة تسانغ، فترة وانلي في مملكة مينغ

المؤلف هو باي بو (1226-؟). ويعود مصدر هذه القصة إلى أغنية الحزن الذي لا ينتهي، وهي من تأليف باي جويي. تروي هذه القصة كيف أن تانغ شوان تسونغ ويانغ يو هوان وقعا في الحب. وفي وقتٍ لاحق، أجبر شوان تسونغ- أي أثناء ثورة لوشان- على الحكم على يانغ بالإعدام. عاد شوان تسونغ إلى المحكمة، والتقى يانغ في أحلامه، ولم يستيقظ إلا على أصوات قطرات المطر على شجرة الفينيق.

كان باي جو يي أبرز الشعراء في مملكة تانغ، ويُحتمل أنه استند إلى خلفية تاريخية في نظم قصيدته السردية الطويلة التي كانت بعنوان أغنية الحزن الذي لا ينتهي.

وقد جعل الشاعر من هذه القصيدة قصة حبٍّ مؤثرة أكثر من كونها وصفاً للتاريخ ذاته. شعر الإمبراطور شوان تسونغ بالحزن



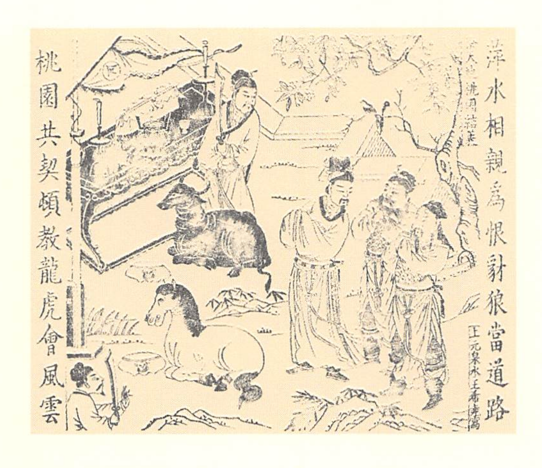
الصورة 5-20 نسخة قصص الممالك الثلاث. قصص جديدة عن الممالك الثلاث، مكتبة جيان آن، فترة تشي يوان في مملكة يوان

ظهر في فترة الممالك الثلاث عدد كبير من الأبطال. وقد حارب أولئك الأبطال بقوة وحكمة، وهكذا تحوّلت القصص إلى مصدرٍ هام للكتّاب. وكانت هناك في مملكة سونغ مهارة عُرفت باسم سرد القصص، وكانت تركّز على القصص التاريخية فقط مثل قصص الممالك الثلاث، والتي يظهر قسم منها في الصورة؛ فهي المادة الأصلية التي تُستلهم من هذا النوع من الفن.

الشديد بعد وفاة يانغ يوهان، وبلغ به الحزن مبلغاً، حيث أرسل مبعوثاً للبحث عنها في كل مكان. وفي نهاية الأمر، عثر المبعوث على يانغ في جبال فايري في بين غلاي. وكسرت يانغ أحد دبابيس شعرها إلى نصفين، وأعطت المبعوث أحدهما ليرسله إلى الإمبراطور كدليل على محبتها له. (الصورة 5-19)

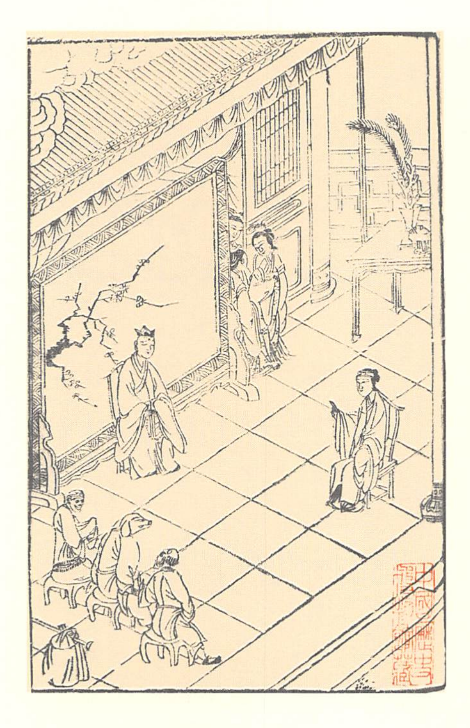
يعتبر الكاتب الأدبي أن التاريخ يتجاوز الحديث السياسي. والقصيدة الطويلة المذكورة أعلاه ليست العمل الأدبي الوحيد الذي يستند إلى التاريخ. أما حزن في قصر هان، فهي مسرحية كتبها غوان هان تشينغ الذي كان كاتباً مسرحياً شهيراً عاش في عهد مملكة يوان؛ وهي قصة رومانسية حزينة عن إمبراطور هان ومحظيته وانغ تشاو جون. فقد أراد إمبراطور هان تجنّب وقوع حربٍ بين مملكة هان والغزاة من الهون، لذا لم يكن أمامه أي خيارٍ سوى إرسال وانغ تشاو جون إلى إمبراطور الهون كهدية. أغرقت





الصورة 5-21 رسمٌ من قصة الممالك الثلاث، نسخة تشو ري، مكتبة وان جوان في جين لينغ، فترة وانلي، مملكة مينغ

كانت قصة الممالك الثلاث كتاباً رائجاً في مملكتَي مينغ وتشينغ. واعتاد الناشرون (الذين يطبعون الكتب) على إجراء بعض التغييرات قبل نشر الكتاب، مثل إضافة بعض الرسوم، أو أبياتٍ من الشعر، وموادّ أخرى، وحتى إجراء مراجعة. ويُعتبر الكتاب مختلفاً جداً عمّا كتبه لو غوان تشونغ.



الصورة 5-22 لوحة من كتاب رحلة إلى الغرب، من منشورات قاعة شايد، فترة وانلي، مملكة مينغ

يسرد كتاب رحلة إلى الغرب قصة رحلة الحج التي قام بها أحد الرهبان إلى الأقاليم الغربية. كان شوان شانغ رجلاً حقيقياً في التاريخ، وكذلك كانت رحلة الحج التي قام بها. لكنّ شخصيات أخرى- مثل الملك القرد، وبيغي- كانت من اختراع الروائيين، أي كانت شخصيات متخيّلة، ولكنّها أكثر الشخصيات جاذبية في الرواية.

وانغ نفسها عند وصولها إلى الحدود، وهكذا تحوّلت بعد موتها إلى شبحٍ، وصارت تلتقي إمبراطور الهان في أحلامه.

هناك عدد كبير من القصص الصينية الخالدة التي اقتُبست من القصص التاريخية؛ مثل قصص الممالك الثلاث (الصورتان 5-20، 5-21)، والخارجون عن القانون في المستنقعات، ورحلة إلى الغرب (الصورة 5-22)، وجناح بايوني، ومروحة أزهار الخوخ، واليتيم الصيني. ولكن يصعب علينا أن نتخيّل الأدب الصيني من دون ذلك العنصر التاريخي.

المتعة: الأدب بوصفه تسلية يومية

قال باو يو: «لا أخشى أي شيء في حالتك يا قريبتي. لكن، إذا سمحتُ لكِ بإلقاء نظرة فيجب أن تعديني بألّا تخبري أحداً. إنه شيء مدهش. ما إن تبدئي بالقراءة حتى لا تعود لديك الرغبة في تناول الطعام!».

ناولها الكتاب، وما لبثت داي يو أن وضعت أغراضها جانباً وبدأت تقرأ في الكتاب. لكن كلما استغرقتْ في القراءة أحبت الكتاب أكثر، ولم يمضِ وقتٌ طويل قبل إتمامها قراءة عدة فصول. شعرت بقوة الكلمات وتأثيرها الذي يدوم طويلاً. وبقيت السطور ترنّ في ذهنها ملتزمةً الصمت، وسبحت في عالمٍ آخر، وذلك بعد وقتٍ طويل من انتهائها من القراءة.

الفصل 23، حلم القصور الحمراء، تساو شيو تشين

يعرف الأشخاص المغرمون بالمطالعة قيمة تلك التجربة المُبهجة التي تتمثّل في قراءة الأعمال الأدبية. أما بالنسبة إلى الصينيين القدماء، فقد لعب الأدب دوراً شديد الأهمية في حياتهم اليومية؛ وذلك لأنه لم يكن باستطاعتهم الاستمتاع بوسائل الترفيه التي نعرفها في هذه الأيام مثل التلفاز، وألعاب الفيديو، أو الإنترنت. وهكذا، أفادت الأعمال الأدبية بوصفها وسيلة تسلية، وكذلك موضوعاً للدردشة.

كان أو يانغ كاتباً وأديباً بارزاً في مملكة سونغ الشمالية، وهو الذي قال ذات مرة إن الأعمال والنوادر الأدبية كانت مصدراً لا غنى عنه في الأحاديث اليومية. وكانت الكتابة الأدبية ضرورة لا غنى عنها بالنسبة إلى الأدباء الصينيين القدماء. ولكن، بالإضافة إلى تناول الشراب والموسيقى، كانت كتابة الشعر تُعتبر من أبرز ثلاثة نشاطات مارسها الأدباء في الأوقات التي كانوا يلتقون فيها (الصورة 5-23)، ويُفترَض كذلك أن تكون الروايات الخيالية أكثر تسلية من الشعر.

إننا نعرف أن معظم الأعمال الأدبية كُتبت بهدف إيصال أفكار معيّنة لدى الكتّاب الذين كانوا ينتقدون الأوضاع الاجتماعية للتعبير عن مشاعرهم. لكن ذلك لا يعني بالضرورة أنهم لا يريدون جعل إبداعاتهم الأدبية أشد جاذبية قدر الإمكان.

كان بان غو مؤرخاً وأديباً في مملكة هان الشرقية، وهو الذي كتب ذات يوم قصيدةً تحدّث فيها عن أمورٍ تاريخية، غير أن الأجيال التالية اعتبرت القصيدة مملةً،





الصورة 5-23 رسوم متنزه يا جي الغربي، بريشة لي شيدا، مملكة مينغ، رسم ملوّن على لفافةٍ حريرية، مجموعة متحف سو تشو

كانت يا جي الاسم الآخر للمثقفين القدماء. وكانت ياجي المتنزه الغربي مناسبةً ضخمة في مملكة سونغ الشمالية. أما في فترة يوان يو التي كانت بقيادة سو شي، فقد تجمّع ما يزيد عن عشرة من الأدباء البارزين في المتنزه الغربي، ووجّهوا دعوة للرسام الشهير لي بو شي لرسم هذه المناسبة وتخليدها، ولكي تعرفها الأجيال التالية!

وكأنها حطبٌ يابس. لكن ليس هناك كاتب يفرح عند تلقيه تعليقاً أو تقييماً كهذا. ويعني ذلك أن كل الأفكار العميقة التي نجدها في الأدب تبدو من دون نفع بالنسبة إلى القراء، إلا إذا كانت القصص جذابةً بما يكفي، وإذا كان وصف الشخصيات حياً إلى أقصى درجةٍ ممكنة.

قال كونفوشيوس ذات مرة: «إن الذين يستمتعون بشيءٍ ما هم أكثر الناس استفادةً منه». وذلك صحيح؛ لأن الأدب تجربة مبهجة، سواء أكان قراءة أم كتابة.

وقد حاول الكتّاب منذ عهود ممالك وي، وجين، والسلالات الجنوبية والشمالية (أي منذ ما يزيد عن 1,500 سنة) جعل أعمالهم مسلية إلى أقصى حدّ. ونجح كاتبٌ يدعى جان باو في ذلك الوقت في كتابة قصص الأشباح، وزعم أنه رأى ميتاً ذات مرة وهو يعود إلى الحياة. وأراد الكاتب أن يبرهن ما قاله، فكتب مجموعةً قصصية تحت عنوان الخالدون، وضمّنها عدة قصص غريبة عن الأشباح، وهذه واحدةٌ منها.

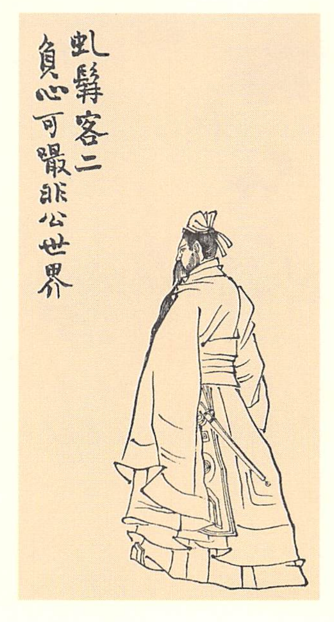
عاش أحد الأدباء الصغار في السن وحيداً، إلى أن زارته ذات ليلة فتاةٌ جميلة، وعبّرت له عن حبّها. اعتنت الفتاة بالشاب كثيراً وتزوجته، ولكنها طلبت منه قبل ذلك



أن يعطيها وعداً بعدم النظر إليها ملياً على ضوء الشمعة لفترة ثلاث سنوات. عاش الزوجان بسعادة في العامين الأولين، ورُزقا بولد. غير أن الرجل لم يستطع مقاومة فضوله، فقرّر أن ينظر إلى زوجته التي كانت تحمل شمعةً مضيئة بيدها. وعندها، اكتشف أن الجزء السفلي من جسد زوجته مؤلف من عظامٍ جافة من دون لحمٍ أو دماء. وتبيّن للرجل أن المرأة شبح، وأنها عاجزة عن العودة إلى الحياة قبل مضي ثلاث سنوات. وكان ذلك هو السبب الذي دفعها إلى الطلب منه أن يقطع لها ذلك الوعد.

توجد قصة أخرى من المجموعة ذاتها، وهي غريبة أيضاً.

فقد صعد أحد الأدباء غير التقليديين إلى السماء بصفته خالداً بعد مماته، وكان قد طلب من الإمبراطور وشعبه قبل موته بناء هيكلٍ مخصصٍ لعبادته. وكان هذا الرجل قد مارس السحر تكراراً لتحقيق رغبته، كما حقّق بعض الأشياء شديدة



الصورة 5-24 رسم الرجل الملتحي، شخصيات من 33 مبارِز بالسيف، بريشة رِن واي تشانغ، مملكة تشينغ

كتب دو جوانغ تينغ قصة الرجل الملتحي، وأشار بعض النقاد إلى أن هذه الأسطورة أفادت الدعاية الإيجابية لمملكة تانغ. وقد تمتع الرجل الملتحي في هذه القصة بموهبةٍ بارزة، ولكن ما إن رأى لي شي مين- الذي أصبح بعد ذلك تانغ تاي تسونغ- حتى شعر بالخجل بسبب ضعف مستواه، ثم توجّه بعد ذلك إلى الإقليم الغربي بهدف تطوير ذاته.

الغرابة على الأرض، مثل جعل الحشرات والنمل تزحف إلى داخل آذان الناس، وإشعال الحرائق في كل الأمكنة. وفي النهاية، أمر الإمبراطور بتشييد الهيكل لذلك الرجل الخالد.

كُتِبت كل تلك القصص بكلماتٍ بسيطةٍ جداً، ولكنها كانت غريبة ومثيرة للانتباه بما يكفي. وقد قال الكاتب جان باو في مقدمة المجموعة إن الكتاب يهدف إلى تسلية القراء الذين يمتلكون ما يكفي من الفضول. وظهر في عصر مملكة تانغ نوع جديد من القصص الخيالية، وأُطلقت عليه تسمية الأسطورة؛ وهو نوعٌ حظِيَ بشعبيةٍ كبيرة. واستند كتّاب هذه الأساطير إلى إبداعات الأشخاص المعاصرين وقصصهم. وبطبيعة الحال، لعبت المخيلة دوراً كبيراً في هذا المجال.

استند عددٌ كبير من الأساطير التي ظهرت خلال تلك الفترة على أشخاصٍ حقيقيين، مثل لي شي مين (الإمبراطور

الصورة 5-25 لوحة هونغ فو، بريشة يو تشيو، مملكة مينغ، لوحة مرسومة بالحبر على الورق، مجموعة متحف القصر

كانت هونغ فو في الأصل مغنيةً من يانغ سو. تزوجت الفتاة سراً من لي جينغ، ثم أصبحت هي وزوجها من الأشقاء الذين أقسموا على الإخلاص للرجل الملتحي. أطلقت الأجيال التالية عليهما لقب «أصحاب السيوف الثلاث الأبطال».



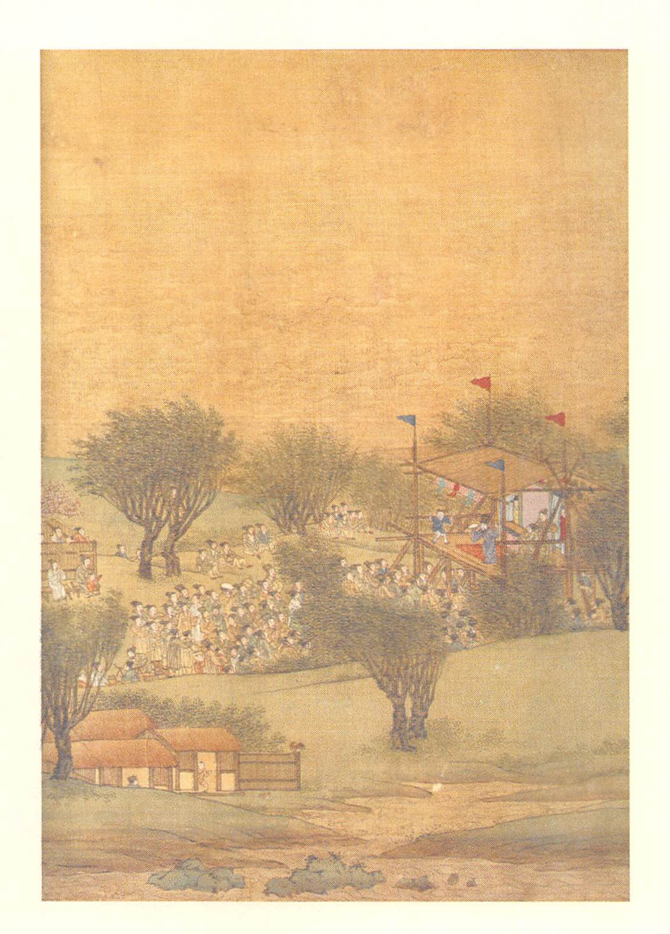
الصورة 5-26 اختلاس النظر في الحمام في مينغ هوان (نسخة مصورة)، بريشة تشانغ زي دوان، مملكة سونغ، لفافة حريرية، مجموعة متحف القصر

أغنية الحزن الذي لا ينتهي من تأليف باي جو يي، وورد فيها: «تغسل بشرتها بمياه النبع الساخنة لتعيد إليها نضارتها». وقد تحوّل حمّام يانغ إلى مشهدٍ شهير في الأسطورة التاريخية. وتُظهر الصورة تانغ شوان تسونغ وهو يختلس النظر يمنة ويسرة أثناء خروج يانغ من الحمام؛ الأمر الذي يُظهر استمتاع شوان تسونغ بجمال يانغ.

الأول لمملكة تانغ)، ولي جينغ (القائد العسكري البارز) (الصورتان 5-24، 5-25)، والإمبراطور شوان تسونغ ومحظيته المفضلة يانغ يو هوان (الصورة 5-26)، والشاعر الموهوب لي يي ومحبوبته هو شياو يو. وقد تميّزت كل تلك الأساطير بحبكاتٍ مثيرة ووصف حيٍّ للشخصيات. واعتاد الكتّاب وضع بعض التعليقات في نهاية كل قصة، وذلك بهدف تحفيز القراء على التفكير بعمقٍ أكبر.

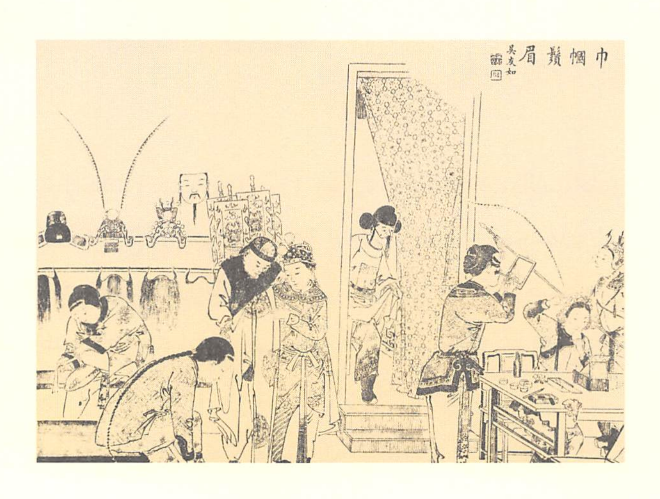
كان ظهور الأساطير متعلقاً بشدة بنظام الامتحانات الإمبراطوري. إذ تعيّن على





الصورة 5-27 مشهد على ضفاف النهر أثناء احتفال تشينغ مينغ (جزء)، تقليد العمل الأصلي للفنان زي دوان، مملكة سونغ، بريشة تشيو ينغ الذي عاش في مملكة مينغ، رسم ملون على لفافة حريرية، مجموعة متحف لياو نينغ

بالرغم من أن النصوص المسرحية في مملكة سونغ لم تكن بمستوى نضوج مثيلاتها في مملكتَي مينغ وتشينغ، إلا أنها كانت غنية في ذلك الوقت. فقد تواجد عددٌ كبير من الفنانين في مدينة لين آن، وكانوا يقدمون عروضاً حيّة. وتماثل لوحة مشهد على ضفاف النهر أثناء احتفال تشينغ مينغ عدداً كبيراً من المشاهد التي كانت مألوفة في الشوارع. كانت هذه اللوحة من رسم تشانغ زي دوان، وهو رسّام كان يعمل في أكاديمية هان لين، كما يُقال إنه أمضى 10 سنوات في إتمام هذه اللوحة.



الصورة 5-28 نقش على الخشب يمثّل 16 بطلة، ديان، صورة مكتبة ديان شي بريشة وو يورو، مملكة تشينغ

كانت وا شي القديمة هي المكان الذي يجتمع فيه العارضون، وتدل غولان على المسرح في الوقت الحاضر. تُظهر هذه الصورة الممثلين أثناء وضعهم مساحيق التجميل، وارتدائهم الأزياء في كواليس المسرح.

الأدباء الطموحين الذين عاشوا في فترة مملكة تانغ الخضوع لامتحانات في البلاط الإمبراطوري لكي يصبحوا موظفين حكوميين. وكان من المعتاد أن يُقدِّم الأدباء أعمالهم مسبقاً إلى رئيس لجنة الامتحانات لكي يضمنوا أن تتذكرهم اللجنة. ولذلك كان من المهم جداً بالنسبة إلى الأدباء المحافظة على عمق إبداعاتهم لتحفيز التفكير العميق، ولجعلها جذابة بالنسبة إلى لجنة الامتحانات أيضاً. وهكذا، تصبح القصص الأسطورية المدهشة نتاجات غير متوقعة لنظام الامتحانات الإمبراطوري.

لا يستطيع أحد مقاومة سحر القصص الشيّقة. ولكن منذ عهد مملكة سونغ أصبحت جميع أنواع الفنون الاستعراضية بما فيها سرد القصص وقرع الطبول أكثر شعبية. وإنّ عرضاً كهذا يقدّم طريقةً جديدة لنشر الأعمال الأدبية، وذلك بإدهاش الناس العاديين

الصورة 5-29 لقاء الأعداء على حدة، لوحة احتفال شعبي برأس السنة الجديدة، تيان جين، في أواخر عهد مملكة تشينغ

تفاوض وو وشو معاً في فترة الممالك الثلاث، وذلك بشأن السيادة على جينغ شو، ولكن من دون التوصّل إلى اتفاق. وهكذا، أقام وو حفلة، ودعا غوان يو لحضورها؛ وهو الجنرال الذي يقوم بحماية المنطقة. فوجئ وو وشو بذكاء غوان يو وجرأته لأنه حضر الحفلة بمفرده ثم انسحب بعد ذلك بسلام. وقد كتب غوان هان تشينغ مسرحية مستندة إلى الحفلة بعنوان غوان يو يحضر الحفلة بمفرده.







الصورة 5-30 رسوم من قصص من فترة شوان هي، مملكة سونغ، نسخة تشونغ تشين، مملكة مينغ

كانت قصص بطل ليانغ شان منتشرة في فترة حكم مملكة سونغ، وكان كتاب قصص من فترة شوان هي أحد الكتب التي روت قصصاً عن سونغ جيانغ وغيره. ويبلغ عدد الأبطال المذكورين في الكتاب 36 بطلاً. وتحوّل الكتاب في وقتٍ لاحق إلى أحد مصادر كتاب الخارجون على القانون في المستنقعات.

وإلهامهم (الصور 5-27، 5-28، 5-29). أما سرد القصص فقد كان الفن الأكثر شعبية في ذلك الوقت.

استند رواة القصص الصينية الشهيرة في عروضهم إلى قصصٍ من التاريخ وإلى البوذية، وكانوا يتقنون كيفية إبقاء مستمعيهم في حالة من التشويق بالإضافة إلى توليد جوٍّ من الإثارة. ويمكننا العثور على بعض تلك القصص- حتى في أيامنا هذه- مثل قصة امرأة تدعى لي كويليان، وقصة الخارجون على القانون في المستنقعات. (الصورتان 5-30، 5-31)



الصورة 5-31 أحد رسوم الخارجون على القانون في المستنقعات، تنقيح موظفين من خارج العاصمة في فترة وانلي، مملكة مينغ

يقول بعض الناس إن مؤلف كتاب الخارجون على القانون في المستنقعات كان شي ناي آن. بينما قال آخرون إنه لوه غوان تشونغ. وقد قام الكتاب بترتيب قصص عن 108 من أبطال ليانغ شان، كما وصف توسّع ليانغ شان، ومواجهتهم مع الحكومة، والعفو الذي تلقّوه بعد ذلك. ويُعتبر هذا الكتاب واحداً من أكثر الكتب شعبيةً في الصين.

(في الأعلى) الصورة 5-32 رسمٌ من كتاب قصة الغرفة الغربية، نسخة نقّحها يوي من جين تاي، مكتبة عاصمة هونغ تشي، مملكة مينغ

يظهر كوي ينغ ينغ وتشانغ جون روي في كتاب قصة حب في الحجرة الغربية وهما على علاقة حبٍّ سرية، لكن حبّهما كان ممنوعاً بالنسبة إلى كبار الأسرة. وقد تغلّب الحبيبان على عقباتٍ متنوعة، وتمكّنا من اللقاء أخيراً. تُعتبر هذه الصورة نسخةً عن كتاب قصة حب في الحجرة الغربية، أي حيث يودّع كوي ينغ ينغ تشانغ جون روي قبل أن يبدأ رحلة الذهاب إلى العاصمة للخضوع للامتحانات.

الصورة 5-33 رسمٌ من قصة حب في الحجرة الغربية، طبعة ثانية من قصة حب في الحجرة الغربية مأخوذة من طبعة يوان، ومزودة بالتهجئة والتعليقات، طبعة ليو لونغ تيان من قاعة تشياو شان، مملكة مينغ

تُعتبر قصة حبٍّ في الحجرة الغربية قصة مقتبسة عن إحدى أساطير مملكة تانغ؛ وهي قصة ينغ ينغ. وكانت القصة في البداية من نوع المأساة: إذ قامت تشانغ بخيانة ينغ ينغ وافترقا في النهاية. ولكن هذه الخاتمة تغيّرت بعد ذلك، لتحمل قصة حب في الحجرة الغربية نهايةً سعيدة في طبعة مملكة جين.

تدور القصة الأولى حول امرأةٍ متزوجةٍ ما كانت تكترث بما يُسمّى الأدبيات والسلوكيات الاجتماعية، بالإضافة إلى انتقادها نفاق البشر. أما القصة الثانية فتسرد قصص 108 من الخارجين على القانون الذين قاموا بأعمالٍ خيّرة للناس العاديين الذين يعانون من ظلم المجتمع.

أما بالنسبة إلى فن عزف الطبول فكان الفنانون يغنّون أثناء قرعهم على الطبل.


墻角聯吟
墻角咏新詩試引佳人興
園中賡舊韻更添才子情懷



(في الأعلى) الصورة 5-34 قصة حب في الحجرة الغربية، لوحة تمثّل الاحتفالات الشعبية بعيد رأس السنة، إقليم واي في شاندونغ، خلال أواسط عهد مملكة تشينغ

تشتهر قصة حب في الغرفة الغربية كثيراً في الصين. كما أن صفات تشانغ جون روي، وكوي ينغ ينغ، وهونغ نيان، والشخصيات الأخرى متجذرةٌ بعمق في قلوب الناس. وتجمع لوحة الاحتفال برأس السنة المشاهد الشهيرة في القصة، وتشتمل أيضاً على وصفٍ حيٍّ لكوي ينغ ينغ وهونغ نيانغ.

الصورة 5-35 رسمٌ من قصة حلم القصور الحمراء، والشخصيات في قصة حلم القصور الحمراء، بريشة غاي تشي، مملكة تشينغ

تشمل النسخة الشعبية من حلم القصور الحمراء 120 فصلاً. وقد أكمل تساو شيويه تشين الفصول المئة الأولى من الكتاب، أما الفصول الباقية فقد كتبها جاو إي. ويصوّر الكتاب العوالم الداخلية للشخصيات بتفصيلٍ شديد، ويصف بعمقٍ شخصيّتَي جيا باو يو، ولين داي يو ومصيريهما، فضلاً عن الشخصيات الأخرى. يُعتبر هذا الكتاب أيضاً تحفةً نادرة.

وأشهر مقطوعة قرع الطبول خلال عهد مملكة سونغ فكانت مقتبسة من قصةٍ أسطورية بعنوان ينغ ينغ. واستندت تلك المقطوعة إلى قصة كتبها وانغ شيفو (1260- 1336) بعنوان قصة الغرفة الغربية، وهي واحدة من المسرحيات الخالدة في تاريخ الأدب الصيني. (الصورتان 5-32، 5-33)

دعونا الآن نعود إلى مقتطفات من حلم القصور الحمراء، وهي التي اقتبسناها في بداية هذا القسم. يتساءل القراء عن العمل الأدبي الذي اجتذب جيا باو يو ولين داي يو. كان ذلك العمل الأدبي هو قصة الحجرة الغربية. (الصورتان 5-34، 5-35)


贾兰
香菱



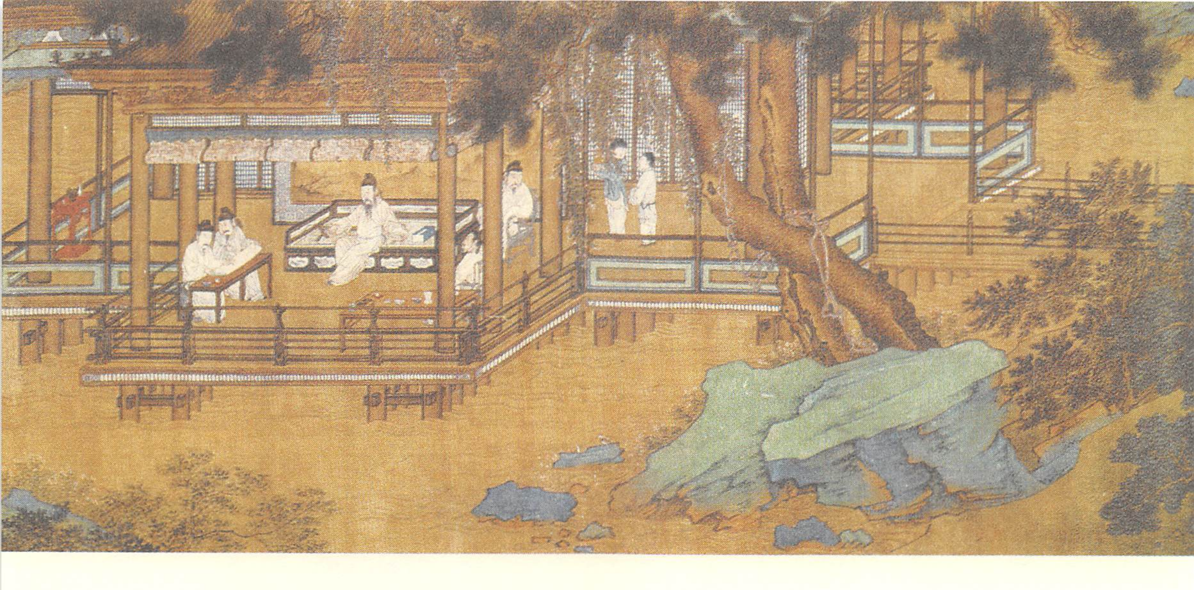
| الشراب: العزاء الأفضل للقلب المعذّب

لماذا لا نغنّي قبل الشراب؟
كم ستطول بنا الحياة؟
تبدو الحياة مثل ندى الصباح،
ما مضى قد مضى بكل ويلاته،
انطِلق بالغناء بصوتٍ عالٍ وبكل حرية،
لكن قضيتي تبكيني.
كيف أتخلّص من أحزاني؟
لا شيء يساعدني مثل شراب دوكانغ.

جزء من أغنية قصيرة، تأليف تساو تساو

انتشرت في الصين القديمة ممارسة طقس خاص بتقديم القرابين، ويتمثل في إهراق الشراب على الأرض، وذلك بهدف إظهار الاحترام للأسياد المقدّسة، أو الأجداد الذين رحلوا. ولكننا لا نعرف ما إذا كان أولئك الأسياد أو الأجداد قد أحبّوا الشراب أم لا، غير أننا نعرف أن عدداً كبيراً من الشعراء اشتهروا بحبهم للشراب، أي مثل تاو يوان مينغ، وأويانغ شيوى (الصورة 5-36) وسو شي.

يُقال أيضاً إن صينياً مسنّاً يُدعى دو كانغ كان خبيراً بتحضير الشراب، وهكذا



الصورة 5-36 لوحة منطقة الشراب (جزء)، بريشة شيو ينغ، مملكة مينغ، مجموعة شركة آثار بيجينغ الثقافية

عندما تم إبعاد أو يانغ شي إلى تشو تشو لقّب نفسه بالثمِل، ثم كتب قصة منطقة الثمالة الشهيرة. وتستند هذه الصورة إلى موضوع هذه القطعة النثرية، كما تُظهر أو يانغ شيوى أثناء قيامه باللعب وتناول الشراب في منطقة الثمالة، بينما يلعب آخرون حوله.

استُخدم اسمه في ما بعد للإشارة إلى الشراب. كان اسم دو كانغ تعبيراً شائعاً في قصائد عددٍ من الشعراء بمن فيهم تساو تساو (الصورة 5-37)، وباي جو يي، وبي ري شيوى (نحو 834-902). وكان شراب دو كانغ بالنسبة إلى أولئك الشعراء الصديق الأفضل الذي جعلهم ينسون كل متاعبهم ومصادر قلقهم.

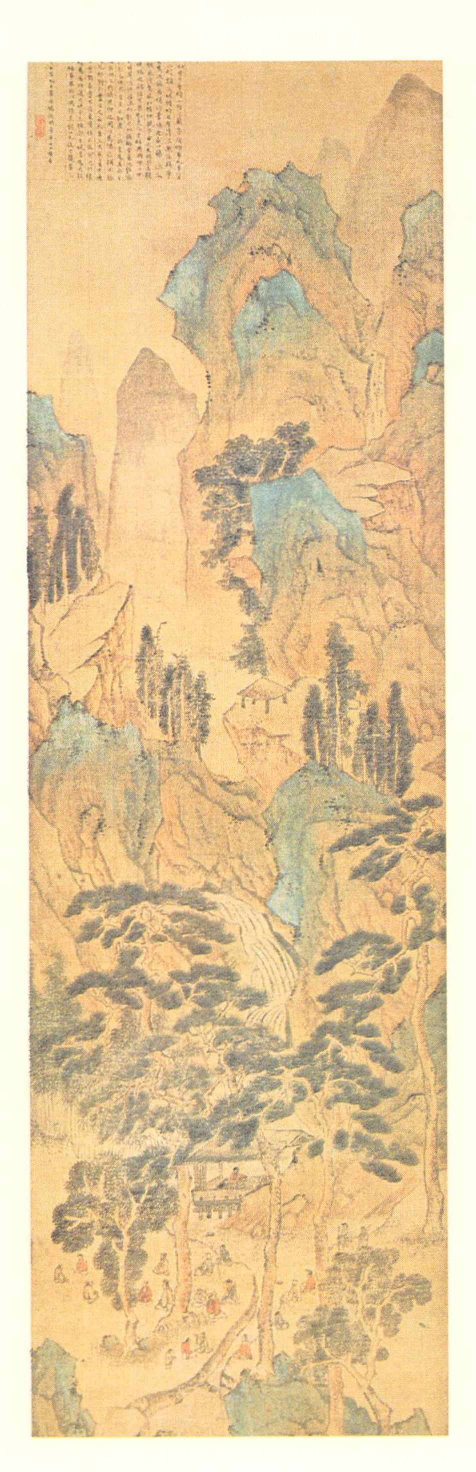
كان الشراب بالنسبة إلى الصينيين القدماء أمراً لا غنى عنه في عددٍ كبيرٍ من مناسباتهم. إذ كان الشعراء عند اجتماعهم يجلسون في صفٍّ واحد بالقرب من النهر، ويلهون بلعبة الشراب (الصورة 5-38). كانوا يضعون القدح المليء بالشراب في مياه النهر، وعندما يتوقف



الصورة 5-37 رسم يمثّل تساو تساو، طبعة مينغ من صور القدماء في التاريخ

ترافق اسم تساو مع صورة سيئة في الأوبرا والروايات التقليدية، حتى إن بعضهم اعتبره نذلاً وخائناً. لكن، بغضّ النظر عن حسناته وسيّئاته فقد قدّم إسهاماتٍ كثيرة للأدب. أما كتابات مثل أسلوب الشعر القديم، وأغنية إلى الندى، بالإضافة إلى قصائد أخرى، فقد كانت أعمالاً أدبية جيدة وذات معايير عالية.





(إلى اليمين) الصورة 5-38 اجتماع مجموعة لان تينغ، بريشة ون تشينغ مينغ، مملكة مينغ، لوحة ملونة على لفافة حريرية

في السنة التاسعة من فترة يونغ هي، وفي عهد مملكة جين الشرقية، عقد وانغ شي تشي وشيه آن ومشاهير آخرون بلغ عددهم ما يزيد عن الأربعين رجلاً اجتماعاً في منطقة لان تينغ (وهي الآن تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة شاو شينغ، إقليم تشي جيانغ). جلس المجتمعون على الأرض بالقرب من نهرٍ صغير، ووضعوا أكوابهم على سطح مياه النهر، ثم كتبوا القصائد أثناء تناولهم الشراب. وقد أطلق الناس على هذه الأنشطة اسم وصف أكواب الشراب التي تطوف مع المياه المنسابة.

(في الأسفل) الصورة 5-39 ليلة اللقاء في مهرجان لانتيرن، بريشة لو تشي، مملكة مينغ، لوحة ملونة مرسومة على الورق، مجموعة متحف شنغهاي

ألا يوجد شراب أثناء اللقاء؟! إذ يؤدي الشراب إلى تحفيز موهبة الشاعر، كما يجعل الجو أكثر دفئاً. ويترافق الشراب مع صورتين شائعتين في تقاليد الأدب الصيني؛ فعندما يشعر المرء بالوحدة سيكون بحاجة إليه، وعندما يشعر بالبهجة سوف يحتاج إليه أيضاً.



القدح كان الشاعر الأقرب إليه يقوم بهزّ خصره كعقاب. كانت الألعاب المماثلة تقرّب المسافات بين الضيوف الآتين من خلفياتٍ مختلفة، كما تجعل هذه اللقاءات أكثر إثارةً للاهتمام. (الصورة 5-39)

يمكننا اعتبار الشعراء في مملكتَي وي وجين الأكثر هوساً بالشراب. وقد اشتمل كتاب رواية جديدة عن العالم على ثلاثين حادثة تقريباً، والتي تضمّنت وصفاً للسلوك المثير للسخرية لأولئك الشعراء والكتّاب المعتادين على تناول الشراب في ذلك الوقت. كان ليو لينغ (نحو 221-300) أحد أشهر الكتّاب البارزين في مملكتَي وي وجين، وكان معتاداً على شرب الكحول.

لكن، ما إن حاولت زوجة ليو إقناعه بالإقلاع عن تناول الشراب، حتى وعدها بأنه سيفعل ذلك بعد إتمامه طقس تقديم القرابين. فصدّقته زوجته، وساعدته على تحضير





القرابين. غير أن ليو تناول اللحم بعد انتهائه من طقس تقديم القرابين، ثم تناول الشراب إلى أن وصل إلى حد الثمالة الشديدة. (الصورة 5-40)

كان هناك أديبٌ آخر يحمل لقب موظف الأيام الثلاثة؛ وذلك لأنه نام ذات مرة لمدة ثلاثة أيام متواصلة بعد أن أكثر من الشراب أثناء ممارسته عمله الرسمي. وتواجد رجلٌ آخر أيضاً- وكان اسمه وانغ فو- قال إنه عجز عن التعرّف على نفسه ما إن توقف عن تناول الشراب لمدّة ثلاثة أيام فقط.

يصعب علينا فصل السلوكيات المضحكة للشعراء والكتّاب الذين عاشوا في مملكتَي وي وجين، عن ولعهم الشديد بتناول الشراب، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشراب من أجل سلامتهم الشخصية؛ وذلك لأنهم عاشوا في مجتمعٍ مضطرب.

فعلى سبيل المثال، تمكّن روان جي (210- 263) من تجنّب زواجٍ غير متوقّع من خلال لجوئه إلى الإفراط في تناول الشراب. وكان روان شهيراً لكونه واحداً من أبرز سبعة شعراء في مملكتَي وي وجين (الصورة 5-41). وكان سيما تشاو (211-265) موظفاً حكومياً يتمتع بنفوذٍ كبير. أراد سيما تزويج ابنته من الشاعر روان، ولذلك أرسل أحد أتباعه للطلب منه أن يتزوج ابنته. وهكذا، بقي روان في حالة ثمالةٍ شديدة لمدّة عشرة أيامٍ على التوالي، فتمكّن من تفادي ذلك الزواج الذي لم يرغب به في الأصل.

أدرك الشعراء والكتّاب أن الحديث عن طموحاتهم السياسية أمرٌ لا طائل منه عندما يعيشون في مجتمعٍ مضطرب. وقد أراد أولئك الكتّاب والشعراء الحصول على راحة البال



الصورة 5-40 لوحة تمثّل ليو لينغ، طرائق الرسم في شي ينغ، طبعة ليانغ تشينغ بياو خلال فترة كانغ شي، مملكة تشينغ

كان يستهزئ بالأخلاقيات، ويتناول الشراب بكثرة، وكانت كل قصصه تقريباً تدور حول الشراب. يبدو قميصه مفتوحاً، وهناك كوب من الشراب إلى جانبه. تصف هذه الصورة موقفه الجريء وخلاعته.



الصورة 5-41 طلاء على الأحجار، سبعة من الأدباء بين أشجار الخيزران ورونغ تشي تشي، نقوش على أحجار سوداء من عهود الممالك الجنوبية

يُمثِّل هذا الرسم سبعة أدباء، وهو يُشير إلى سبعة من المشاهير في مملكة جين، وهم: روان جي، وشيانغ شيوى، وجي كانغ، وشان تاو، وليو لينغ، وروان شيان، ووانغ رونغ. وقد رفض هؤلاء الأدباء التعاون مع نظام سيما فتوجهوا إلى الجبال، واعتادوا على تناول الشراب معاً بين أشجار الخيزران. وفي النهاية، مات بعضهم، وتظاهر آخرون بالجنون، بينما سلّم الباقون أنفسهم للحكومة.

في ظل تلك الظروف، فلجأوا إلى الشراب. أما في هذه الأيام، فإن الشعراء والكتّاب يوصفون في معظم الحالات بأنهم نبلاء، وذوو سلوك حسن. وقد ساعدتنا التصرفات المضحكة التي ذكرناها من قبل على رؤية الجانب الآخر من حياتهم الحقيقية. (الصورة 5-42)

كتب ليو لينغ ذات مرة قصيدة شهيرة بعنوان أغنية إلى عادة الشراب، وذلك للتعبير عن سخطه على القواعد الدنيوية، وتجاهله لكل الانتقادات، وذلك في قصيدة أسماها معاليك. وكانت جرأة الشاعر وصراحته في انتقاد المجتمع مثيرتين للإعجاب، ولكنّ ذلك عكَسَ عجزه في الوقت ذاته. (الصورة 5-43)

(إلى اليمين) الصورة 5-42 تاو يوان مينغ يعود ثملاً إلى منزله، بريشة تشانغ بينغ، مملكة مينغ، رسم ملون على الورق، مجموعة متحف غوان دونغ الإقليمي

أحب تاو يوان مينغ تناول الشراب كثيراً. وقد كتب عشرين قصيدة حول تناول الشراب؛ وهي قصائد تصف الحالة الذهنية للرجل الذي يثمل، وتعبّر عن حبه لحياة العزلة. أما جملته الشهيرة «اقطف الأقحوان النابت إلى جانب السياج، وتأمّل الجبل الجنوبي» فقد وردت في قصيدته الخامسة.

(في الأعلى) الصورة 5-43 أحد نصوص أغنية إلى نعمة الشراب، بريشة تشاو مينغ فو، في عهد مملكة يوان، كتابة على الورق، مجموعة أدبية لمتحف القصر

تؤدي قراءة الأعمال الأدبية إلى التآلف مع القدماء. وقد ألّف ليو لينغ هذه القصيدة التي خطّها تشاو مينغ فو، والتي وصلت إلينا وقرأناها نحن. لكن، بالرغم من تغيّر الزمان والمكان، ما زلنا نشعر عند قراءتها بضغوط العالم الموضوعي على الكتّاب، وتردّدهم أثناء تناولهم الشراب سعياً وراء راحة البال.

يمكننا ملاحظة العلاقة الوثيقة بين الشراب والأدب الصيني في أوضح صورها في لي باي وقصائده. فقد كان عددٌ كبير من أشعاره الشهيرة مرتبطاً بالشراب ارتباطاً وثيقاً. ونورد في ما يلي الأبيات التي اخترناها من إحدى أشهر قصائده، والتي كانت بعنوان دعوة إلى الشراب.

عندما تتحقق الآمال، اشرب حتى الثمالة وابتهج،
ولا تترك كوب الشراب فارغاً في ضوء القمر!

أي أثرٍ تتركه الأطباق النادرة وغالية الثمن؟
لا أريد شيئاً سوى أن أثمل، وألا أستيقظ أبداً.
كم من الرجال العظماء عفا عنهم الزمن عبر الأجيال؟
لكنّ العظماء من محبّي الشراب معروفون أكثر من الحكماء.



قيمة معطف الفراء تعادل ألف قطعة ذهبية،
والجواد المزيّن بالأزهار، وكلاهما يمكن بيعهما،
لكننا نشتري شراباً ممتازاً لنُغرق به أحزاننا القديمة.

اعتبر الشاعر أنّ تناول الشراب تجربة مفرحة تؤدي إلى نسيان كل الأمور التي تثير قلقه. وهكذا، اعتمد في أشعاره على الشراب ذاته، وعلى مشاعره الشخصية. لكنّنا كلّما قرأنا قصائد لي باي أكثر توضّحت لدينا العلاقة بين الشاعر وأعماله. ويمكننا إيضاح المزيد من خلال الأبيات التالية:

لا يتوقف الماء عن الجريان حتى لو قطعناه بسيوفنا،
وكذلك الأحزان تعود؛ حتى لو أغرقناها بشرابنا.

قصيدة في وداع المساعد لي يون في برج شيه تياو في شوان تشو

كوب شرابٍ تحت الأشجار المزهرة؛
أشربُ وحدي من دون صديقٍ قربي،
أرفع كوبي تحيةً للقمر الساطع،
نحن رجالٌ ثلاثة، هو وظلي وأنا.

قصيدة أشرب وحيداً في ضوء القمر (الصورة 5-44)

أثمل مع الشراب،
إلى أن يطلع القمر،
ومع الأزهار المتساقطة على الأرض،
وفوق ردائي الأزرق.
أصحو وأسير مع الجدول،
اللامع بتموّجاته.
لا أرى طيراً،
ولا أسمع كلمة.

قصيدة عزلة

الصورة 5-44 كتابة بالخط المنحني لقصيدة أشرب وحيداً في ضوء القمر، من تأليف لي باي، وبريشة سونغ غوانغ، مملكة مينغ، كتابة على الورق، مجموعة متحف القصر

يعرف الجميع أن لي باي أحبّ تناول الشراب. وتُظهر هذه الصورة الخط المنحني الذي أتقنه سونغ غوانغ عندما كتب القصيدة الثانية التي وردت في مجموعة أشرب وحيداً في ضوء القمر التي ألّفها لي باي؛ وهو خطّاط من عهد مملكة مينغ. ونلاحظ هنا اللمسات الرفيعة والقوية للحروف التي تنساب بحريةٍ، وذلك بدلاً من تناسقها مع الأسلوب الذي نراه سائداً في أشعار لي باي.





(في الأعلى) الصورة 5-45 رسم يمثّل المشاهير الثمانية الثملين (جزء)، بريشة يو تشيو، مملكة مينغ. رسمٌ بالحبر على الورق، مجموعة متحف القصر

تصف أغنية المشاهير الثمانية الثملين التي كتبها دو فو حفلة الشراب والسُكر لثمانية من المشاهير في عهد مملكة تانغ، وهم: لي باي، وهي تشي تشانغ، ولي شي تشي، ولي جين، وتسوى تسونغ تشي، وسو جين، وتشانغ شو، وتسوى سوي.

(في الأسفل) الصورة 5-46 الشراب (جزء)، بريشة وان بانغ تشي، مملكة مينغ، رسم ملون على لفافة حريرية، مجموعة متحف غوانغ دونغ

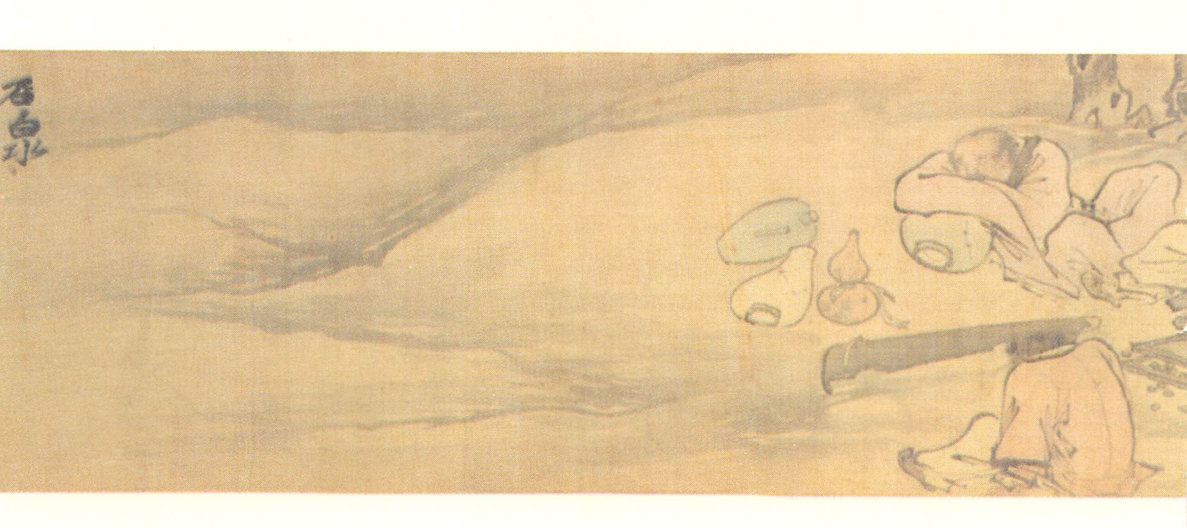
هذه لوحةٌ أخرى حول المشاهير الثمانية الثملين، وموضوعها دو فو. تُظهر الصورة المشاهير الثمانية الثملين في أوضاعٍ مختلفة. يظهر بعضهم مستلقياً على الأرض، بينما بعضهم الآخر منهمك في تدوين الملاحظات، في حين ظهر آخرون وهم يتناولون الشراب، أما الباقون فيحاولون النهوض مستندين على الشجرة.



لعب الشراب دوراً شديد الأهمية في حياة لي باي، كما أدى إلى تحرير روحه كرجلٍ يعيش في مجتمع إقطاعي؛ وهو الأمر الذي ألهمه لكتابة قصائد خالدة عديدة. أما دو فو فقد استلهم ذات مرة صورة مليئة بالحياة من لي باي بصفته شاعراً مهووساً بتناول الشراب، وذلك من خلال قصيدة بعنوان أغنية الثملين المشهورين:

كوب من الشراب ألهمَ لي باي لكتابة مئات القصائد،
ثملَ لي باي، ونام في بيوت الشراب مراتٍ عدة،
كان ثملاً إلى درجةٍ عجز معها عن النزولِ إلى قارب الإمبراطور،
وأجاب: «ألا تعرفُ أنني سيّد الشراب؟»(الصورتان 5-45، 5-46)

نعرف في هذه الأيام أن الشراب ضارّ بطرائق عديدة، وكذلك الأمر في ما يتعلق بالإدمان على الشراب إلى درجةٍ لا تُطاق. أما تعبير «المدمنون على الشراب»، أو السكارى، فهو تعبيرٌ مهينٌ في معظم الحالات. لكن، إذا راجعنا التاريخ الأدبي فسنعثر على صورةٍ مختلفةٍ كلياً، فمن دون الأدباء ما كان بإمكاننا الاستمتاع بعددٍ كبير من القصائد الرائعة.





المراجع

[1] Ge Xiaoyin. The Climax of Poetry and the Tang Culture[M]. Beijing: Peking University Press, 1998.

[2] Gong Pengcheng. A Leisurely Introduction to Literature[M]. Beijing: World Publishing Corporation, 2006.

[3] Hua Wei. Tang Xianzu and His Peony Pavilion (Volume □, □)[M]. Taipei: Institute of Chinese Literature and Philosophy of Academia Sinica, 2005.

[4] Lin Geng. An Overview of Tang Poetry[M]. Beijing: Tsinghua University Press, 2006.

[5] Lin Geng. Brief History of Chinese Literature (Illustrated)[M]. Beijing: Peking University Press, 2007.

[6] Liu Dajie. History of the Development of Chinese Literature[M]. Tianjin: Baihua Literature and Art Publishing House, 2007.

[7] James JY Liu. Chinese Poetics[M]. Du Guoqing, Trans. Taipei: Linking Publishing, 1981.

[8] Lu Xun. History of Chinese Fiction[M]. Shanghai: Shanghai Ancient Books Publishing House, 1998.

[9] Qian Zhongshu. Studies in Old Chinese Poetry[M]. Beijing: SDX Joint Publishing Company, 2001.

[10] Shi Zhecun. Studies of Tang Poetry[M]. Shanghai: East China Normal University Press, 2001.

[11] David Der-wei Wang. Lyric Tradition and Modernity in China: Eight Classes at Peking University[M]. Beijing: SDX Joint Publishing Company, 2010.

[12] Wang Hong. Ancient Poetry Appreciation Dictionary[M]. Beijing: Beijing Yanshan Press, 1989.

[13] Wang Meng'ou. A Brief Introduction to Literature[M]. Taipei: Yee Wen Publishing Company, 1982.

[14] CT Hsia. History of Chinese Classical Fiction[M]. Translated by Hu Yimin, Shi Xiaolin and Shan Kunqin. Nanchang: Jiangxi People's Publishing House, 2001.

[15] Xu Fuguan. Spirit of Chinese Literature[M]. Shanghai: Shanghai Bookstore Publishing House, 2006.

[16] Wai-lim Yip. Chinese Poetics[M]. Beijing: People's Literature Publishing House, 2006.

[17] Stephen Owen. Borrowed Stone: Stephen Owen's Selected Essays[M]. Translated by Tian Xiaofei. Nanjing: Jiangsu People's Publishing House, 2006.

[18] Yuan Xingpei. History of Chinese Literature[M]. Beijing: Higher Education Press, 1999.

[19] Zheng Zhenduo. History of Chinese Popular Literature (Illustrated)[M]. Shanghai: Shanghai People's Publishing House, 2006.

[20] Zhu Guangqian. Poetics[M]. Beijing: SDX Joint Publishing Company, 1998.

[21] Zhu Ziqing. On Poetry Expressing Ambition[M]. Annotated by Wu Guoping. Nanjing: Phoenix Publishing House, 2008.